كتاب الصناعتين

ابو هلال العسكري

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وليّ كلّ نعمة، وصلواته علة نبيّه الهادي من كلّ ضلالة، وعلى آله المنجبين الأخيار، وعترته المصطفين الأبرار.

قال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل رحمه الله لبعض إخوانه: اعلم علّمك الله الخير، ودلك عليه، وقيضه لك، وجعلك من أهله أنّ أحقّ العلوم بالتعّلم، وأولاها بالتحفّظ بعد المعرفة بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعزف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشّك بيقينها.

وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها.

وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه. وقبيح لعمري بالفقيه المؤتمّ به، والقارئ المهتدي بهديه، والمتكّلم المشار إليه في حسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدّة شكيمته في حجاجه، وبالعربيّ الصّليب والقرشي الصريح ألاّ يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزّنجي والنّبطي، أو أن يستدلّ عليه بما استدلّ به الجاهل الغبيّ.

فينبغي من هذه الجهة أن يقدّم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده على ما ذكرناه، إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه.

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها أنّ صاحب العربية إذا أخلّ بطلبه، وفرّط في التماسه، ففاتته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفّى على جميع محاسنه، وعمّى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيّد، وآخر ردئ، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادر، وآخر بارد، بان جهله، وظهر

نقصه.

وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينّشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصّفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرةً للعاقل، كما فعل ابن جحدر في قوله:

حلفتُ بما أرقلتْ حولَهُ   همرجلةٌ خلقُها شيظَمُ

وما شبرقتْ من تنوفيَّةٍ   بها من وحي الجنِّ زيزيَمُ

وأنشده ابن الأعرابي، فقال: إن كنت كاذباً فالله حسيبك وكما ترجم بعضهم كتابه إلى بعض الرؤساء: مكر كسة تربوتاً ومحبوسة بسريتا فدلّ على سخافة عقله، واستحكام جهله، وضرّه الغريب الذي أتقنه و لم ينفعه، وحطّه و لم يرفعه، لّما فاته هذا العلم وتخلّف عن هذا الفن.

وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام منثور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطّى هذا العلم ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ الردئ المرذول، وترك الجيد المقبول فدل على قصور فهمه، وتأخّر معرفته وعلمه.

وقد قيل: اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أنَّ شعره قطعةٌ من علمه. وما أكثر من وقع من علماء العربية فيه هذه الرذيلة منهم الأصمعي في اختياره قصيدة المرقش:

هل بالدّيارِ أنْ تجيبَ صممْ   لو أنَّ حيًّا ناطقاً كلّمْ

ولا أعرف على أي وجهٍ صرف اختياره إليها، وما هي بمستقيمة الوزن، ولا مونقة الروى، ولا سلسلة اللفظ، ولا جيّدة السّبك، ولا متلائمة النسج.

وكان المفضّل يختارُ من الشعر ما يقلُّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار، لأنَّ الغريب لم يكثر في كلام إلاّ أفسده، وفيه دلالة الاستكراه والتكلُّف.

وقال بعض الأوائل: تلخيص المعاني رفق، والتّشادق من غير أهله بغض، والنظر في وجوه الناس عيّ، ومسّ اللّحية هلل، والاستعانة بالغريب عجز، والخروج عمّا بنى عليه الكلام إسهاب. وكان كثير من علماء العربية يقولون: ما سمعنا بأحسن ولا أفصح من قول ذي الرّمة:

رمتني ميٌّ بالهوى رمىَ ممضعٍ   من الوحشِ لوطٍ لم تعقه الأوانِس

بعينينِ نجلاوينِ لم يجرِ فيهما   ضمانٌ وجيدٍ حلِّيَ الدُّرَّ شامسِ

وهذا كما ترى كلامٌ فجّ غليظ، ووخم ثقيل، لاحظَّ له من الاختيار.

وحكى العتبي عن الأصمعي أنه كان يستحسنُ قول الشاعر:

ولوْ أرسلت من حب ... ك مهبوتاً من الصينْ
لوافيتُك قبل الصبْح ... أو حين تصلينْ

وهما على ما تراهما من دناءة اللّفظ وخساسته، وخلوقة المعرض وقباحته.

وذكر العتبي أيضاً أن قول جرير:

إن العيونَ الّتي في طرفِهَا مرضٌ ... قتلْننَا ثمَّ لم يحينَ قتلانَا
يصرعْنَ ذا اللُّب حتى لا حراك به ... وهنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانَا

وقوله:

إنَّ الذين غدوا بلبِّكَ غادرُوا ... وشلاً بعينِكَ لا يزالُ معينَا
غيَّضنَ من عبراتِهنَّ وقلنَ لي ... ماذا لقيتَ منَ الهوى ولقينَا

من الشعر الذي يستحسن لجودة لفظه، وليس له كبير معنى، وأنا لا أعلم معنى أجود ولا أحسن من معنى هذا الشعر.

فلما رأيت تخلي هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدتُ الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنّفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرةٌ في أثنائه، فهي ضالّة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفّح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهذار. وأجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا:

الباب الأول: في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة وما يجري معه من تصرف لفظها وذكر حدودها وشرح وجوهها وضرب الأمثلة في كل نوع منها وتفسير ما جاء عن العلماء فيها، ثلاثة فصول.

الباب الثاني: في تمييز الكلام جيده من رديه ومحموده من مذمومه فصلان.

الباب الثالث: في معرفة صنعة الكلام، فصلان.

الباب الرابع: في البيان عن حسن السبك وجودة الرصف، فصل واحد.

الباب الخامس: في ذكر الإيجاز والإطناب، فصلان.

الباب السادس: في حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته، فصلان.

الباب السابع: القول في التشبيه، فصلان.

الباب الثامن: في ذكر السجع والازدواج، فصلان.

الباب التاسع: في شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه، خمسة وثلاثون فصلا.

الباب العاشر: في ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول في الإساءة في ذلك والإحسان فيه، ثلاثة فصول.

وأرجو أن يعين الله على المراد من ذلك والمقصود فيما نحونا إليه ويقرنه بالتوفيق ويشفعه بالتسديد، إنه سميع مجيب.

الباب الأول

الإبانة عن موضوع البلاغة

الفصل الأول

في الإبانة عن موضوع البلاغة في اللغة، وما يجري معه من تصرف لفظها، والقول في الفصاحة، وما يتشعّب منه

البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلّغتها غير. ومبلغ الشيء منتهاه. والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسمّيت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. وسمّيت البلغة بلغة لأنك تتبلّغ بها، فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضاً. ويقال: الدنيا بلاغ، لأنها تؤدّيك إلى الآخرة. والبلاغ أيضاً: التبليغ، في قول الله عز وجل: "هذا بلاغٌ للنّاس" أي تبليغ. ويقال: بلغ الرجلُ بلاغة، إذا صار بليغاً، كما يقال نبل نبالة، إذا صار نبيلا. وكلامٌ بليغ وبلغ بالفتح، كما يقال: وجيز ووجز. ورجل بلغ بالكسر: يبلغ ما يريد. وفي مثل لهم أحمق بلغ. ويقال: أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه. كما تقول: أبرحت إذا أتيت بالبرحاء وهو الأمر الجسيم. والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكّلم.

فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله جلّ وعزّ بأنه بليغ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفةٍ كان موضوعها الكلام. وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسعٌ. وحقيقته أنّ كلامه بليغ، كما تقول: فلانٌ رجل محكم، وتعني أن أفعاله محكمة. قال الله تعالى: "حكمةٌ بالغة". فجعل البلاغة من صفة الحكمة، و لم يجعلها من صفة الحكيم، إلاّ أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة، كما أنها جعلت تسمية المزادة راوية كالحقيقة، وكان الراوية حامل المزادة وهو البعير وما يجري مجراه.

ولهذا سمّي حامل الشعر راوية، وكما صار تسمية البقيّ المكتسبة بالفجور القحبة حقيقة، وإنما القحاب السّعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن زنت وتكسّبت بالفجور قالوا: قحبت، أي سعلت.

ومن ذلك النّجو، لأنَّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة استتر بنجوة، والنّجوة: الارتفاع من الأرض، فسمّى ذلك الشيء نجوا مجازاً، ثم كثر استعمالهم له فصار كالحقيقة وصرّفوه، فقالوا: ذهب ينجو، كما يقال: ذهب يتغوّط، إذا صار إلى الغائط، وهو البطن من الأرض لقضاء الحاجة، وسمّوا الشيء الغائط، وصار كالحقيقة حين كثر استعمالهم له. وقالوا، إذا غسل ذلك الموضع من النجو: يستنجى، ومثل هذا

كثير ليس هذا موضع استيعابه.

فأما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم: أفصح فلانٌ عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء. وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر. وفصح أيضاً.

وأفصح الأعجميّ إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحان إذا عبّر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ.

وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما، لأن كلَّ واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له.

وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله تعالى فصيحاً، إذ كانت الفصاحة تتضمّن معنى الآلة ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضّمن من تمام البيان.

والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتام لا يسمّيان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف. وقيل زيادة الأعجم لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف، وكان يعبّر عن الحمار بالهمار، فهو أعجم، وشعره فصيح لتمام بيانه.

فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى.

ومن الدليل على أنّ الفصاحة تتضمّن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى أنّ الببغاء يسمى فصيحاً، ولا يسمى بليغاً، إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه.

وقد يجوز مع هذا أن يسمّى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك، غير مستكره فج، ولا متكلّف وخم، ولا يمنعه من أحد الأسمين شيء، لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف.

وشهدت قوماً يذهبون إلى أنّ الكلام لا يسمّى فصيحاً حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة، فيكون مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم "ألا إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق، فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى". ومثل كلام الحسين بن علي رضى الله عنهما: إن الناس عبيد الأموال، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معايشهم فإذا محصوا بالابتلاء قلّ الديانون. ومثل المنظوم قول الشاعر:

ترى غابة الخطيّ فوق رؤوسهم ... كما أشرفتْ فوق الصّوارِ قرونُها

قالوا: وإذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة، و لم يكن فيه فخامةٌ وفضل جزالة سمّى بليغاً و لم يسمّ فصيحاً، كقول بعضهم وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال: ما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد، ويقدم على ملك عادل بغير حجة، ويسكن قبراً موحشاً بلا أنيس.

وقول آخر لأخ له: مددت إلى المودة يداً فشكرناك، وشفعت ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك، والرجوع إلى محمود الود أولى بك من المقام على مكروه الصّدّ.

وأنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي لإبراهيم بن العباس:

تمرُّ الصَّبَا صفحاً بساكنةِ الغضَا ويصدَعُ قلبي أن يهبّ هبوبُها

قريبة عهدٍ بالحبيب وإنّما هوى كلِّ نفس حيث حلَّ حبيبُها

فالبيت الأول فصيح وبليغ، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح واستدلوا على صحّة هذا المذهب بقول العاص بن عدي: الشجاعة قلبٌ ركين، والفصاحة لسان رزين. واللسان ها هنا: الكلام، والرّزين الذي فيه فخامةٌ وجزالة.

وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلّمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء والكتاب، لهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل.

الفصل الثاني

في الإبانة عن حد البلاغة

فنقول: البلاغة كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفس كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن.

وإنما جعلنا حسنَ المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة، لأنَّ الكلام إذا كانت عباراته رثّة ومعرضه خلقاً لم يسمَّ بليغاً، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى.

ألا ترى إلى معنى الكاتب الذي كتب إلى بعض معامليه: قد تأخّر الأمر فيما وعدت حمله ضحوة النهار، والقوم غير مقيمين، وليس لهم صبري، وهم في الخروج آنفا، فإن رأيت في إزاحة العّلة مع الجهبذ فعلت إن شاء الله. فمعناه مفهوم ومغزاه معلوم، وليس كلامه ببليغ.

فهذا يدلّ على أنّ من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوماً واللفظ مقبولاً على ما قدمناه.

ومن قال: إن البلاغة إنما هي إفهام المعنى فقط، فقد جعل الفصاحة، واللّكنة، والخطأ، والصواب،

والإغلاق، والإبانة سواء.

وأيضاً فلو كان الكلام الواضح السهل، والقريب السّلس الحلو بليغاً، وما خالفه من الكلام المستبهم المستغلق والمتكّلف المتعقد أيضاً بليغاً لكان كلّ ذلك محموداً وممدوحاً مقبولاً، لأنّ البلاغة اسم يمدح به الكلام.

فلمّا رأينا أحدهما مستحسنا، والآخر مستهجنا علمنا أنّ الذي يستحسن البليغ، والذي يستهجن ليس ببليغ.

وقال العتّابي: كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ. وإنما عني: إن أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة، والعبارة النيّرة فهو بليغ.

ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغا، لأنه يفهمنا حاجته، بل ويلزم أن يكون كلّ الناس بلغاء حتى الأطفال، لأنّ كلّ أحد لا يعدم أن يدلّ على غرضه بعجمته أو لكنته أو إيمائه أو إشارته، بل لزم أن يكون السّنور بليغا، لأنّا نستدل بضغائه على كثير من إرادته. وهذا ظاهر الإحالة. ونحن نفهم رطانة السوقي. وجمجمة الأعجمي للعادة التي جرت لنا في سماعها. لا لأنّ تلك بلاغة، ألا ترى أنّ الأعرابي إن سمع ذلك لم يفهمه، إذ لا عادة له بسماعه.

وأراد رجل أن يسأل بعض الأعراب عن أهله فقال: كيف أهلك؟ بالكسر. فقال له الأعرابي: صلبا، إذ لم يشك أنه إنما يسأله عن السبب الذي يهلك به.

وقال الوليد بن عبد الملك لأعرابي شكا إليه ختناً له، فقال: من ختنك؟ ففتح النون. فقال معذر في الحي، إذ لم يشكّ في أنه إنما يسأله عن خاتنه.

وقال رجل لأعرابي: ألقى عليك بيتاً. فقال: ألق على نفسك. وسمع أعرابيّ قصيدة أبي تمام:

طللَ الجميع لقدْ عفوتَ حميدا

فقال: إنّ في هذه القصيدة أشياء أفهمها، وأشياء لا أفهمها، فإما أن يكون قائلها اشعر من جميع الناس، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه. ونحن نفهم معاني هذه القصيدة، لعادتنا بسماع مثلها، لا لأنّا أعرف بالكلام من الأعراب.

ومما يؤيّد ما قلنا من أنّ البلاغة إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ قول بعض الحكماء: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. إلى غير ذلك مما سنذكره ونفسّره في هذا الباب إن شاء الله.

وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه: البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة، فقوله: تضطر العقول إلى فهمه عبارة عن إيضاح المعنى وقوله بأسهل العبارة تنبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحه. ومثل

ذلك من النثر قول بعضهم لأخ له: ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم اعقبتني جفا من غير هفوة، فأطمعني أوّلك في إخائك، وأيأسني آخرك من وفائك، فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشكّ في حالك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف.

وقول الآخر: لم يدع انقباضك عن الوفاء، وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر، والاستمرار على العذر، محركا من القلب عليك، ولا خاطراً يومي إلى حسن الظنّ بك. هيهات انقضت مدة الانخداع لك حين أخلقت عدة الأماني فيك، وما وجدنا ساتراً من تأنيب النصحاء في الميل إليك، والتوفّر عليك، إلا الإقرار بطاعة الهوى، والاعتراف بسوء الاختيار.

وكتب بعض الكتّاب إلى أخ له: تأخرت عني كتبك تأخرا ساء له ظني، إشفاقاً من الحوادث عليك، لا توهماً للجفاء منك، إذ كنت أثق من مودّتك بما يغنيني عن معاتبتك.

ومما هو في هذه الطريقة، وهو أجزل مما تقدّم ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه، قال: وقف علينا أعرابي ونحن برملة اللوى، فقال: رحم الله امرأ لم تمجّ أذناه كلامي، وقدم معاذه من سوء مقامي، فإنّ البلاد مجدبة،والحال مسغبة، والحياء زاجر يمنع من كلامكم، والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم، والدعاء إحدى الصدقتين، فرحم الله امرء أمر بمير، أو دعا بخير.

وقول بعضهم يمدح رجلاً: كان والله بعيد مسافة الرأي، يرمى بهمّته حيث أشار الكرم، يصافح عن صاحبه نوب الزمان، ويتحسّى مرارة الإخوان، ويسيغُهم العذب، ويعطفهم منه على ما جد ندب.

الفصل الثالث

وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة

فحقيقة البلاغة هي ما ذكرته. وقد جاء عن الحكماء فيه ضروبٌ أنا ذاكرها ومفسّرها لتكمل فائدة الكتاب إن شاء الله.

قال إسحق بن حسان: لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المقفّع، إذ قال: البلاغة اسم لمعان تجرى في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، وربما كانت رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأبواب فالوحى فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة.

فقوله: "منها ما يكون في السكوت"، فالسكوت يسمّى بلاغة مجازا، وهو في حالة لا ينجع فيها القول

ولا ينفع فيها إقامة الحجج. إما عند جاهل لا يفهم الخطاب، أو عند وضيع لا يرهب الجواب، أو ظالم سليط يحكم بالهوى، ولا يرتدع بكلمة التقوى. وإذا كان الكلام يعرى من الخير، أو يجلب الشرّ فالسكوت أولى، كما قال أبو العتاهية:

ما كلّ نطقٍ له جوابٌ جوابُ ما يكرهُ السكوتُ

وقال معاوية رضى الله عنه لابن أوس: ابغ لي محدّثاً. قال: أو تحتاج معي إلى محدث؟ قال: أستريح منه إليك، ومنك إليه، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك.

وله وجه آخر، وهو قولهم: كلّ صامت ناطق من جهة الدلالة، وذلك أنّ دلائل الصنعة في جميع الأشياء واضحة، والموعظة فيها قائمة.

وقد قال الرقاشي: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً.

ولما مات الإسكندر وقف عليه بعض اليونانيين فقال: قد طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه، وهو اليوم لنا بسكوته أوعظ، فنظم هذا الكلام أبو العتاهية في قوله:

وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حيّا

وأحسن من هذا الكلام كلّه وأبلغ قول الله عز وجل: "وإن من شيءٍ إلاَّ يسبّح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم" وقوله تعالى: "ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابّة". معناه يدل على الله بصنعته فيه، فكأنه يسجد، وإن لم يسجد و لم يقر بذلك. وقوله تعالى: "ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرهاً وظلالهم بالعدوِّ والآصال". وقوله سبحانه: "تسبّح له السموات السّبع والأرض ومن فيهنَّ، وإن من شيء إلاَّ يسبّح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم". أي لا تفهمونه من جهة السمع، وإن كنتم تفهمونه من جهة العقل.

وقد قال بعض الهند: جمّاع البلاغة: البصر بالحجّة، والمعرفة بمواقع الفرصة. ومن البصر بالحجّة أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعراً، وكانت الكناية أحصر نفعاً. وذلك مثل ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل بن ذكوان، قال: دخل عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عبد الملك بن مروان، وأراد أن يقعد معه على سريره، فقال له عبد الملك: ما بال العرب تزعم أنّك لا تشبه أباك؟ قال: والله لأنا أشبه بأبي من اللّيل بالليل، والغراب بالغراب، ولكن إن شئت خبرتك عمّن لا يشبه أباه قال: من ذلك؟ قال: من لم تنضجه الأرحام، و لم يولد لتمام، و لم يشبه الأخوال والأعمام. قال: ومن

ذاك؟ قال سويد بن منجوف. قال عبد الملك: أكذاك أنت يا سويد؟ قال: نعم. فلما خرجا قال عبيد الله لسويد: وريت بك زنادي، واله ما يسرُّني بحلمك عني حمر النعم قال سويد: وأنا والله ما يسرّني أنك نقصته حرفاً، وإن لي سود النعم.

وإنما كان عرّض بعبد الملك وكان ولد لسبعة أشهر.

وربما كانت البلاغة سبباً للحرمان. وأسباب الأمور طريفة والاتفاقات عجيبة أخبرنا أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان، قال: كتب بعضهم إلى المنصور كتاباً حسناً بليغاً يستمنحه فيه. فكتب إليه المنصور: البلاغة والغنى إذا اجتمعا لامرئ أبطراه، وأمير المؤمنين مشفق عليك من البطر، فاكتف بأحدهما.

وقوله: "ربما كانت البلاغة في الاستماع"، فإنّ المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدّى إليه الخطاب. والاستماع الحسن عونٌ للبليغ على إفهام المعنى. وقال إبراهيم الإمام: حسبكَ من حظّ البلاغة ألاّ يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. وقال الهندي أيضاً: البلاغة وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقول عبيد الله بن عتبة: البلاغة دنوّ المأخذ، وقرع الحجة، وقليل من كثير.

فأما البصر بالحجّة فمثل ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبيه عن عسل قال: قال الهيثم بن عدي: أنبأني عطاء بن مصعب، قال: كان أبو الأسود شيعة لعليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، وكان جيرانه عثمانية فرموه يوماً، فقال: أترمونني؟ قالوا: بل الله يرميك. قال: كذبتم، إنكم تخطئون، وإن الله لو رماني لما أخطأ.

وقال بعضهم لأبي على محمد بن عبد الوهاب: ما الدليل على أنّ القرآن مخلوق؟ قال: إن الله قادر على مثله. فما أحار السائل جوابا.

ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يومئذ خليفة وكان على المنبر يخطب في يوم جمعة، فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه عليه. فقال عمر: ما بال أقوام يسمعون الأذان ويتأخّرون؟ فقال عثمان: والله ما تأخّرت إلا ريثما توضّأت. فقال عمر: وهذا أيضاً، أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من أتى الجمعة فليغتسل".

ومثله قول أبي يوسف بعرفة وقد صلى خلف الرّشيد فلما سّلم في الرّكعتين قال: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر. فقال بعض أهل مكة: من عندنا خرج العلم إليكم. فقال أبو يوسف: لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان، قال: أقام شاعر بباب معن بن زائدة حولاً لا يصل إليه، فكتب إليه رقعة ودفعها إليه:

إذا كان الجوادُ له حجَاب فما فضلُ الجوادِ على البخيلِ

فكتب معن فيها:

إذا كان الجواد قليل مال ولم يعذر تعلّلَ بالحجابِ

فانصرف الرجل يائساً، ثم حمل إليه معن عشرة آلاف درهم.

ومن ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان قال: بلغ إلى ابن الحسين رضى الله عنهما أن عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري يتناولان عليا ويعبثان به، فأرسل إلى عروة، فقال: أما أنت فقد كان ينبغي أن يكون في نكوص أبيك يوم الجمل وفراره ما يحجزك عن ذكر أمير المؤمنين، والله لئن كان عليّ على باطل لقد رجع أبوك عنه، ولئن كان على حقّ لقد فرّ أبوك منه.

وأرسل إلى ابن شهاب، فقال: وأما أنت يا بن شهاب فما أراك تدعني حتى أعرفك موضع كير أبيك.

ومن وضوح الدلالة وقرع الحجة قول الله سبحانه: "وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه. قال: من يحيي العظام وهي رميم. قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم".

فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها، لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء. ثم قال تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقودون"، فزادها شرحاً وقوة، لأنّ من يخرج النار من أجزاء الملك وهما ضدان، ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه. ثم قال تعالى: "أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم". فقوّاها أيضاً، وزاد في شرحها، وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد، لأنَّ إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء.

وحضر أبو الهذيل جنازة فلما دفن الميت قال رجل: يا أبا الهذيل، الإيمان برجوع هذا صعب. فقال أبو الهذيل: يعيده الذي أنشأه أول مرة، إنه على رجعه لقادر.

وأما انتهاز الفرصة فمثاله أيضاً قول أبي يوسف مع أكثر ما جرى في هذا الفصل.

ومنه ما أخبرني به أبو أحمد قال أخبرني الحلواني، قال حدثني محمد بن زكريا، قال حدثنا محمد بن عبد الله الجشمي، عن المدائني، قال: دخل عمرو ابن العاص على معاوية وهو يتغدى فقال له: هلم يا عمرو. فقال هنيئاً يا أمير المؤمنين، أكلت آنفاً. فقال: أما علمت يا عمرو أن من شراهة المرء ألاَّ يدع في بطنه مستزاداً لمستزيد فقال: قد فعلت يا أمير المؤمنين. فقال ويحك لمن بقّيته؟ ألمن هو أوجب حقّاً من أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن لمن لا يعذر عذر أمير المؤمنين. قال: فلا أراك إلا ضيعت حقا لحقّ لعلك لا تدركه. فقال

عمرو: ما لقيت منك يا معاوية ثم دنا فأكل.

وقال أبو العيناء لابن ثوابة: بلغني ما خاطبت به أبا الصقر، وما منعه من استقصاء الجواب إلاّ أنه لم ير عرضاً فيمضغه، ولا مجداً فيهدمه. وبعد فإنه عاف لحمك أن يأكله، وسهك دمك أن يسفكه، فقال: ما أنت والكلام يا مكدى؟ فقال: لا ينكر على ابن ثمانين سنة، قد ذهب بصهر، وجفاه سلطانه، أن يعوّل على إخوانه، فيأخذ من أموالهم، ولكن أشد من هذا أن تستنزل ماء أصلاب الرجال فتستفرغه في حقيبتك. فقال ابن ثوابة: الساعة آمر أحد غلماني بك. فقال: أيهما؟ الذي إذا خلوت ركب، أم الذي إذا ركبت خلا؟ فقال ابن ثوابة: ما تسابّ اثنان إلاّ غلب ألأمهما. قال أبو العيناء: بها غلبت أبا الصقر. فانظر إلى انتهاز الفرصة في قوله: بها غلبت أبا الصقر.

ومنه أن بعض الكتاب لقى أبا العيناء في السّحر، فجعل يتعجّب من بكوره، فقال: أتشاركني في الفعل وتنفرد بالتعجّب.

وقالت له قينةٌ: هب لي خاتمك أذكرك به. قال: اذكريني بالمنع.

وقيل له: لا تعجل فإن العجل من عمل الشيطان. فقال: لو كانت من عمل الشيطان لما قال موسى عليه السلام: "وعجلت إليك ربّ لترضى".

وقال عبيد الله بن سليمان: إنّ الأخبار المذكورة في السخاء وكثرة العطاء من تصنيف الورّاقين وأكاذيبهم. فقال أبو العيناء: و لم لا يكذبون على الوزير أيده الله وأما الإشارة فسنذكرها في موضعها إن شاء الله.

وقال حكيم الهند: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخيّر اللفظ، يكلّم سيد الأمّة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة. ويكون في قواه التصرف في كل طبقة، ولا يدقّق المعاني كل التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كلّ التّنقيح، ويصفّيها كلّ التصفية، ويهذّبها كل التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادق حكيماً، وفيلسوفاً عظيماً، ومن تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، ونظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة فيها، لا على وجهة الاستطراف والتطرّف لها.

قال: واعلم أنّ حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال له وفقاً، ولا يكون الاسم فاضلاً، ولا مقصّرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون نصفّحُه لمصادر كلامه بقدر تصفّحه لموارده، ويكون لفظه مونقاً، ومعناه نيّراً واضحاً. ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم، وأن تواتيه آلته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوز الحقَّ في مقدرا لحسن الظن أودعها تهاون الآمنين، وإن تجاوز بها مقدار الحق في

التهمة ظلمها وأودعها ذلّ المظلومين. ولكلِّ ذلك مقدار من الشغل، ولكلِّ شغلٍ مقدارٌ من الوهن، ولكل وهن مقدارٌ من الجهل.

فقوله: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة" وأول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان. وذلك من فعل الله تعالى، لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها.

ومن الناس من إذا خلا بنفسه وأعمل فكره أتى بالبيان العجيب، والكلام البديع المصيب، واستخرج المعنى الرائق، وجاء باللفظ الرائع. وإذا حاور أو ناظر قصّر وتأخّر. فحقُّ هذا ألاّ يتعرض لارتجال الخطب، ولا يجاري أصحاب البدائه في ميدان القريض، ويكتفي بنتائج فكره.

والناس في صناعة الكلام على طبقات: منهم من إذا حاور وناظر أبلغ وأجاد، وإذا كتب وأملى أخلَّ وتخلّف. ومنهم من إذا أملى برّز، وإذا حاور أو كتب قصر. ومنهم من إذا كتب أحسن، وإذا حاور وأملى أساء. ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات. ومنهم من يسئ فيها كلّها.

فأحسن حالات المسيء الإمساك، وأحسن حالات المحسن التوسّط، فإنّ الإكثار يورثٌ الإملال، وقلّما ينجو صاحبه من الزّلل والعيب والخطل.

وليس ينبغي للمحسن في أحد هذه الفنون المسيء في غيرها أن يتجاوز ما هو محسن فيه إلى ما هو مسيء فيه، فإن اضطر في بعض الأحوال إلى تجاوزه فخير سبله فيه قصد الاختصار، وتجنّب الإكثار والإهذار، ليقلَّ السقط في كلامه، ولا يكثر العيب في منطقه.

وقيل لابن المقفّع: لم لا تطيل القصائد؟ قال: لو أطلها عرف صاحبها. يريد أن المحدث يتشبّه بالقديم في القليل من الكلام، فإذا أطال اختل، فعرف أنه كلام مولد. على أن السابق في ميادين البلاغة إذا أكثر سقط، فكيف المقصّر عن غايتها، والمتخلّف عن أمدها؟ ومن تمام آلات البلاغة التوسع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها، والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها، ومتخيّرها، ورديئها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام، إلى غير ذلك مما سنذكره في الباب الثاني عند ذكر صنعة الكلام إن شاء الله.

وقوله: وهو "أن يكون الخطيب رابط الجأش" ساكن النفس جداً، لأنّ الحيرة والدّهش يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج والإجبال.

وقد بلغك ما أصاب عثمان بن عفان رضى الله عنه أول ما صعد المنبر فأرتج عليه، فقال: إن اللذين كانا قبلي كانا يعدّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على

وجهها. ثم نزل.

وصعد بعض العرب منبراً بخراسان فأرتج عليه، فقال حين نزل:

لئنْ لمْ أكنْ فيكمُ خطيباً فإنني بسيفِي إذا جدَّ الوغى لخطيب

ومن حسن الاعتذار عند الإرتاج ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الشطنى: قال: أخبرنا الغلابي قال: أخبرنا العتبى عن أبيه، قال: خطب داود بن علي، فحمد الله جلّ وعزّ وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال: أمّا بعد فقد يجد المعسر، ويعسر الموسر، ويفلّ الحديد، ويقطع الكليل، وإنّما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام. وقد يعزب البيان، ويعتقم الصّواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان. يفتر بفتوره إذا نكل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل ألا وإنا لا ننطق بطراً، ولا نسكت حصراً، بل نسكت معتبرين، وننطق مرشدين، ونحن بعد أمراء القول، فينا وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدّلت ثمرته. فنتخير منه ما احلو لي وعذب، ونطّرح منه ما املولح وخبث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب، والله أفضل مستعان. ثم نزل.

وعلامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهّله في منطقه.

وقال ثمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهّل، والجزالة والحلاوة. ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لكانه.

وقوله: متخيّر الألفاظ. فمدار البلاغة على تخيّر اللفظ، وتخيّره أصعب من جمعه وتأليفه. وسنشبع الكلام في هذا إن شاء الله.

وقوله: "يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، وهو أن يكون صائغ الكلام قادراً على جميع ضروبه، متمكناً من جميع فنونه، لا يعتاص عليه قسم من جميع أقسامه. فإن كان شاعراً تصرّف في وجوه الشعر، مديحه وهجائه ومرائيه وصفاته ومفاخره، وغير ذلك من أصنافه.

ولاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه ما قيل: كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

وكذلك الكاتب ربما تقدم في ضرب من الكتابة وتأخر في غيره، وسهل عليه نوع منها وعسر نوع آخر. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي، قال: حدثنا القاسم بن إسماعيل، قال: حدثنا إبراهيم بن العباس، قال: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرني المأمون أن أكتب إلى النواحي في الاستكثار من القناديل في

المساجد في شهر رمضان، فبتّ لا أدري كيف أحتذي، فأتاني آت في منامي فقال: قل: "فإنّ في ذلك عمارة للمساجد، وأنساً للسابلة، وإضاءةً للمتهجّدين، ونفياً لمكامن الرّيب، وتتريهاً لبيوت الله جلّ وعزّ عن وحشة الظّلم". فانتبهت وقد انفتح لي ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه.

والمقدّم في صنعة الكلام هو المستولى عليه من جميع جهاته، المتمكّن من جميع أنواعه، وبهذا فضّلوا جريراً على الفرزدق. وقالوا: كان له في الشعر ضروب لا يعرفها الفرزدق. وماتت امرأته النّوار فناح عليها بشعر جرير:

لولا الحياءُ لها جنِى استعبارُ ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزارُ

وكان البحتريّ يفضّل الفرزدق على جرير، ويزعم أنه يتصرّف من المعاني فيما لا يتصرّف فيه جرير، ويورد منه في شعره في كلّ قصيدة خلاف ما يورده في الأخرى. قال: وجرير يكرّر في هجاء الفرزدق ذكر الزبير، وجعثن، والنوار وأنه قينُ مجاشع. لا يذكر شيئاً غير هذا.

وسئل بعضهم عن أبي نواس ومسلم، فذكر أن أبا نواس أشعر، لتصرفه في أشياء من وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه، قال: ومسلم جار على وتيرة واحدة لا يتغيّر عنها.

وأبلغُ من هذه المترلة أن يكون في قوة صائغ الكلام أن يأتي مرّة بالجزل، وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتدّ إذا أراد. ومن هذا الوجه فضّلوا جريراً على الفرزدق، وأبا نواس على مسلم. قال جرير:

طرقتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا وقتُ الزيارةِ فارجِعي بسلامِ

تجرِي السّواكَ على أغرَّ كأنهُ بردٌ تحدَّرَ من متونِ غمامِ

فانظر إلى رقّة هذا الكلام. وقال أيضاً:

وابنُ اللّبونِ إذا مالزَّ في قرنٍ لم يستطعْ صولةَ البزلِ القناعيسِ

فانظر إلى صلابة هذا الكلام والفرزدق يجري على طريقة واحدة، والتصرف في الوجوه أبلغ.

وقال أبو نواس:

قل لذي الوجهِ الطَّريرِ ولذى الرّدفِ الوثيرِ

ولمغلاق همُومي ولمفتاح سُرُورِي

يا قليلاً في التَّلاقي وكثيراً في الضَّمير

فانظر إلى سلاسة هذا الكلام وسهولته، وقال:

وما هوىً إلاّ له سببُ يبتدى منْه وينشعبُ

فتنتْ قلبي محجبَّةٌ ... برداءِ الحسنِ تنتقبُ
خلّيتَ والحسنَ تأخذهُ ... تنتقى منه وتنتخِبُ
فانتقتْ منه طرائفَه ... واستزادتْ فضل ما تهبُ
صار جدّاً ما مزحتُ به ... ربَّ جدٍّ جرَّهُ اللَّعبُ

فهذا أجزلُ من الأول قليلاً. وقال في صفة الكلب:

أنعتُ كلباً جالَ في رباطه ... جولَ مصابٍ فرَّ من إسعاطه
عند طبيبٍ خافَ من سياطهِ ... هجنا به وهاجَ منْ نشاطهِ
كالكوكبِ الدُّرِّي في انحطاطهِ ... عند تهاوى الشدِّ وانبسَاطهِ
يقحِّم القائدَ في حطاطه ... وقدِّه البيداء في اغتبَاطه
لمّا رأى العلهبَ في أقوَاطه ... سابحَهُ ومرَّ في التباطه
كالبرق يقرى المروَ بالتقاطهِ ... مثلَ قلىٍّ طارَ في أنفاطهِ
وانصاعَ يتلوهُ على قطاطهِ ... أغضفت لا ييأسُ من خلاطهِ
يصيد بعد البعد وانبساطهِ ... إن لم يبتّ القلب من نياطهِ
فلم يزل يأخذ في لطاطه ... كالصقّرِ ينقضُّ على عظاطهِ
يقشر جلد الأرض من بلاطهِ ... بأربع يذهَب في إفراطه
لشدّةِ الجرىِ ولاستحطاطهِ ... ما أن يمسّ الأرض في أشواطه
قد خدشتْ رجلاهُ في آباطهِ ... وخرقَ الأذنينِ بانتشاطه
خلجُ ذراعيهِ إلى ملاطهِ ... ينقدّ عند الضيّق بانعطاطهِ
في هبوات الضيّقِ أو رباطهِ ... فأدركَ الظّبيَ ولم يباطهِ
ولفّ عشرين إلى أشراطهِ ... فلم نزلْ نقرَن في رباطهِ
ويعجلُ الشّاوون من خماطه ... ويطبخ الطابخ من أسقاطه
حتى علا في الجوِّ من شياطه

فانظر إليه كيف يتصرّف لين الشدة واللّين، ويضع كلّ واحد منهما في موضعه، ويستعمله في حينه.

وقوله: " ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة". لأنَّ ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كلِّ واحد منهما من الكلام. وأحسن الذي قال: لكلِّ مقام مقال. وربما غلب سوء الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السّوقيّ والمملوكَ والأعجميّ بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة، كأبي علقمة إذ قال لحجّامه: اشدد قصب الملازم، وأرهف ظباة المشارط، وأمرّ المسح، واستنجل الرشح، وخفّف الوطء، وعجّل النزع، ولا تكرهنَّ أبيّا، ولا تمنعنَّ أتيّا. فقال له الحجّام: ليس لي علمٌ بالحروب.

ورأى الناس قد اجتمعوا عليه، فقال: ما لكم تكأ كأتم عليّ كأنكم قد تكأ كأتم على ذي جنّة، افرنقعوا عني.

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن علي بن محمد الأسدي، عن محمد بن أبي المغازل الصبي، عن أبيه، قال: كان لنا جار بالكوفة لا يتكلّم إلا بالغريب، فخرج إلى ضيعة له على حجر معها مهر، فأفلتت، فذهبت ومعها مهرها، فخرج يسأل عنها، فمر بخيّاط، فقال: يا ذا النّصاح، وذات السّمّ، الطاعن بها في غير وغي، لغير عدىً، هل رأيت الخيفانة القبّاء، يتبعها الحاسن المسرهف. كأنّ غرّته القمر الأزهر، ينير في حضره كالخلّب الأجرد. فقال الخيّاط: اطلبها في ترلخ. فقال: ويلك. وما تقول قبّحك الله؟ فما أعلم رطانتك. فقال: لعن الله أبغضنا لفظا، وأخطأنا منطقا.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبي بكر الصولي قال: حدثنا أحمد بن إسماعيل، قال حدثني سعيد بن حميد، قال: نظر رجلٌ إلى أبي علقمة، وتحته بغلٌ مصري حسن المظهر، فقال: إن كان مخبر هذا البغل كمنظره فقد كمل. فقال أبو علقمة: والله لقد خرجت عليه من مصر، فتنكّبت الطريق، مخافة السراق، وجور السلطان، فبينما أنا أسير في ليلة ظلماء فتماء طخياء مدلهمة حندس داجية، في صحصح أملس، إذ أحسَّ بنبأة من صوت نغر، أو طيران ضوع، أو نغض سيد، فحاص عن الطريق متنكّبا لعزّة نفسه، وفضل قوّته، فبعثته باللّجام فعسل، وحركته بالركاب فنسل. وانتعل الطريق بغتاله معترماً، والتحق الليل لا يهابه مظلما. فوالله ما شبهته إلا بظبية نافرة، تحفزها فتخاء شاغية. قال الرجل: ادع الله وسله أن يحشر هذا البغل معك يوم القيامة، قال: ولم؟ قال: ليجيزك الصّراط بطفرة.

وقال أبو علقمة لطبيب: أجد رسيساً في أسناخي، وأرى وجعاً فيما بين الوابلة إلى الأطرة من دايات العنق. فقال الطبيب: هي هي هذا وجع القرشي، قال: وما يبعدنا منهم يا عديّ نفسه؟ نحن من أرومة واحدة، ونجل واحد. قال الطبيب: كذبت، وكلما خرج هذا الكلام من جوفك كان أهون لك، قال: بل لك الهوان والخسار والحقارة والسباب، اخرج عني قبحك الله.

وقال لجارية كان يهواها: يا خريدة، قد كنت إخاً لك عروبا، فإذا أنت نوار، مالي أمقك وتشنئيني قالت:

يا رقيع، ما رأيت أحداً يحبّ أحداً فيشتمه وإذا كان موضع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة، والبدويّ بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب.

وقوله: "ولا يدقق المعاني كلَّ التدقيق". لأنَّ الغاية في تدقيق المعاني سبيل إلى نعميته، وتعمية المعنى لكنةٌ، إلا إذا أريد به الإلغاز وكان في تعميته فائدة، مثل أبيات المعاني، وما يجري معها من اللّحون التي استعملوها وكنوا بها عن المراد لبعض الغرض.

فأما من أراد الإبانة في مديح، أو غزل، أو صفة شيء فأتى بإغلاق دلّ ذلك على عجزه عن الإبانة، وقصوره عن الإفصاح، كأبي تمام حيث يقول:

خانَ الصفاءَ أخٌ خانَ الزمانَ أخاً ... عنهُ فلمْ يتخوَّنْ جسمهُ الكمدُ

وقوله:

يومٌ أفاضَ جوىً أغاضَ تعزّياً ... خاضَ الهوى بحري حجاه المزيدُ

وقوله:

وإنَّ نجريّة بانتْ جأرتُ لها ... إلى يدي جلدي فاستوهكَ الجلدُ

وقوله:

جهميّة الأوصاف إلاَّ أنّهم ... قد لقبوها جوهرَ الأشياءِ

وقوله: "ولا تنقّح الألفاظ كل التنقيح". وتنقيح اللفظ أن يبنى منه بناءٌ لا يكثر في الاستعمال. كما قال بعضهم لبعض الوزراء: أحسن الله إبانتك. فقال له الوزير: عجّل الله إمانتك.

ويدخل في تنقيح اللفظ استعمال وحشيّة وترك سلسه وسهله. وقد أخذ الرواة على زهير قوله:

نقيّ تقيّ لم يكثر غنيمة ... بنهكةِ ذي القربَى ولا بحقلّد

فاستبشعوا الحقلّد وهو السيئ الخلق. وقالوا: ليس في لفظ زهير أنكرُ منه.

وقال يحيى بن يعمر لرجل حاكمته امرأته إليه: أثن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلّها وتضهلها. الشكر: الرضاع. والشّبر: النّكاح. وتطلّها: تسعى في بطلان حقها. وتضهلها: تعطيها الشيء القليل.

قال أبو عثمان: رأيتهم يديرون في كتبهم هذا الكلام، فإن كانوا إنما رووه ودوّنوه لأنه يدلّ على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج، وشعر الطرماح، وأشعار هذيل، يأتي لهم من الرصف الحسن على أكثر من ذلك. ولو خاطب

أحد الأصمعيّ بمثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه. وهذا خارج عن عادة البلغاء.

وقوله: "ويصفّيها كلّ التصفية، ويهذّبها كل التهذيب". فتصفيته تعريته من الوحشيّ، ونفى الشواغل عنه. وتهذيبه تبرئته من الرديّ المرذول، والسوقيّ المردود.

فمن الكلام المهذّب الصافي قول بعض الكتاب: مثلك أوجب حقاً لا يجب عليه، وسمح بحقّ وجب له، وقبل واضح العذر، واستكثر قليل الشكر، لا زالت أياديك فوق شكر أوليائك، ونعمة الله عليك فوق آمالهم فيك.

ومثله قول آخر: ما انتهى إلى غاية من شكرك إلاّ وجدت وراءها حادثاً من برّك، فلا زالت أياديك ممدودة بين آمل فيك تبلّغه، وأمل فيك تحقّقه، حتى تتملّى من الأعمار أطولها، وتنال من الدرجات أفضلها.

وقول أحمد بن يوسف: يومنا يوم ليّن الحواشي وطئ النّواحي، وهذه سماء قد تهلّلت بودقها، وضحكت بعابس غيمها ولامع برقها، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تغب عنا فنقلّ، ولا تفردنا فنستوحش، فإن الحبيب بحبيبه كثير، وبمساعديه جدير.

وقوله: ولا يفعل ذلك حتى يلقى حكيماً، وفيلسوفاً عليما، ومن تعود حذف فضول الكلام، ومشتركات الألفاظ، ونظر إلى المنطق على جهة الصناعة فيها، لا على جهة الاستطراف والتظرّف لها.

يقول: ينبغي أن يتكلّم بفاخر الكلام، ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه، ويقبله منه، ممن عرف المعاني والألفاظ علماً شافياً، لنظره في اللغة والإعراب والمعاني على جهة الصناعة، لا كمن استطرف شيئاً منها، فنظر فيه نظراً غير كامل، أو أخذ من أطرافه، وتناول من أطراره، فتحلّى باسمه، وخلا من وسمه. فإذا سمع لم يفقه، وإذا سئل لم ينقه. وإذا تكلّم عند من هذه صفته ذهبت فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه، لأنّ العاميّ إذا كلمته بكلام العلية سخر منك، وزرى عليك، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامّة: بم كنتم تنتقلون البارحة؟ يعنى على النبيذ. فقال: بالحمّالين. ولو قال له: أي شيء كان نقلكم لسلم من سخريته. فينبغي أن يخاطب كلّ فريق بما يعرفون، ويتجنّب ما يجهلون.

وأما قوله: "من تعوّد حذف فضول الكلام". فحذف فضول الكلام هو أن يسقط من الكلام ما يكون الكلام مع إسقاطه تامّاً غير منقوص، ولا يكون في زيادته فائدة.

وذلك مثل ما روى عن معاوية أنه قال لصحار العبدي: ما البلاغة؟ فقال: أن تقول فلا تخطئ، وتسرع فلا تبطيء. ثم قال: أقلني، هو ألاّ تخطى ولا تبطئ. فألقى اللفظتين، لأن في الذي أبقى غنيً عنهما، وعوضاً منهما.

فأما إذا كان في زيادة الألفاظ وتكثيرها، وترديدها وتكريرها، زيادة فائدة فذلك محمود، وهو من باب

التذييل. ونشرحه في موضعه إن شاء الله.

وقوله: ومشتركات الألفاظ، وقول جعفر بن يحيى: وتخرجه من الشركة، فهو أن يريد الإبانة عن معنى فيأتي بألفاظ لا تدلّ عليه خاصة، بل تشترك معه فيها معان أخر، فلا يعرف السامع أيها أراد. وربما أستبهم الكلام في نوع من هذا الجنس حتى لا يوقف على معناه إلى بالتوهم. فمن الجنس الأول قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم　　　يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعلِ

فوجه الاشتراك في هذا أن السامع لا يدري إلى أيّ شيء أشار من أفعاله في قوله: فعلت ما لم أفعل. أراد أن يبكي إذا رحلوا، أو يهيم على وجهه من الغمّ الذي لحقه، أو يتبعهم إذا ساروا، أو يمنعهم من المضيّ على عزمة الرحيل، أو يأخذ منهم شيئاً يتذكرهم به، أو يدفع إليهم شيئاً يتذكرونه به، أو غير ذلك، مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته، فلم يبن عن غرضه، وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم.

وليس هذا كقولهم: لو رأيت عليا بين الصفين، لأن دليل البسالة والنكاية في هذا الكلام بين، وأمارة النقصان في بيت جريري واضحة، فمن يسمعه وإن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغثّه، ويسترجع الآخر ويستجيده.

ومثله قول سعد بن مالك الأزدي:

فإنك لو لاقيتَ سعد بن مالك　　　للاقيت منه بعض ما كان يفعلُ

فلم يبن عما أراد بقوله يلقى. أخيراً أراد أم شرّا؟ إلا أن يسمع ما قبله أو ما بعده، فيتبيّن معناه، وأما في نفس البيت فلا يتبيّن مغزاه.

ومثله قول أبي تمام:

وقمنا فقلنا بعد أن أفرد الثرى　　　به ما يقال في السحابة تُقلعُ

فقول الناس في السحاب إذا أقلع على وجوه كثيرة، فمنهم من يمدحه، ومنهم من يذمّه، ومنهم من كان يحبّ إقلاعه، ومنهم من يكره إقشاعه، على حسب ما كانت حالاتها عندهم، ومواقعها منهم، فلم يبن بقوله ما يقال في السحابة تقلع معنى يعتمده السامع. وأبين منه قول مسلم:

فاذهبْ كما ذهبتْ غوادِي مزنةٍ　　　أثنى عليها السّهلُ والأوعارُ

على أنّ المحتجّ له لو قال: إن أكثر العادة في السحاب أن يحمد أثره، ويثنى عليه بعده لما كان مبعداً. و لم أزد عيب أبي تمام بما قلت، وإنما أردت الإخبار عن وجوه الاشتراك، وذكر ما يتشعّب منه، وما يقرب من بابه، وينظر إليه من قريب أو بعيد.

ومثل قول أبي تمام قول ابن قيس الرقيات:

إن تعشْ لا نزلْ بخيرٍ وإن تهْ ... لكْ نزل مثل ما يزول العماءُ

والعماء: السّحاب. بل هذا أجود من بيت أبي تمام وأبين.

ومن اللفظ المشترك قول أبي نواس:

وخبن ما يخبن من آخرٍ ... منه وللطّابن أمهارُ

الأمهار هاهنا جمع مهر، من قولهم: مهر يمهر مهراً. والمصادر لا تجمع، ولا يشكّ سامع هذا الكلام أنه يريد جمع مهر فيشكل المعنى عليه.

وخطب بعض المتكلمين، فقال في صفة الله تعالى: لا يقاس بالقياس، ولا يدرك بالألماس. أراد جمع لمس، فأصاب السجعَ وأخطأ المعنى.

وأمّا ما يستبهم فلا يعرف معناه إلا بالتوهّم فهو مثل قول أبي تمام:

جهميّة الأوصاف إلاّ أنهم ... قد لقّبوها جوهر الأشياءِ

فوجه الاشتراك في هذا: أن لجهم مذاهب كثيرة، وآراء مختلفة متشعبة، لم يدلّ فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبّه به الخمر وينسب إليه، إلا أن يتوهّم المتوهم فيقول: إنما أراد كذا وكذا، من مذاهب جهم، من غير أن يدلّ الكلام منه على شيء بعينه.

ولا يعرف معنى قوله: "قد لقّبوها جوهر الأشياء" إلا بالتوهّم أيضاً.

ومن الكلام الخالي من الاشتراك قول بعضهم لأخ له أراد فراقه: لما تصفّحت أخلاقك فوجدتها مباينة لمشاكلتي، زائغة عن قصد طريقتي صبرت عليها، رياضة لنفسي على الصبر لمساوئ أخلاق المعاشرين، ولعلمي بكامن العدوان في جميع العالمين، والذي رجوت من مذمّة خصالك بما أقابلها به من التجاوز، وأسحب على سوء آثارها أذيال التّغاضي، وأنت مع ذلك دائبٌ لا تقوّم اعوجاج مذاهبك، ولا يعطف بك الرأي إلى رشدك، فلمّا فنيت حيلتي فيك، وانقطعت أسباب أملي منك، ورأيت الداء لا يزيد على التعهّد بالدواء إلاّ فساداً، والخرق على التّرقيع إلا اتّساعاً قدّمت اليأس منك على الرجاء فيك، واحتسبت أيّامي السالفة في استصلاحي لك.

وقوله: وحقّ المعنى أن يكون له الاسم طبقاً، أي يكون الاسم طبقاً للفظ بقدر المعنى غير زائد عليه، ولا ناقص عنه. وكأن ذلك من قول امرئ القيس:

طبقُ الأرضِ تحرَّى وتدرّ

أي هي على الأرض كالطّبق على الإناء لا ينقص مه شيء. وسنأتي بالكلام على هذا في فصل الإيجاز إن شاء الله.

وقوله: ولا يكون الاسم فاضلاً ولا مقصّراً. فهذا داخلٌ في الأول من قوله: وحق المعنى أن يكون الاسم له طبقا.

ومثال الفاضل من اللفظ عن المعنى قول عروة بن أذينة:

واسقِ العدوّ بكأسه واعلم له ... بالغيب أن قد كان قبلُ سقاكها

واجز الكرامةَ من ترى أن لولَهُ ... يوماً بذلت كرامةً لجزاكَها

ومعنى هذا الكلام محصور تحت ثلاث كلمات: أجز كلاًّ بفعله. وكان السكوتُ لعروة خيراً منه.

ومن الكلام الفاضل لفظه عن معناه قول أبي العيال الهذلي:

ذكرت أخي فعاودني ... صداع الرأسِ والوصبُ

فذكر الرأس مع الصداع فضلٌ.

وقول أوس بن حجر:

وهمْ لمقلّ المالِ أولادُ علّةٍ ... وإن كانَ محضاً في العمومة مخولا

فقوله: المال مع المقل فضلة.

والمقصّر من الكلام: مالا ينبيك بمعناه عند سماعك إيّاه ويحوجك إلى شرح، كبيت الحارث بن حلّزة:

والعيش خيرٌ في ظلا ... لِ النُّوك ممَّنْ رامَ كدًّا

وسنذكر وجه العيب فيه بعد هذا.

وقوله: ولا مضمّنا: التضمين أن يكون الفصل الأوّل مفتقراً إلى الفصل الثاني، والبيتُ الأول محتاجاً إلى الأخير كقول الشاعر:

كأنَّ القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامريّة أو يراحُ

قطاةٌ غرّها شركٌ فباتتْ ... تجاذبهُ وقد علقَ الجناحُ

فلم يتمّ المعنى في البيت الأول حتى أتمّه في البيت الثاني، وهو قبيح.

ومثاله من نثر الكتاب قول بعضهم: وجعل سيدنا آخذاً من كل ما دعى ويدعى به في الأعياد، بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد.

وقد تسمى استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك، وإدخالك إياه ي أثناء أبيات قصيدتك تضميناً، وهذا حسنٌ وهو كقول الشاعر:

إذا دلّه عزمٌ على الحزمِ لم يقلْ غداً غدها إن لمْ تعقْها العوائقُ
ولكنَّه ماضٍ على عزم يومِه فيفعل ما يرضاهُ خلقٌ وخالقُ

فقوله: غداً غدها إن لم تعقها العوائق من شعر غيره وهو هاهنا مضمن.

وكقول الآخر:

عوَّذَ لمَّا بتُّ ضيفاً له أقراصهُ بخلاً بياسين
فبتُّ والأرضُ فراشي وقد غنّت قفانبك مصاريني

وقول الآخر:

ولقد سما للخرَّميّ ولمْ يقلْ بعد الوغا لكن تضايقَ مقدَمي

وقول ابن الرّومي في مغنّ:

مجلسهِ مأتم اللذاذة وال قصفِ وعرس الهموم والسقمِ
ينشِدُها اللّهوَ عندَ طلعتِه منْ أوحشتْهُ الديارُ لم يقمِ

وكقول جحظة:

أصبحتُ بين معاشرٍ هجروا الندى وتقبّلُوا الأخلاقَ عن أسلافِهمْ
قومٌ أحاولُ نيلهُم فكأنَّما حاولتُ نتفَ الشَّعر من آنافهم
هاتِ اسقينها بالكبير وغنِّنى ذهبَ الذينَ يعاشُ في أكنافِهِم

وباقي كلامه يتضمّن صفة المتكلم لا صفة الكلام. إلا قوله: ويكون تصفّحه لموارده بقدر تصفّحه لمصادره. وسنأتي على الكلام في هذا ونستقصيه في فصل المقاطع والمبادئ.

وقال بعض الحكماء: البلاغة قولٌ يسير، يشتمل على معنى خطير. وهذا مثل قول الآخر: البلاغة حكمة تحت قول وجيز. وقول الآخر: البلاغة علمٌ كثير في قول يسير.

ومثاله قول الأعرابي، وقد سئل عن مال يسوقه، لمن هو؟ فقال: الله في يدي. فأيّ شيء لم يدخل تحت

هذا الكلام القليل من الفوائد الخطيرة، والحكم البارعة الجسيمة.

وقال الله عز وجل اسمه: "ومن يتوكّل على الله فهو حسبه". قد دخل تحت قوله: فهو حسبه من المعاني ما يطول شرحه من إيتاء ما يرجى، وكفاية ما يخشى.

وهذا مثل قوله عز وجل: "وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين".

وسئل بعض الأوائل: ما كان سبب موت أخيك؟ قال: كونه. فأحسن ما شاء.

وقد تنازع الناس في هذا المعنى. أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن الرياضي، قال: قيل لأعرابي: كيف حالك؟ فقال: ما حال من يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه.

وأخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال: حدثنا الغلابي، قال حدثنا ابن عائشة، قال: قلت لأبي: حدّثني حماد بن سلمة، عن حميد بن ثابت، عن أنس والحسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كفى بالسّلامة داء. قال: يا بني، ولا أراه إلا مسنداً، فقد قال حميد بن ثور:

أرى بصرِي قد رابنِي بعدَ صحَّةٍ ... وحسبكَ داءً أن تصحَّ وتسلمَا

وقال آخر:

كانتْ قناتي لا تلينُ لغامزٍ ... فألانَهَا الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربّي بالسلامة جاهداً ... ليصحنى فإذا السلامةُ داءُ

وأوّل من نطق بهذا المعنى النّمر بن تولب في الجاهلية:

يودُّ الفتى طول السلامة والغنى ... وكيف يرى طول السلامة تفعل
يرد الفتى بعد اعتالٍ وصحةٍ ... ينوءُ إذا رام القيام ويحملُ

وقال آخر:

ما حالُ من آفتُه بقاؤه ... نغَّصَ عيشي كلَّه فناؤه

وقال ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا بدارِ إقامةٍ ... إذا زالَ عن نفسِ البصيرِ غطاؤُها
وكيف بقاءُ العيش فيها وإنما ... ينالُ بأسبابِ الفناءِ بقاؤُها

ونقله إلى موضع آخر فقال:

فإنّ الداءَ أكثر ما تراهُ ... من الأشياء تحلُو في الحلوقِ

وقريبٌ من ذلك قول محمد بن علي رضي الله عنهما: مالك من عيشك إلاّ لذة تزدلف بك إلى حمامك، وتقرّبك من يومك، فأية أكلة ليس معها غصص، وشربة ليس معها شرق، فتأمّل أمرك، فكأنك قد صرت الحبيب المفقود، أو الخيال المحترم. وقال أبو العتاهية:

أسرع في نقص امرئٍ تمامُه

ومن الأمثال: كلّ من أقام شخص، وكلّ من زاد نقص، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الداء. وقال آخر:

إذا تمَّ أمرٌ دنا نقصُه ... توقّع زوالاً إذا قيل تَم

وقلت:

ما خير عيشٍ صفوُه يكدِّرُه ... لا بدَّ أن يشكوه من يشكرُهْ

والمرءُ ينسَى والمنايا تذكرُه ... يميتُه بقاؤُه فيقبرُهْ

وكسرُه منه الذي لا يجبرُهْ ... يطويهِ من مداهُ مالا ينشُرُه

في كلَّ مجرى نفسٍ يكرّرُه ... يهدمُ من عمرِكَ مالا تعمرهْ

وقلت:

قد قرُبَ الأمرُ بعد بعدهِ ... وأسعف الإلف بعدَ صدّهِ

وبعدَ بؤسٍ وضيقِ عيشٍ ... صرتُ إلى خفضِهِ ورغدِهِ

لكنّهُ ملبسٌ معارٌ ... لا بدَّ من نزعه وردِّهِ

وهل يسرُّ الفتى بحظٍّ ... وجودُه علَّةٌ لفقدهِ

وقال الرومي: البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة عند الإطالة.

الاقتضاب: أخذُ القليل من الكثير، وأصله من قولهم: اقتضبت الغصن إذا قطعته من شجرته. وفيه معنى السرعة أيضاً، فيقول: البلاغة إجادة في إسراع، واقتصارٌ على كفاية.

فمن البديهة الحسنة ما أخبرنا به أبو أحمد قال أخبرنا إبراهيم بن محمد الشطني قال: حدثني أحمد بن يحيى ثعلب قال: دخل المأمون ديوان الخراج فمرّ بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الناشئ في دولتك، وخرّيج أدبك، والمتقلّب في نعمتك، الحسن بن رجاء. فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن يرفع عن مرتبة الديوان ويعطى مائة ألف درهم.

ومن الاقتضاب الجيد: ما أخبرنا به أبو أحمد قال: أخبرني أبو أحمد الواذاري عن شيخ له قال: قال أبو حاتم: سمعت أبا عبيدة يقول: استفتحت غلامين في الصبا. فزكنت منهما بلوغ الغاية، فجاءا كما زكنت: بلغني أن النظام يتعاطى علم الكلام فمر وهو غلام على حمار يطير به، فقلت له: يا غلام، ما عيب الزّجاج؟ فالتفت إليّ وقال: يسرع إليه الكسر، ولا يقبل الجبر. وبلغني أن أبا نواس يتعاطى قرض الشّعر، فتلقّاني وهو سكران ملتخ، وما طرّ شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل، جامد النّسيم. فقلت: زد. فقال: مظلم الهواء، منتن الفناء. فقلت: زد. فقال غليظ الطّبع، بغيض الشّكل. فقلت: زد. فقال: وخم الطلعة، عسر القلعة. قلت: زد. قال: نابي الجنبات، بارد الحركات. ثم قال: زدني سؤالاً أزدك جواباً. فقلت: كفى من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومن جيد البدائه ما أخبرنا به أبو أحمد أبي عسل بن ذكوان قال: قال المأمون ليحيى بن أكثم: صف لي حالي عند الناس. فقال: يا أمير المؤمنين قد انقادت لك الأمور بأزمّتها، وملّكتك الأمة فضول أعنّتها، بالرغبة إليك والمحبة لك، والرّفق منك، والعياذ بك، بعد لك فيهم، ومنّك عليهم، حتى لقد أنسيتهم سلفك، وآيستهم خلفك. فالحمد لله الذي جمعنا بك بعد التقاطع، ورفعنا في دولتك بعد التواضع. فقال: يا يحيى، أتحبيراً، أم ارتجالا؟ قال: قلت: وهل يمتنع فيك وصفٌ، أو يتعذّر على مادحك قول، أو يفحم فيك شاعر، أو يتلجلج فيك خطيب؟

وقدم على المهدي رجل من أهل خراسان، فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، إنّا قومٌ نأينا عن العرب، وشغلتنا الحروب عن الخطب، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا، وما فيه مصلحتنا، فيكتفي منا باليسير عن الكثير، ويقتصر على ما في الضمير دون التفسير. فقال المهدي: أنت أخطب من سمعته.

وأخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد الكاغذي، قال: أخبرنا أبو بكر العقدي، قال: أخبرنا أبو جعفر الخراز، قال: أخبرنا المدائني: أن أعرابياً دخل على المنصور فتكلّم فأعجب بكلامه، فقال له: سل حاجتك، فقال يبقيك الله، ويزيد في سلطانك. فقال: سل حاجتك، فليس في كل وقت تؤمر بذاك. قال: و لم يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما أستقصرُ عمرك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتنم مالك، وإن سؤالك لشرف، وإن عطاءك لزين، وما بامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين.

أخذ المعنى الأخير من أمية بن الصلت في عبد الله بن جدعان:

عطاؤُك زينٌ لامرئٍ إن حبوتَه ... بسيبٍ وما كلّ العطاءِ يزينُ
وليس بشينٍ لامرئٍ بذلُ وجههِ ... إليكَ، كما بعضُ السؤالِ يشينُ

وقال جعفر بن يحيى: البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليما من التكلّف، بعيداً من سوء الصّنعة، بريّاً من التعقيد، غنيّاً عن التأمّل.

وقله: أن يكون الاسم يحيط بمعناك. فالاسم هاهنا: اللّفظ، أي يحصر اللفظ جميع المعنى ويشتمل عليه. فلا يشذّ منه شيء يحتاج أن يعرف بشرح، أو تفسير، فإذا سمعت اللفظ عرفت أقصى المعنى، وهذا مثل قول الآخر: البليغ من طبّق المفصل فأغناك عن المفسر.

ولا يكون الكلام بليغاً مع ذلك حتى يعرى من العيب، ويتضمّن الجزالة والسهولة وجودة الصنعة، كما ذكرنا قبل.

ومثال ذلك ما كتب بعضهم إلى أخ له: أما بعد فإنّ المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوتٌ ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من برّ.

وقول أعرابي لابنه: يا بنيّ، إن الدنيا تسعى على من يسعى لها، فاهرب قبل العطب. فقد أذنتك ببينٍ، وانطوت لك على حين. قال الشاعر:

حلالٌ لليلَى أن تروع فؤادَه ... يهجرٍ ومغفورٌ لليلَى ذنوبُها

تطّلع من نفسِي لليلَى نوازِع ... عوارف أنّ اليأسَ منك نصيبُها

وزالتْ زوالَ الشمس عن مستقرّها ... فمن مخبري في أيّ أرضٍ غروبُها

وقال آخر:

وماذا عسى الواشون أن يتحدَّثوا ... سوى أن يقولوا إنّني لك عاشقُ

أجلْ صدق الواشون أنت حبيبةٌ ... إليّ وإن لم تصف منك الخلائقُ

وقوله: ويجلّي عن مغزاكَ. أي يوضّحُ مقصدك، ويبيّن للسامع مرادك، ينهى عن التعمية والإغلاق.

وقوله: يخرجه من الشّركة. فقد مضى تفسيره.

وقوله: ولا يستعين عليه بطول الفكرة. هذا لأنّ الفكرة. هذا لأنّ الكلام إذا انقطعت أجزاؤه، و لم تتّصل فصوله ذهب رونقه، وغاض ماؤه، وإنما يروق الكلام إذا جرى جريان السيل، وانصبّ انصباب القطر.

وقال ثمامة: ما رأيتُ أحداً إذا تكلّم لا يتحبّس، ولا يتوقّف، ولا يتلفّف، ولا يتلجلج، ولا يتنحنح، ولا يترقّب لفظاً استدعاه من بعد، ولا يتلمّس التخلّص إلى معنى قد اعتاص عليه بعد طلبه، إلا جعفر بن يحيى.

فمن الكلام الجاري مجرى السيل قول بعض العرب لبعض ملوك بنى أميّة: أقطعت فلاناً أرضاً، وسط محلّتنا، وسواء خطّتنا، ومركز رماحنا، ومبرك لقاحنا، ومخرج نسائنا، ومنقلب إمائنا، ومسرح شائنا،

ومندي همنا، ومحلّ ضيفنا، ومشرق شتائنا، ومصبحنا في صيفنا. فقال: تكفون. وعوّضه عنها وردّها عليهم.

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرني أبي عن عسل بن ذكوان أن الحسن بن علي رضى الله عنهما خطب فقال: اعلموا أنّ الحكمة زين، والوقار مروءة، والصلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسّفه ضعف، والغلق ورطة، ومجالسة أهل الدّناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة.

فهذه هي البلاغة التامة، والبيان الكامل.

وكما قال بعضهم: البلاغة صوابٌ، في سرعة جواب، والعيُّ إكثار في إهذار، وإبطاء يردفه أخطاء.

وقال بعضهم: لست ممن يتوهّم بجله، ويظن بقلة عقله، أن الديانة، والأمانة، والنزاهة، والصيانة، إنما هي في تشمير ثوبه، وإحفاء شاربه، وكشفه عن ساقه، وزهوه بأطماره، وإنعال خفّه، وترقيع ثوبه، وإظهار سجّادته، وتعليق سبحته، وخفض صوته، وخشوع جسمه دون قلبه، واختلاس مشيته، وخفّة وطئه بين قومه. ولا يرتشي في حكمة، ويأخذ على علمه، ويطلب الدنيا بدينه، ولا يرفع طرفه عن عظمته وكبريائه، ولا يكلّم الناس من تصنعه وريائه.

فهذا الكلام وأمثاله في طول النّفس يدل على اقتدار المتكلم، وفضل قوّته في التصرّف.

وقوله: ويكون سليما من التكلّف. فالتكلّف طلبُ الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة. فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد، وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلّف. مثاله قول بعضهم في دعائه: اللهم ربّنا وإلهنا، صلّ على محمد نبيّنا، ومن أراد بناء سوءاً فأحط ذلك السوء به، وأرسخه فيه كرسوخ السّجّيل على أصحاب الفيل، وانصرنا على كل باغ وحسود، كما انتصرت لناقة ثمود.

وقوله: برّيا من سوء الصّنعة. فسوء الصنعة يتصرّف على وجوه: منها سوء التقسيم وفساد التفسير، وقبح الاستعارة والتطبيق، وفساد النّسج والسّبك. وسنذكر المحمود من هذه الأبواب، والمذموم منها فيها بعد إن شاء الله.

وروى أنه قال: بريّاً من الصنعة. فالصّنعة النقصان عن غاية الجودة، والقصور عن حدّ الإحسان. وهو مثل قول العائب في هذا الأمر بعد عمل معناه إنه لم يحكم.

ولمّا دخل النابغة يثرب وغنى بقوله:

أمن آل ميّة رائحٌ أو مغتدِى

ومن هذه القصيدة:

عنمٌ يكادُ من اللّطافةِ يعقدُ

وعرف أنه عيب خرج وهو يقول: دخلتُ يثرب فوجدتُ في شعري صنعة، فخرجت منها وأنا أشعر العرب، أي وجدت نقصانا عن غاية التمام.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي، قال: كان ابن الأعرابي يأمر بكتب جميع ما يجرى في مجلسه، قال: فأنشده رجل يوماً أرجوزة أبي تمام في وصف السحاب على أنها لبعض العرب:

سارية لم تكتحل بغمض كدراء ذات هطلان محضِ

موقرة من خلّةٍ وحمضِ تمضي وتبقى نعما لا تمضِي

فقال ابن الأعرابي: اكتبوها، فلمّا كتبوها قيل له: إنها لحبيب بن أوس، فقال: خرّق خرّق، لا جرم إن أثر الصّنعة فيها بيّن.

وقال الفرزدق القصائد تصنّعاً، أي معابا ومنقصة عن حدّ الإحسان.

وقوله: بعيداً عن التعقيد. والتعقيد، والإغلاق، والتقعير سواء. وهو استعمال الوحشيّ، وشدة تعليق الكلام بعضه ببعض، حتى يستبهم المعنى. وقد ذكرنا أمثاله ذلك فيما تقدم، ونذكر هاهنا منها شيئاً:

فمثال الوحشيّ قول بعض الأمراء وقد اعتلّت أمّه فكتب رقاعاً وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام: صين امرؤ ورعى، دعا لامرأة إنقحلة مقسئنّة، قد منيت بأكل الطّرموق، فأصابها من أجله الاستمصال، أن يمنَّ الله عليها بالاطر غشاش والإبرغشاش. فكلّ من قرأ رقعته دعا عليها، ولعنه ولعن أمه.

الطرموق، الطين. والاستمصال: الإسهال، واطرغش، وابرغش: إذا أبلّ وبرأ.

ومثال الشديد التعليق بعض ألفاظه ببعض حتى يستبهم المعنى، كقوله أبي تمام:

جاري إليه البينُ وصلُ خريدةٍ ماشتْ إليه المطلَ مشى الأكبدِ

يا يوم شرّد يومُ لهوى لهوَهُ بصبابتي وأذلَّ عزَّ تجلّدي

يومٌ أفاضَ جوىً أغاض تعزّياً خاض الهوى بجري حجاهُ المزبدِ

جعل الحجا مزبداً.

وقوله أيضاً:

والمجدُ لا يرضَى بأن ترضى بأن يرضى المعاشرُ منكَ إلاّ بالرّضا

وبلغنا أنّ إسحاق بن إبراهيم سمعه ينشد هذا وأمثاله عند الحسن بن وهي، فقال: يا هذا، لقد شدّدت على نفسك. والكلام إذا كان بهذه المثابة كان مذموماً.

وقوله: غنيّاً عن التأمل، أي هو مستغن لوضوحه عن تأمّل معانيه، وترديد النّظر فيه. كقول بعضهم

لصديق له: وجدت المودّة منقطعة، ما دامت الحشمة عليها مسلّطة، ولا يزال سلطان الحشمة إلا بملكة المؤانسة.

ومما يؤيّد ما قلناه قول الجاحظ: من أعاره الله عز وجل من معونته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً، حبّب إليه المعاني، وسلّس له نظام اللّفظ. وكان قبل قد أعفى المستمع من كدّ التلطّف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهّم.

وقال العربي: البلاغة التقرّب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجازٌ في صواب، وقصدٌ إلى الحجّة، وحسنُ الاستعارة.

ومثله قول الآخر: البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب.

والتقرّب من المعنى البعيد، وهو أن يعمد إلى المعنى اللّطيف فيكشفه، وينفى الشواغل عنه، فيفهمه السامعُ من غير فكر فيه، وتدبّر له. مثل قول الأول في امرأة:

لم ندر ما الدّنيا وما طيبُها   وحسنُها حتى رأيناهَا
إنكَ لو أبصرتَها ساعةً   أجللتهَا أن تتمنَّاها

وقال بعضهم لملك من الملوك: أمّا التعجّبُ من مناقبك فقد نسخه تواترها، فصارت كالشيء القديم الذي قد كسى به أي ألف لا كالشيء البديع الذي يتعجّب منه. ومن هذا أخذ أبو تمام قوله:

على أنها الأيامُ قد صرنَ كلها   عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

وقول آخر لبعض الملوك أيضاً: أخلاقك تجعل العدوّ صديقاً، وأحكامك تصيّر الصديق عدواً، ويشهد عدم مثلك فيما يكون.

وقال بعض القدماء: لكل جليلة دقيقة ودقيقة الموت الهجر.

وقلت:

اسم التفرُّقِ بيّنٌ   لكنَّ معناه موتُ
وجداننا كلَّ شيءٍ   إذا تباعدتْ فوتُ

والرواية الصحيحة أن العربي قال: البلاغة التقرب من المعنى البعيد، ولكن رأيته في بعض أصولي كما ذكرته قبل، فأوردته هاهنا، وفسّرته على ما رأيته في الأصل.

وقوله: والتباعد من حشو الكلام. فالحشو على ثلاثة أضرب: اثنان منها مذمومان، وواحد محمود: فأحد المذمومين هو إدخالك في الكلام لفظاً لو أسقطته لكان الكلام تاما، مثل قول الشاعر:

أنعى فتىً لم تذرَّ الشمسُ طالعةً يوماً من الدهر إلاّ ضرَّ أو نفعَا

فقوله: يوما من الدّهر حشوٌ لا يحتاج إليه، لأن الشمس لا تطلع ليلا.

وقول بعض بني عبس: أنشدنا أبو أحمد عن الصولى عن ثعلب عن ابن الأعرابي:

أبعدَ بني بكرٍ أؤمّل مقبلاً من الدهر أو آسي على إثرِ مدبرِ

وليسَ وراءَ الفوت شيء يردّه عليك إذا ولّى سوى الصّبرِ فاصبر

أولاكَ بنو خيرٍ وشرٍّ كليهما جميعاً ومعروفٍ أريد ومنكرِ

قوله: أريد حشو وزيادة. وقوله: كليهما يكاد يكون حشواً، وليس به بأس، وباقي الكلام متوازن الألفاظ والمعاني، لا زيادة فيه ولا نقصان. وهذا الجنس كثيرٌ في الكلام.

والضرب الآخر العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة في طوله ويمكن أن يعبّر عنه بأقصر منه. مثل قول النابغة:

تبينّت آيات لها فعرفتُها لستّة أعوامِ وذا العامُ سابعُ

كان ينبغي أن يقول لسبعة أعوام ويتمّ البيت بكلامٍ آخر يكون فيه فائدة، فعجز عن ذلك، فحشا البيت بما لا وجه له.

وأما الضرب المحمود فكقول كثيّر:

لوَ أنَّ الباخلين وأنت فيهم رأوك تعلّمُوا منك المطالا

قوله: وأنت فيهم حشوٌ إلاّ أنه مليح. ويسمّى أهل الصنعة هذا الجنس اعتراض كلام في كلام.

ومنه قول الآخر، وهو جرير:

إنّ الثمانين وبلّغتَها قد أحوجتْ سمعي إلى ترجُمان

وسنأتي على هذا الباب فيما بعد إن شاء الله.

ومن الكلام الذي لا حشو فيه قولُ صبرة بن شيمان حين دخل على معاوية مع الوفود فتكلّموا فأكثروا، فقال صبرة: يا أمير المؤمنين، إنّا حيّ فعال، ولسنا حيّ مقال، ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم.

فقال معاوية: صدقت.

ومن هذا قول الشاعر:

وتجهل أيدينا ويحلمُ رأينا ونشتُمُ بالأفعال لا بالتّكلّمِ

وكتب رجلٌ إلى أخ له: ثقتي بكرمك تمنعُ من اقتضائك، وعلمي بشغلك يحدو على ادّكارك.

وقال آخر: في الناس طبائع سيئة وحسنة، فارتبط بمن رجحت محاسنُه.

وقال الحسن: نعم الله على العبد أكثرُ من أن تشكر، إلا أن يعان عليها. وذنوبه أكثر من أن يسلم منها، إلا أن يعفى له عنها.

وأما قرب المأخذ فهو أن تأخذ عفو الخاطر، وتتناول صفو الهاجس، ولا تكدّ فكرك، ولا تتعب نفسك. وهذه صفةُ المطبوع.

وروى أن الرشيد، أو غيره، قال لندمائه وقد طلعت الثريّا: أما ترون الثريّا؟ فقال بعضهم: كأنها عقد ريا.

وقال بعضهم لأبي العتاهية: عذب الماء فطابا فقال أبو العتاهية:

حبّذا الماء شرابا

وقال بشار وقد حبسه يعقوب بن داود على بابه:

طال الثّواء على رسوم المنزل

فرفع إليه قوله، فقال:

فإذا تشاءُ أبا معاذٍ فارحل

ومن قرب المأخذ أنّ الجاحظ أو غيره قال للجماز: أريد أن أنظر إلى الشيطان، فقال: انظر في المرآة.

وقال بعض الولاة لأعرابي: قل الحقَّ وإلا أوجعتك ضرباً فقال الأعرابي: وأنت أيضاً فاعمل به، فوالله لما أوعدك الله به منه أعظم مما أوعدتني به منك.

ومنه أن المأمون قال لأمّ الفضل بن سهل بعد قتله إياه: أتجزعين ولك ولدٌ مثلي؟ قالت: وكيف لا أجزع على ولدٍ أفادنيك.

وهذا على حسب ما قال أبو حنيفة: إذا أتتك معضلة فاجعل جوابها منها.

ومن ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد قال حدثنا الجوهري، قال: حدثنا محمد بن زكريا، قال: حدثنا مهدي بن سابق، قال: حدثنا عطاء بن مصعب عن عاصم بن الحدثان، قال: دعا عبد الملك بن مروان يوماً بالغداء وبحضرته رجل فدعاه إلى غدائه، فقال ليس: بي غداء يا أمير المؤمنين، قد تغديت. فقال عبد الملك: أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضلٌ للطعام. فقال يا أمير المؤمنين، فيّ فضلٌ، ولكن أكره أن آكل فأصير إلى ما استقبحه أمير المؤمنين.

وأمّا قوله: إيجاز في صواب، فسنذكره في بابه. وأمّا الاستعارة فسنصنعها في مواضعها.

وأما قوله: وقصد إلى الحجّة، فقد ذكرنا الكلام فيه.

وقال محمد بن علي رضى الله عنهما: البلاغة قولٌ مفقه في لطف، فالمفقه: المفهم، واللّطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبيّة المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة، فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب، من غير أن تهيجه وتقلقه، وتستدعي غضبه، وتستثير حفيظته.

كقول بعض الكتّاب لأخ له: أنفذ إليّ أبو فلان كتاباً منك، فيه ذرّ من عتاب، كان أحلى عندي من تعريسة الفجر، وألذّ من الزّلال العذب، ولك العتبى داعياً مستجاباً له، وعاتباً معتذراً إليه. ولو شئت مع هذا أن أقول: إنّ العتب عليك أوجب، والاعتذار لك ألزم لفعلت، ولكني أسامحك ولا أشاحك، وأسلّم إليك ولا أرادّك، لأن أفعالك عندي مرضية، وشيمك لديّ مقبولة، ولولا أن للحجّة موقعها لأعرضت عما أومأتُ إليه وما عرضت مما بدأت به، وقلت:

إذا مرضنا أتيناكمْ نعودُكمْ ... وتذنبون فنأتيكُمْ فنعتذرُ

فانظر كيف خلّص نفسه من الجرم، وأوجبه لصاحبه في ألطف وجه، وألين مس.

ومن الكلام الذي يعطف القلوب النافرة قول آخر لأخ له: زيّن الله ألفتنا بمعاودة صلتك، واجتماعنا بترادف زيارتك، وأيامنا الموحشة لغيبتك برؤيتك، توعّد تسنى بالانتقام على إخلالي بمطالعتك، وحسبي من عقوبتك ما ابتليت به من عدم مشاهدتك.

وقال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه: البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عوذار الجهالات، بأسل ما يكون من العبارات.

وقريبٌ منه قول الحسن بن علي رضى الله عنهم: البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة.

ومثله قول محمد بن علي رضى الله عنهما: البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ. وقد مضى فيما تقدّم من كلامنا ما يكون مثالاً لهذه الفصول.

وأنا أورد هاهنا فصلاً ينشرح به أبوابها، ويتّضح وجوهها. أخبرني أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان، قال: قال المأمون لمرتد عن الإسلام إلى النصرانية: أي شيء أوحشك من الإسلام فتركته، قال: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم. فقال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كاختلافنا في الأذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد، وفي صلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك. وليس هذا باختلاف، وإنما ذلك توسعة وتخفيفاً من المحنة. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل وإنما ذلك توسعة وتخفيفاً من المحنة. واختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الخبر عن نبّينا عليه الصلاة والسلام، مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على

عين الخبر.

فإن كان الذي أوحشك هو هذا حتى أنكرت هذا الكتاب فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله، كما يكون متفقاً على تتريله، ولا يكون بين النصارى اختلاف في شيء من التأويلات. ولو شاء الله أن يترّل كتبه ويجعل كلام أنبيائه، وورثة رسله كلاما لا يحتاج إلى التفسير لفعل، ولكننا لم نر شيئاً من الدّين والدنيا دفع إلينا على الكفاية. ولو كان الأمر كذلك لسقطت المحنة والبلوى، وذهبت المسابقة والمنافسة، و لم يكن تفاضلٌ وليس على هذا بنى الله الدنيا.

فقال المرتدّ: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ولد، وأن المسيح عبد الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق، وأنك أمير المؤمنين حقاً.

وقال ابن المقفّع: البلاغة كشف ما غمض من الحقّ، وتصوير الحقّ في سورة الباطل.

والذي قاله أمرٌ صحيح لا يخفى موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل، وذلك أنّ الأمر الظاهر الصحيح الثابت المكشوف ينادي على نفسه بالصحّة، ولا يحوج إلى التكلّف لصحّته حتى يوجد المعنى فيه خطيباً.

وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن، وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتحيّل، ونوع من العلل والمعاريض والمعاذير، ليخفى موضع الإشارة، ويغمض موقع التقصير، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة، وحاجته إلى تغير رسم، أو رفع مترلة دنئ له فيه هوى، أو حطّ مترلة شريف استحقّ ذلك مه، إلى غير ذلك من عوارض أموره.

فأعلى رتب البلاغة أن يحتجّ للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصيّره في صورة المذموم. وقد ذمّ عبد الملك بن صالح المشورة، وهي ممدوحة بكل لسان، فقال: ما استشرت أحداً إلا تكبّر على وتصاغرت له، ودخلته العزّة ودخلتني الذلة، فعليك بالاستبداد فإن صاحبه جليلٌ في العيون، مهيب في الصدور، وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون، فتضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك الصغير، واستخفّ بك الكبير، وما عزّ سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصائحه.

ومدح بعضهم الموت فقال:

قد قلتُ إذ مدحُوا الحياةَ فأكثرُوا — في الموت ألفُ فضيلةٍ لا تعرفُ

فيه أمان لقائه بلقائه — وفارق كلِّ معاشرٍ لا ينصفُ

فالمتمكّن من نفسه يضعُ لسانه حيث يريد.

ومثل هذا كثيرٌ لا وجه لاستيفائه في مثل هذا الموضع.

ذكرت في هذا الباب وهو ثلاثة فصول من نعوت البلاغة، ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية، وأتيت من تفسير مشكلها على ما فيه مقنع، و لم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد، وإنما اقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها، وإنارة مظلمها، فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلّم، والسابق دون اللاحق، وربما اعترض الشكُّ فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه معرفة كثير منها. وأنت أيّدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك، وتأتمُّ بما شرحته منه، وتستدلُّ به على ما ألفيته من جنسه إذا عثرت به، لتستغني عن جميع ما صنّف في البلاغة، وسائر ما ذكرى من أصناف البيان والفصاحة إن شاء الله.

الباب الثاني

تمييز الكلام جيده من رديه ونارده من بارده

والكلام في المعاني فصلان

الفصل الأول من الباب الثاني

في تمييز الكلام

الكلام أيدك الله يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشابه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخير لمباديه، مع قلّة ضروراته، بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه.

فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا، وبالتحفظ خليقاً، كقول الأول:

هم الألى وهبُوا للمجدِ أنفسهم   فما يبالونَ ما نالوا إذَا حمدُوا

وقول معن بن أوس:

لعمركَ ما أهويتُ كفِّى لريبةٍ   ولا حملْتني نحوَ فاحشةٍ رجلِي

ولا قادنِي سمعِي ولا بصري لها   ولا دلَّني رأيِ عليها ولا عقلِي

ولا أعلمُ أنّي لم تصبنِي مصيبةٌ   من الدَّهرِ إلاّ قد أصابتْ فتى قبلِي

ولستُ بماشٍ ما حييتُ لمنكرٍ   من الأمرِ لا يمشي إلى مثلهِ مثلِي

ولا مؤثراً نفسي على ذي قرابةٍ   وأوثر ضيفي ما أقامَ على أهلِي

وقول الآخر:

ولستُ بنظّار إلى جانبِ الغنَى   إذا كانتِ العلياءُ في جانبِ الفقرِ

وقال الآخر:

ذريني أسيِّرْ في البلاد لعلَّني   أصيبُ غنيً فيه لذي الحقِّ محملُ

فإنْ نحنُ لم نسطعْ دفاعاً لحادثٍ تجيءُ به الأيَّامُ فالصبرُ أجملُ
أليسَ كثيراً أنْ تلمَّ ملمَّةٌ وليس علينا في الحقوقِ معوّلُ

ومما هو فصيح في لفظه جيدٌ في رصفه قولُ الشنفري:

أطيلِ مطالَ الجوعِ حتى أميته وأضرب عنه القلبَ صفحاً فيذهلُ
ولولا اجتنابُ العارِ لم يلفَ مشرب يعاشُ به إلاَّ لديَّ ومأكلُ
ولكن نفساً مرةً ما تقيمني على الضيّمِ إلاَّ ريثما أتحوَّلُ

وقول الآخر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُه

وقول الآخر:

وما إن قتلناهم بأكثر منهم ولن بأوفى للطعان وأكرما

وقال دعبل:

وإنَّ امرءًا أمستْ مساقطُ رحلِه بأسوان لم يترك له الحزم معلمَا
حللتُ محلاّ بقصرُ الطّرفُ دونهُ ويعجز عنه الطّيفُ أن يتجشَّما

وقول النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّهُ على شعثٍ، أيّ الرجال المهذّبُ؟

وليس لهذا البيت نظيرٌ في كلام العرب. وقال بعضهم: نظيره قول أوس بن حجر:

ولست بخابئَ أبداً طعاما حذارَ غدٍ، لكلّ غدٍ طعامُ

وهذا وإن كان نظيره في التأليف فإنه دونه لم تكرّر فيه من لفظ غد.

فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرّصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرّونق والطّلاوة، وسلم من حيث التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله و لم يردّه، وعلى السّمع المصيب استوعبه و لم يمجّه، والنفس تقبلُ اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسّه تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عما يضادّه ويخالفه، والعين تألف الحسن، وتقذى بالقبيح، والأنف يرتاح للطيب، وينغر للمنتن، والفم يتلذذ بالحلو، ويمجّ المرَّ، والسمع يتشوّف للصواب الرائع ويتروي عن الجهير الهائل، واليد تنعم باللّين، وتتأذّى بالخشن، والفهمُ يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغى إلى الصواب، ويهربُ من المحال، وينقبض عن

الوخم، ويتأخّر عن الجافي الغليظ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب، والرويّة الفاسدة.
وليس الشأن في إيراد المعاني، لأنَّ المعاني يعرفها العربيُّ والعجميُّ والقرويُّ والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السّبك والتركيب، والخلوّ من أود النّظم والتأليف. وليس يطلبُ من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدّمت.
ألا ترى إلى قول حبيب:

مستسلِمٍ لله سائسُ أمةٍ		بذوي تجهضمهَا له استسلام

فإنه صوابُ اللفظ، وليس هو بحسنٍ ولا مقبول الجهضمة، الوثوب والغلبة.
وقال أبو داود: رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة، وجناحها رواية الكلام، وحليُها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبّة مقرونةٌ بقلّة الاستكراه. وأنشد:

يرمون بالخطبِ الطوالِ وتارةً		وحي الملاحظ خشيةَ الرُّقباءِ

ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأنَّ الردئ من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدلُّ حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعة، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه.

وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني. وتوخّي صواب المعنى أحسن من توخّي هذه الأمور في الألفاظ. ولهذا تأنّق الكاتب في المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ. ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة. يبالغون في تجويدها، ويلغون في ترتيبها، وليدلُّوا على براعتهم، وحذقهم بسناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدّاً كثيراً، وأسقطوا عن أنفسهم تبعاً طويلاً.
ودليل آخر، إنّ الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً، وسلساً سهلاً، ومعناه وسطاً، دخل في جملة الجيّد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر:

ولمّا قضينا من منىً كلَّ حاجةٍ		ومسّحَ بالأركانِ من هوَ ماسحُ
وشدَّتْ على حدبِ المهارى رحالنَا		ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنَا بأطراف الأحاديثِ بيننا		وسالت بأعناقِ المطيّ الأباطح

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى، وهي رائقة معجبة، وإنما هي: ولّما قضينا الحجَّ ومسحنا الأركان وشدّت رحالنَا على مهازيل الإبل ولم ينتظر بعضنا بعضاً جعلنا تتحدَّثُ وتسير بنا الإبل في بطون الأودية.

وإذا كان المعنى صواباً، واللفظ بارداً وفاتراً، والفاتر شرُّ من البارد، كان مستهجناً ملفوظاً، ومذموماً مردوداً، والبارد من الشعر قول عمرو بن معدي يكرب:

قد علمت سلمَى وجاراتُها ... ما قطَّر الفارسَ إلاَّ أنَا
شككت بالرُّمح سرابيلَه ... والخيلُ تعدو زيماً حولنا

وقول الفند الزماني:

أيا تملكُ ياتملِ ... وذاتَ الطوقِ والحجلِ
ذريني وذرى عذلِي ... فإنَّ العذلَ كالقتلِ

وقول النمر:

يهينُون منْ حقرُوا شيبَه ... وإنْ كانَ فيهم يفِي أو يبرْ

وقول أبي العتاهية:

ماتَ واللهِ سعيدُ بنُ وهبِ ... رحمَ اللهُ سعيدَ بنَ وهبِ
يا أبا عثمانَ أبكيتَ عيني ... يا أبا عثمان أوجعتَ قلبِي

والبارد في شعر أبي العتاهية كثير، والشعر كلامٌ منسوجٌ، ولفظٌ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام، فيكون جلفاً بغيضاً، ولا السوقيّ من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً، فالبغيض كقول أبي تمام:

جعل القنَا الدرجات للكذجات ذَا ... ت الغيل والحرجات والأدحال
قد كان حزنُ الخطبِ في أحزانه ... فدعاهُ داعي الحينِ للأسهالِ

وقوله:

يا دهرُ قوِّم من أخدعيكَ فقدْ ... أضججتَ هذا الأنامَ من خرقِك

ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً، والألفاظ إذا اجترّت قصراً، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلاَّ إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد.

وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكدّ، ويستفصحونه إذا

وجدوا ألفاظه كزّة غليظة، وجاسيةً غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً، ولم يعلموا أنَّ السهل أمنع جانباً، وأعزّ مطلباً، وهو أحسن موقعا، وأعذب مستمعاً.

ولهذا قيل: أجود الكلام السهل الممتنع.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي، قال: حدثنا أحمد بن إسماعيل، قال وصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أنّ كلّ أحد يظنّ أنه يكتب مثل كتبه، فإذا رامها تعذرت عليه.

وأخبرنا أيضاً قال: أخبرنا أبو بكر قال: حدثني عبد الله بن الحسين قال: حدثنا الحسن بن مخلد، قال: أنشدنا إبراهيم بن العباس لخاله العباس ابن الأحنف:

إليكَ أشكو ربِّ ما حلَّ بي — من صدِّ هذا التائهِ المعجبِ

إنْ قالَ لم يفعلْ وإن سيل لمْ — يبذلْ وإن عوتب لم يعتِبِ

صب بعصياني ولوْ قالَ لِي — لا تشرَبِ الباردَ لم أشربِ

ثم قال: هذا والله الشعرُ الحسن المعنى، السهل اللفظ، العذب المستمع، القليل النظير، العزيز الشّبيه، المطمع الممتنع، البعيد مع قربه، الصّعب في سهولته قال: فجلعنا نقول: هذا الكلام والله أبلغ من شعره.

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولى عن الغلابي عن طائع وهو العباس بن ميمون، من غلمان ابن ميثم، قال: قيل للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك. فقال: ذاك عيٌّ في زماني، وتكلُّفٌ منِّي لو قلتُه، وقد رزقتُ طبعاً واتساعاً في الكلام، فإنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير. ثم أنشدني:

أيَا ربِّ إني لم أردْ بالذي بهِ — مدحتُ علياّ غيرَ وجهكَ فارحمِ

فهذا كلام عاقلٍ يضعُ الشيء موضعه، ويستعمله في إبّانه، ليس كمن قال وهو في زماننا:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم

فأشمت عدوَّه بنفسه ومن الكلام المطبوع السهل ما وقع به على بن عيسى: قد بلّغتك أقصى طلبتك، وأنلتك غاية بغيتك، وأنت مع ذلك تستقلُّ كثيري لك، وتستقبح حسني فيك، فأنت كما قال رؤبة:

كالحوتِ لا يكفيهِ شيءٌ يلهمُهْ — يصبحُ ظمآنَ وفي البحرِ فمُهْ

ومن المنظوم المطمع الممتنع قول البحتري:

أيها العاتبُ الذي ليسَ يرضى — نم هنيئاً فلستُ أطعم غمضاً

إنَّ لي من هواكَ وجداً قد استه — لكَ نومي ومضجعاً قد أقضَّا

فجفونِي في عبرةٍ ليسَ ترقَا وفؤادي في لوعةٍ ما تقضَّى
يا قليلَ الإنصافِ كم أقتضى عن دكَ وعداً إنجازُهُ ليسَ يقضَى
أحيني بالوصالِ إن كان جوداً وأثبني بالحبِّ إن كان قرضاً
بأبي شادنٌ تعلَّقَ قلبي بجفونٍ فواترِ اللّحظِ مرضَى
لست أنساهُ إذْ بدا منْ قريبٍ يتثَّنى تتثّنَّى الغصنِ غضَّا
واعتذاري إليه حين تجافى ليَ عنْ بعض ما أتيتُ وأغضى
واعتلاقِي تفَّاحَ خدَّيْه تقبي لاً ولثماً طوراً وشمّاً وعضّاً
أيُّها الرَّاغبُ الذي طلبَ الجو دَ فأبلَى كوم المطايَا وأنضَى
ردْ حياضَ الإمامِ تلقَ نوالاً يسعُ الرَّاغبين طولاً وعرضاً
فهناك العطاءُ جزلاً لمن را مَ جزيلَ العطاءِ والجود محضاً
هو أندَى من الغمامِ وأوحَى وقعاتٍ من الحسامِ وأمضَى
يتوخَّ الإحسانَ قولاً وفعلاً ويطيعُ الإلهَ بسطاً وقبضَا
فضلَّ اللهُ جعفراً بخلالٍ جعلتْ حبَّهُ على النَّاسِ فرضَا

ومنها يقول فيه:

وأرى المجدَ بينَ عارفةٍ من كَ تردَّى وعزمةٍ منكَ تمضَى

وقوله:

يتأبَّى منعاً وينعمُ إسعا فاً ويدنُو وصلاً ويبعد صدّاَ
أغتدِي راضياً وقد بتّ غضبا نَ وأمسِي مولىً وأصبحُ عبدَا
رقَّ لي من مدامعٍ ليسَ ترقا وارث لِي من جوانحِ ليسَ تهدَا
أتراني مستبدلاً بكَ ما عشْ تُ بديلاً أو واجداً منكَ بدّاَ
حاشَ للهِ أنتَ أفتنُ ألحا ظاً وأحلى شكلاً وأحسنُ قدّاَ
خلقَ اللهُ جعفراً قيّم الدّن يا سداداً وقيّمَ الدِّين رشدَا
أكرمُ الناسِ شيمةً وأتمّ الن ناسِ حلماً وأكثرُ الناسِ رفدَا
هو بحرُ السَّماحِ والجودِ فازددْ منهُ قرباً تزددْ من الفقرِ بعدَا

يا ثمالَ الدُّنيَا عطاءً وبذلاً وجمال الدُّنيا ثناءً ومجدَا
فابقَ عمرَ الزَّمانِ حتى نؤدِّى شكرَ إحسانكَ الذي لا يؤدَّى

ومما هو أجزلُ من هذا قليلاً وهو من المطبوع قول ابن وهب:

مازالَ يلثمنِي مراشفَه ويعلُّنِي الإبريقُ والقدحُ
حتى استردَّ الليلُ خلعتَهُ ونشا خلالَ سوادِهِ وضحُ
وبدا الصَّباحُ كأنَّ غرَّتَه وجهُ الخليفة حينَ يمتدحُ
أنتَ الذي بكَ ينقضِي فرجاً ضيقُ البلادِ لنا وينفسِحُ
نشرتْ بك الدُّنيا محاسِنها وتزيَّنتْ بصفاتِك المدحُ

ومن السهل المختار الجيّد المطبوع قولُ الآخر:

صرفتَ القلبَ فانصرفَا ولم ترعَ الذي سلفَا
وبنتَ فلم أذبْ كمداً عليك ولم أمتْ أسَفا
كلانَا واجدٌ في النا سِ ممن ملَّه خلَفا

وقول الآخر:

أما والحلقِ السّود على سالفة الخسفِ
وحسن الغصنِ المهتز ز بين النَّحرِ والرِّدفِ
لقد أشفقتُ أن يجرَ حَ في وجنتها طرفِي

وقول الآخر:

كم من فؤادٍ كأنّه جبل أزاله من مقرِّه النَّظرُ

وما كان لفظه سهلاً، ومعناه مكشوفا بيّنا فهو من جملة الرديئ المردود كقول الآخر:

يا ربِّ قد قلَّ صبرِي وضاقَ بالحبِّ صدرِي
واشتدَّ شوقي ووجدي وسيّدي ليسَ يدرِي
مغفَّلٌ عن عذابي وليسَ يرحمُ ضرِّي
إن كان أعطّى اصطباراً فلستُ أملكُ صبرِي
أنَا الفِدا لغزالٍ دنا فقبَّل نحرِي

وقال لي من قريبٍ: يا ليت بيتكَ قبرِي

وإذا لان الكلامُ حتى يصير إلى هذا الحد فليس فيه خيرٌ، لا سيّما إذا ارتكب فيه مثل هذه الضّرورات.

وأما الجزل والمختار من الكلام فهو الذي تعرفه العامّة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها. فمن الجيد الجزل المختار قول مسلم:

وردنَ رواقَ الفضلِ فضلِ بن خالدٍ فحطَّ الثناءَ الجزلَ نائلُه الجزلُ

بكفِّ أبي العبّاسِ يستمطرُ الغنى وتستنزلُ النُّعمى ويسترعفُ النَّصلُ

ويستعطف الأمرُ الأبيُّ بحزمهِ إذا الأمرُ لم يعطفه نقضٌ ولا فتلُ

ومما هو أجزلُ من هذا قول المرار الفقعسي:

فقال يديرُ الموتَ في مرجحنة تسفّ العوالي وسطَها وتشولُ

وكائن تركنَا من كرائم معشرٍ لهنَّ على إبائهنَّ عويلُ

على الجرد يعلكنَ الشّكيم كأنَّها إذا ناقلتْ بالدارعين وعولُ

على كلِّ جيّاشٍ إذا ردّ غربُه يقلّبُ نهد المركلين رجيل

مجنبة قبلُ العيونِ كأنَّها قسيّ بأيدي العاطفين عطول

فللأرض من آثارهنَّ عجاجةٌ وللفجِّ من تصها لهنَّ صليلُ

منعتُ بنجدٍ ما أردتُ غلبَّةً وبالغور لي عزٌّ أشمُّ طويلُ

فهنا وإن لم يكن من كلام العامّة فإنهم يعرفون الغرض فيه، ويقفون على أكثر معانيه، لحسن ترتيبه، وجودة نسجه. وقول المرار أيضاً:

لا تسألي القوم عن مالِي وكثرتِه قد يقترُ المرءُ يوماً وهو محمودُ

أمضى على سنَّةٍ من والدي سلفتْ وفي أرومتَه ما ينبتُ العودُ

ومن النثر قول يحيى بن خالد: أعطانا الدهر فأسرف، ثم عطف علينا فعسف وقول سعيد بن حميد: وأنا من لا يحاجّك عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يلتمس رضاك إلاّ من جهته، ولا يستدعي برّك إلاّ من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذّنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم، نبت بي عنك غرّة الحداثة، وردَّتني إليك الحنكة، وباعدتني منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة. فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر،وتجدّد النّعمة باطّراح الحقد فإن قديم الحرمة، وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة. فإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة، والمتعة بها وإن كثرت قليلة فعلت.

وفي هذا الكلام وما قبله قوة في سهولة.

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث: أجدب بنا الجناب، وأحزن بنا المترلُ، واستحلسنا الحذر، واكتحلنا السّهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء. فعفا عنه.

وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرها، ومتوعّراً متقعّرا، ويكون بريئاً من الغثاثة، عارياً من الرّثاثة.

والكلام إذا كان لفظه غثّاً، ومعرضه رثّاً كان مردوداً، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله. كقوله:

لما أطعناكم في سخطِ خالقِنا لا شك سلَّ علينا سيلَ نقمتِهِ

وقول الآخر:

أرى رجالاً بأدنَى الدِّين قد قنعُوا وما أراهم رضوا في العيشِ بالدُّونِ
فاستغنِ بالدِّين عن دنيا الملوكِ كما اس تغنَى الملوكُ بدنياهُمْ عن الدِّين

لا يدخل هذا في جملة المختار، ومعناه كما ترى نبيلٌ فاضل جليل.

وأما الجزل الردئ الفجّ الذي ينبغي ترك استعماله فمثل قول تأبّط شرّا:

إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثةٍ أو اثنين مثلينا فلا أبتُ آمنا
ولما سمعتُ العوضَ تدعو تنفّرتْ عصافيرُ رأسِي من نوىً فعوائنَا
وحثحثتُ مشعوفَ الفؤاد فراعَنِي أناسٌ بفيفانٍ فمزتُ القرائنا

فأدبرتُ لا ينجُو نجَائي نقنقٌ يبادرُ فرخيه شمالاً وداجنا
من الحصِّ هزروفٌ بطيرُ عفاؤُه إذا استدرج الفيفاءَ مدَّ المغابنَا
أزجُّ زلوجٌ هزرفيٌّ زفازفٌ هزفٌّ يبذُّ النّاجياتِ الصوّافِنَا

فهذا من الجزل البغيض الجلف، الفاسد النَّسج، القبيح الرّصف، الذي ينبغي أن يتجنّب مثله.

وتمييز الألفاظ شديد. أخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن فضل اليزيدي، عن إسحق الموصلي عن أيوب بن عباية: أن رجلاً أنشد ابن هرمة قوله:

بالله ربكَ إن دخلتَ فقلْ لها هذا ابن هرمةَ قائما بالبابِ

فقال: ما كذا قلتُ، أكنتُ أتصدَّق؟ قال: فقاعدا. قال: كنت أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفا. ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى.

ولولا كراهةُ الإطالة وتخوف الإملال لزدت من هذا النوع، ولكن يكفى من البحر جرعة. وقالوا: خير الكلام ما قلَّ وجلّ، ودلّ و لم يملّ. وبالله التوفيق.

الفصل الثاني

في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها

ليتبع من يريد العمل يرسمنا مواقع الصواب فيرتسمها، ويقف على مواقف الخطأ فيتجنّبها

فنقول: إن الكلام ألفاظٌ تشتمل على معان تدلّ عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأنَّ المدار بعد على إصابة المعنى، ولأنّ المعاني تحلّ من الكلام محلَّ الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة.

ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيّأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحوَّلها إلى اللسان العربي، فلا بكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال.

والمعاني على ضربين: ضربٌ يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها. وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة.

والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط.

وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك ويتوخّى فيه الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة، ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه، ولا يغرّه ابتداعه له، فيساهل نفسه في تهجين. صورته، فيذهب حسنه ويطمس نوره، ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد.

والمعاني بعد ذلك على وجوه: منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك: قد رأيت زيداً. ومنها ما هو مستقيمٌ قبيح نحو قولك: قد زيداً رأيت. وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير. ومنها ما هو مستقيم النظم، وهو كذبٌ، مثل قولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر. ومنها ما هو محال، كقولك: آتيك

أمس وأتيتك غداً. وكلّ محال فاسد، وليس كلّ فاسد محالا، ألا ترى أن قولك: قام زيد فاسد، وليس بمحال. والمحال ما لا يجوز كونه البتة، كقولك: الدنيا في بيضة. وأما قولك: حملت الجبل وأشباهه فكذب، وليس بمحال، إن جاز أن يزيد الله في قدرتك فتحمله.

ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذباً محالاً، وهو قولك: رأيت قائماً قاعداً، ومررت بيقظان نائم، فتصل كذباً بمحال، فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما، وإن كان لكل واحد منهما معنىً على حياله، وذلك لّما عقد بعضها ببعض حتى صارا كلاماً واحداً.

ومنها الغلط، وهو أن تقول: ضربني زيدٌ، وأنت تريد ضربت زيداً، فغلطت، فإن تعمدت ذلك كان كذبا.

وللخطأ صورٌ مختلفة نبّهتُ على أشياء منها في هذا الفصل، وبيّنت وجوهها، وشرحت أبوابها لتقف عليها فتجتنبها، كما عرفتك مواقع الصواب فتعتمدها، وليكون فيما أوردت دلالة على أمثله مما تركت، ومن لا يعرف الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه. فمن ذلك قول امرئ القيس:

ألم تسألِ الرَّبْع القديمَ بعسْعسَا   كأني أنادي إذ أكلّمُ أخرسَا

هذا من الشبيه فاسد لأجل أنه لا يقال: كلّمت حجرا فلم يجب فكأنه كان حجراً، والذي جاء به امرؤ القيس مقلوب.

وتبعه أبو نواس فقال يصف داراً:

كأنها إذ خرستْ جارِم   بين ذوي تفنيده مطرق

والجيد منه قول كثير في امرأة:

فقلتُ لها: يا عزُّ كلُّ مصيبةٍ   إذا وطّنت يوماً لها النّفسُ ذلّت

كأنّي أنادي صخرةً حينَ أعرضتْ   من الصّمِّ لو تمشي بها العصمُ زلّتِ

فشبَّه المرأة عند السكون والتغافل بالصخرةِ.

قالوا: ومن ذلك قول المسيب بن علس:

وكأن غاربَها رباوةُ مخرمٍ   وتمدّ ثنىَ جديلهَا بشراعِ

أراد أن يشبِّه عنقها بالدَّقل فشبَّهها بالشّراع. وتبعه أبو النجم فقال:

كأنَّ أهدامَ النَّسيلِ المنسلِ   على يديها والشّراع الأطول

والجيد منه قول ذي الرمة:

وهادٍ كجذع الساج سامٍ يقوده   معرقُ أحناءِ الصّبيّينِ أشدق

وقال أبو حاتم: الشّراع: العنق، يقال: للعنق الشراع والثليل والهادي، فإذا صحّت هذه الرواية فالمعنى صحيح في قول أبي النجم.

وقال طفيل:

يرادَى على فأسِ اللّجامِ كأنما   يرادي على مرقاةِ جذعٍ مشذَّبِ

ومن ذلك قول الراعي:

يكسو المفارقَ واللّبّاتِ ذا أرجٍ   من قصبِ معتلف الكافورِ درّاجِ

أراد المسك، فجعله من قصب الظبي، والقصب: المعى، وجعل الظبي يعتلف الكافور فيتولّد منه المسك، وهذا من طرائف الغلط.

وقريبٌ منه قول زهير:

يخرجنَ من شرباتٍ ماؤها طحلٌ   على الجذوعِ يخفنَ الغمَّ والغرقا

ظن أنّ الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق. ومثله قول ابن أحمر:

لم تدرِ ما نسجُ اليرندجِ قبلَهَا   ودراسُ أعوصَ دارس متخدّد

ظنّ أنّ اليرندج مما ينسج، واليرندج: جلدٌ أسود، تعملُ منه الخفاف فارسي معرب، وأصله رنده، وفسره أبو بكر بن دريد تفسيراً آخر، وقال: إنما هذه حكاية عن المرأة التي يصفها ظنّت لقلة تجربتها أنّ اليرندج شيء منسوج، و لم تدارس عويص الكلام، وألفاظ البيت لا تدلّ على ما قال.

ومثله قول أوس بن حجر:

كأن رثقتها بعد الكرى اعتبقت   من ماء ادكنَ في الحانوتِ نضاح

ومن مشعشعةٍ كالمسك يشربها   أو من أنابيب رمانٍ وتفاحِ

ظن أنّ الرمّان والتفّاح في أنابيب، وقيل: إنّ الأنابيب الطرائق التي في الرمان، وإذا حمل على هذا الوجه صحّ المعنى.

ومن فساد المعنى قول المرقش الأصغر:

صحا قلبُهُ عنها على أنَّ ذكرةً   إذا خطرتْ دارتْ به الأرضُ قائماً

وكيف صحا عنها من إذا ذكرت له دارت به الأرض، وليس هذا مثل قولهم: ذهب شهر رمضان إذا ذهب أكثره، لأنّ الناس لا يعرفون أشدّ الحب إلاَّ أن يكون صاحبه في الحد الذي ذكره المرقش.

والجيد في السلو قول أوس:

صحا قلبه عن سكره وتأملا ... وكان بذكرَى أمّ عمرو موكلا

فقال: وكان بذكرى أم عمرو موكلا.

ومثل قول المرقش في الخطأ قول امرئ القيس:

أغرَّكِ منّى أنّ حبّك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلبَ يفعلِ

وإذا لم يغررها هذه الحال منه فما الذي يغرُّها وليس للمحتجِّ عنه أن يقول: إنما عني بالقتل ههنا التّبريح، فإنّ الذي يلزمه من الهجنة مع ذكر القتل يلزمه أيضاً مع ذكر التّبريح.

ومما أخذ على امرئ القيس قوله:

فللسّوط ألهُوبٌ وللسّاقِ درَّةٌ ... وللزّجر منه وقعُ أخرج مهذبِ

فلو وصف أخسَّ حمارٍ وأضعفه ما زاد على ذلك.

والجيد قوله:

على سابحٍ يعطيك قبلَ سؤالهِ ... أفانينَ جرى غيرَ كزّولا وانِ

وما سمعنا أجود ولا أبلغَ من قوله أفانين جرى.

وقول علقمة:

فأدركهنَّ ثانياً من عنانه ... يمر كمرّ الرائح المتحلّب

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه ولم يضر به بسوطٍ، ولم يمره بساق، ولم يزجره بصوت.

ومما يعاب قول الأعشى:

ويأمرُ لليحمومِ كلَّ عشيّةٍ ... بقتٍّ وتعليقٍ فقد كان يسنقُ

يعنى باليحموم فرس الملك، يقول: إنه يأمرُ لفرسه كلّ عشية بقت وتعليق، وهذا مما لا يمدح به الملوك، بل ولا رجل من خساس الجند.

وقريب منه قول الأخطل:

وقد جعل اللهُ الخلافة منهم ... لأبلجَ لا عارِى الخوانِ ولا جدبِ

يقوله في عبد الملك. ومثل هذا لا يمدح به الملوك.

وأطرف منه قول كثير:

وإنّ أمير المؤمنين برفقهِ ... غزا كامنات الودِّ منى فنالَها

فجعل أمير المؤمنين يتودَّدُ إليه.

وقوله لعبد العزيز بن مروان:

وما زالتْ رقاكَ تسلُّ ضغنى ... وتخرج من مكامنها ضبابي

ويرقيني لكَ الرّاقونَ حتى ... أجابت حية تحت التراب

وإنما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر:

له همٌ لا منتهَى لكبارِهَا ... وهمَّتُه الصّغرى أجلُّ من الدَّهرِ

له راحةٌ لو أن معشارَ جودها ... على البرِّ كان أندَى من البحرِ

ومثل قول النابغة:

فإنكَ كاللّيلِ الذي هو مدركي ... وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

وقوله:

ألم ترَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ... ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

بأنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعت لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

ومن غفلته أيضاً قوله يعني كثيرا:

ألا ليتنا يا عزَّ من غير ريبةٍ ... بعيرانِ نرعى في خلاءٍ ونعزبُ

كلانا به عرٌّ فمن يرنا يقلْ ... على حسنها جرباء تعدى وأجربُ

نكون لذي مالٍ كثيرٍ مغفلٍ ... فلا هو يرعانا ولا نحنُ نطلبُ

إذا ما وردنا منهلاً هاجَ أهلهُ ... إلينا فلا ننفكُّ نُرمى ونضرَبُ

فقالت له عزّة: لقد أردت بي الشقاء الطويل، ومن المنى ما هو أوطأ من هذه الحال. فهذا من التمنّي المذموم.

ومن ذلك أيضاً قول الآخر:

سلاّم ليتً لساناً تنطقينَ به ... قبلَ الّذي نالني من خبله قطعا

فدعا عليها بقطع لسانها.

ومثله قول عبد بني الحسحاس:

وراهنَّ ربِّي مثل ما قد وريتني ... وأحمَى على أكبادهنَّ المكاويا

ومن ذلك قول جنادة:

من حبِّها أتمنَّى أن يلاقيني | من نحوِ بلدتهَا ناعٍ فينعاها
لكي يكونَ فراقٌ لا لقاءَ لهُ | وتضمرَ النفسُ بأساً ثم تسلاها

فإذا تمّنى المحبُّ لحبيبته الموت فما عسى أن يتمنّى المبغض لبغيضته؟ وشتّان بين هذا وبين من يقول:

ألا ليتنا عشنَا جميعاً وكانَ بي | من الداء ما لا يعرفُ الناسُ ما بيَا

فهذا أقرب إلى الصواب. ولو أن جنادة كان يتمنى وصلها ولقاءها لكان قد قضى وطراً من المنى و لم تلزمه الهجنة، كما قال العباسُ بن الأحنف:

فإن تبخلوا عني ببذل نوالكُم | وبالوصل منكم كيْ أصبَّ وأحزنَا
فإني بلذّات المنى ونعيمها | أعيشُ إلى أنْ يجمعَ الله بيننَا

ومن المختار في ذكر المنى قول الآخر:

منىً إن تكنْ حقاً تكن أحسنَ المنَى | وإلاَّ فقد عشنَا بها زمناً رغدا
أمانيَّ من ليلَى حسانٌ كأنّما | سقتكَ بها ليلَى على ظمأ بردَا

وقول الآخر:

ولما نزلنَا منزلاً طلّهُ النَّدَى | أنيقاً، وبستاناً من النّور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُهُ | منىً فتمنّينا فكنتِ الأمانيا

وقال الآخر:

فسوّغيني المُنى كيمَا أعيشَ به | ثمّ أمسكي المنعَ ما أطلقتُ آمالي

على أن عنترة ذمّ جميع المنى حيث يقول:

ألا قاتل الله الطّلولَ البواليا | وقاتل ذكراكَ السنين الخواليَا
وقولكَ للشيءِ الّذي لا تنالُهُ | إذا هويته النّفسُ: يا ليتَ ذا ليَا

وقيل أيضاً:

إن ليتاً وإنَّ لوّا عناء

ومن الفاسد قول النابغة:

ألكنِي يا عيينُ إليكَ قولاً | ستحملُهُ الرّواةُ إليكَ عنِّي

وليس من الصواب أن يقال: أرسلني إلى نفسك ثم قال ستحمله الرواة إليك عني.

ومن خطل الوصف قول أبي ذؤيب:

قصرَ الصبّوحَ لها فضرّجَ لحمهَا بالنَّيِّ فهي تثوخ فيها الإصبعُ

تأبَى بدرَّتها إذا ما استكرِهتْ إلاّ الحميمَ فإنهُ يتبضَّعُ

قال الأصمعي: هذه الفرس لا تساوي درهمين، لأنه جعلها كثيرة اللّحم رخوة تدخل فيها الإصبع. وإنما يوصف بهذا شاء يضحى بها، وجعلها حرونا إذا حرّكت قامت، إلا العرق فإنه يسيل.

والجيد قول أبي النجم:

جرداً تعادى كالقداح ذبُله نطىَ اللحم ولسنَا نهزلهُ

نطويهِ والطّي الدَّقيق يجد لهُ طيَّ التجار العصبَ إذ بتجله

حتّى إذا اللحمُ بدا تذبُّلهْ وانضمَّ عن كلِّ جوادٍ رهلُهْ

راح ورحنا بشديدٍ زجلُه

وقال غيلان الربعي:

يمتاحُ عصريها قرون مائها متحَ السّباع الحسىَ من بطحائِها

حتّى اعتصرنَا البدنَ من اعفائهَا بعدَ انتشار اللحم واستعصائِهَا

تجريدكَ القناةَ منْ لحائهَا مكرمَة لا عيب في احتذائِهَا

وقد قال غيلان أيضاً:

قد صارَ منها اللّحم فوقَ الأعضَا مثلَ جلاميدِ الضفّاةِ الصلّغا

وقال أيضاً:

فوق الهوادِى ذابلات الأكشُح يشقينَ أشوالَ المزادِ النزّحِ

وقال أيضاً:

حتّى إذا ما آضَ عبلاً جرشعاً قد ثمَّ كالفالج لا بل أضلعَا

هجنا به نطويه حتى استوكعَا قد اعتصرنَ البدنَ منهُ اجمعَا

ثم اتَّقانَا بالَّذي لنْ يدفعَا وآضَ أعلى اللّحم منهُ صومعا

فوصفه بعظم الجسم، وصلابة اللّحم، وما وصف أحدٌ الفرس بتركِ الانبعاث إذا حرك غير أبي ذؤيب.

وإنما توصفُ بالسرعة في جميع حالاتها، إذا حرّكت وإن لم تحرّك، فتشبّه بالكوكب، والبرق، والحريق، والريح، والغيث، والسيل، وانفجار الماء في الحوض، والدّلو ينقطع رشاؤها، ويد السابح، وغليان المرجل،

والقمقم، وبأنواع الطير: كالبازي، والسّوذنيق، والأجدل والقطامي، والعقاب، والقطا، والحمام، والجراد، وأنواع الوحش، كالوعل، والظّبي، والذّئب، والتّتفل، ويشبه بالخذروف، ولمعان الثّوب، وبالسّهمِ وبالريح وبالحسى.

قال أعرابي وقد سئل عن حضر فرسه: يحضر ما وجد أرضاً.

وقال آخر: همها أمامها، وسوطها عنانها. أخذ بعض المحدثين فقال:

فكان لها سوطاً إلى ضحوة الغدِ

وأخذه ابن المعتزّ، فلم يستوفِه قوله:

أضيعُ شيءٍ سوطهُ إذْ يضربهْ

فذكر إذ يضربه. وقال في أخرى:

صببنَا عليها ظالمينَ سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجل

وقيل لامرأة: صفي لنا النَّاقة النّجيبة. فقالت: عقاب إذا هوت وحيّةٌ إذا التوت، تطوى الفلاة وما انطوت.

وكتب ابن القرّية عن الحجاج إلى عبد الملك: بعثت بفرس حسن المنظر، محمود المخبر، جيّد القد، أسيل الخدّ، يسبق الطّرف، ويستغرقُ الوصف.

وأجود ما قيل في العدو قول عبدة بن الطبيب:

يخفى التّرابَ بأظلافٍ ثمانية في أربعٍ مسّهنّ الأرضَ تحليلُ

والتحليل، من تحلّة اليمين، وهو أن يقول إن شاء الله، فقول الحالف: إن شاء الله، لا يكون إلا موصولاً باليمين. يقول: إن مواصلة هذا الثور بين خطواته كمواصلة الحالف بالتحلّة يمينه من غير تراخ. أخذه المحدث فقال:

كأنّما برفعنَ ما لمْ يوضعِ

وقال أبو النجم:

جاءَ كلمعِ البرقِ جاشٍ ماطرُه يسبحُ أولاهُ ويطفُو آخرُهْ

فما يمسُّ الأرضَ منه حافرُهْ

وأخذ على أبي النجم قوله: "يسبحُ أولاه ويطفو آخره أنشده الأصمعي فقال: حمار الكسّاح أسرع من هذا، لأنّ اضطراب مآخيره قبيح، وقد أحسنَ في قوله: ويطفو آخره. وقوله: فما يمس الأرض منه حافره

جيد.

وقال أبو نواس:

ما إنْ يقعنَ الأرضَ إلا فرطَا   كأنما يعجلن شيئاً لقطاً

وقال:

فانصاع كالكوكب في انحدارِهِ   لفتَ المشير موهِناً بنارِهِ

وقال ذو الرمة:

كأنه كوكبٌ في إثر عفريةٍ

أخذه ابن الرومي، فقال:

فخذها تبُوعاً لمنْ ولى مسومةً   كأنها كوكبٌ في إثر عفريت

وقال ابن المعتز في كلبة:

وكلبةٍ زهراء كالشهاب   تحسبها في ساعةِ الذّهابِ

نجماً منيراً لاح في انصبابِ   خفيفةَ الوطء على التّراب

وقال خلف بن الأحمر:

كالكوكبِ الدرِّي منصلتاً   شدا يفوتُ الطّرفَ أسرعُهُ

وكأنما جهدتْ أليتَه   أن لا تمسَّ الأرض أربعُهُ

أخذهُ من قول الأعشى:

بجلالةٍ أجدٍ مداخلةٍ   ما إنْ تكاد خفافها تقعُ

وقال أبو نواس:

أرسلهُ كالسّهم إذ غلا بهِ   يسبق طرفَ العينِ في التهابِهِ

يكادُ أن ينسلَّ من إهابهِ   كلمعانِ البرقِ في سحابهِ

مأخوذ من قول ذي الرمة:

لا يذخرَانِ من الإيغال باقيةً   حتَّى تكاد تفرَّى عنهما الأهُبُ

وقال كثير:

إذا جرى معتمداً لأمه   يكادُ يفري جلدَه عن لحمِهِ

وقال أعرابي:

غايةُ مجدٍ رفعت فمنْ لهَا — نحنُ حويناهَا وكنَّا أهلَهَا

لو أرسلَ الرِّيح لجئنا قبلَهَا

وقال أبو النجم:

كأنَّ في المروِ حريقاً يشعلهُ — أو لمعَ برقٍ خافقٍ مسلسله

ومما عيب على طرفة قوله:

وإذا تلسُنني ألسُنُها — إنني لستُ بموهونٍ فقرْ

والعاشقُ يلاطف من يحبّه ولا يحاجّه، ويلاينُه ولا يلاجّه.

وقد قال بعض المحدثين:

بُنِى الحبُّ على الجورِ فلوْ — أنصفَ العاشقُ فيهِ لسمُجْ

ليسَ يستحسنُ في وصفِ الهوَى — عاشقٌ يعرفُ تأليفَ الحجَجْ

ومن خطأ المعاني قول الأعشى:

وما رابَها من ريبةٍ غيرَ أنَّهَا — رأتْ لمَّتِى شابتْ وشابتْ لدَاتيَا

وأي ريبة عند امرأة أعظم من الشيب.

ومثله قوله:

وأنكرَتني وما كانَ الَّذي نكرتْ — من الحوادثِ إلاَّ الشَّيبَ والصَّلَعَا

وأعجب منه قوله أيضاً:

صدَّتْ هريرةٌ عنَّا ما تكلّمنا — جهلاً بأمِّ خليْد حبلَ منْ تصلُ

أإنْ رأتْ رجلاً أعشَى أضرَّ بهِ — ريبُ الزّمانِ ودهر خاتلٌ خبلُ

وأيّ شيء أبغض عند النساء من العشا والضر يتبينّه في الرجل؟ وأعجب ما في هذا الكلام أنه قال: حبلَ من تصل هذه المرأة بعدي وأنا بهذه الصفة من العشا والفقر والشّيب؟ فلا ترى كلاماً أحمق من هذا.

ومن اضطراب المعنى قول امرئ القيس:

أراهنّ لا يحببنَ منْ قلَّ مالُهُ — ولا من رأينَ الشَّيبَ فيه وقوَّسَا

وهن يبغضنَه من قبل التقويس، فما معنى ذكر التّقويس؟ فأما بغضهن لمن قوّس فجدير وليس ببديع.

ومن الجيد في هذا الباب قول بعض المتأخرين:

لقد أبغضتُ نفسِي في مشيبِي — فكيفَ تحبني الخودُ الكعَابُ

وقلت:

فلا تعجبا أنْ يعبنَ المشيبَ فما عبنَ من ذاكَ إلاّ معيباً

إذا كان شيبي بغيضاً إليَّ فكيفَ يكونُ إليهَا حبيباً

ومن فساد المعنى قول النابغة:

تحيدُ عن أستنٍ سودٍ أسافلُهُ مشى الإماء الغوادي تحملُ الحُزَمَا

وإنما تحملُ الإماء حزمَ الحطب عند رواحهنّ، فأما غدوهنَّ إلى الصحراء فإنهن مخفّات.

والجيد قول التغلبي:

يظلُّ بها ربذ النّعامِ كأنَّها إماءٌ تزجّى بالعشيِّ حواطبُ

وقد روى مثل الإماء. وإذا صحّت هذه الرواية سلمَ المعنى.

والأستن: شجر بشع المنظر تسميّه العرب رؤوسَ الشياطين. وجاء في بعض التفسير في قوله تعالى: "طلعها كأنّه رؤوسُ الشياطين": إنه عنى الأسنن.

وقد أساء النابغة أيضاً في وصف الثور حيثُ يقول:

منْ وحشٍ وجرةَ موضيٍّ أكارعُهُ طاوِي المصيرِ كسيفِ الصّيقلِ الفردِ

أراد بالفرد أنه مسلولٌ من غمده، فلم يبينْ بقوله: الفرد عن سلّه بياناً واضحاً.

والجيد قول الطِّرمّاح وقد أخذه منه:

يبدُو وتضمرُهُ البلادُ كأنَّه سيفٌ على شرفٍ يسلُّ ويغمدُ

وهذا غايةٌ في حسن الوصف.

وربما سامح الشاعرُ نفسه في شيء فيعود عليه بعيبٍ كبير. وقد قال المتلمس:

وقد أتناسَى الهمَّ عندَ احتضارهِ بناجٍ عليهِ الصّيعريّة مكدمِ

كميت كناز اللَّحمِ أوْ حميريّةٍ مواشكةٍ تنفى الحصَى بمثلم

والصيعرية: سمةٌ للنوق فجعلها للجمل.

وسمعه طرفة ينشدها، فقال: استنوق الجمل. فضحك الناس وسارت مثلاً. فقال له المتلمّس: ويلٌ لرأسكَ من لسانك، فكان قتلُه بلسانه وروى هذا الحديث له مع المسيّب بن علس.

وأخبرنا أبو أحمد عن مهلهل بن يموت عن أبيه، عن الجاحظ أنه قال: وممن أراد أن يمدح فهجا الأخطلُ وانبرى له فتى، فقال له: أردت أن تمدح سماكا الأسدي فهجوته، فقلت:

نعم المجيرُ سماكاً من بني أسدٍ   بالطَّفِّ إذْ قتلتْ جيرانَها مضرُ

قد كنتُ أحسبُهُ قيناً وأنبؤُهُ   فاليومَ طيّر عن أثوابه الشّررُ

وأردتَ أن تهجُو سويد بن منجوف فمدحته، فقلت:

وما جذعُ سوءٍ خرَّبَ السَّوسُ جوفَهُ   بما حمَّلتهُ وائلٌ بمطيقٍ

فأعطيته الرياسة على وائل، وقدرُه دون ذلك.

وأردت أن تهجو حاتم بن اليعمان الباهلي وأن تصغِّر من شأنِه وتضعَ منه، فقلت:

وسوَّدَ حاتماً أنْ ليسَ فيها   إذا ما أوقدَ النِّيرانَ نارُ

فأعطيته السودد في الجزيرة وأهلها ومنعته ما لا يضره.

وقلت في زفر بن الحرث:

بَنِي أُميَّةَ إِني ناصحٌ لكم   فلا يبيتنّ فيكمْ آمناً زفَرُ

مفترشٌ كافتراشِ اللَّيثِ كلكلُه   لوقعةٍ كائنٍ فيها لكمْ جزرُ

فأردتَ أن تغرى به فعظّمتُ أمره، وهوَّنتَ أمر بني أمية.

ومن اضطراب المعنى ما أخبرنا به أو أحمد عن مبرمان، عن أبي جعفر بن القبسي، قال: لما قتلت بنو تغلب عمير بن الحباب السلمى أنشد الأخطل عبد الملك والجحّاف السلمى عنده:

ألا سائلِ الجحافَ هل هو ثائرٌ   بقتَلى أصيبتْ من سليمٍ وعامرِ

فخرج الجحّاف مغضباً حتى أغار على البشر وهو ماءٌ لبنى تغلب فقتل منهم ثلاثة وعشرين رجلاً، وقال:

أبا مالِكٍ هلْ لمتني مذ حضضتَنِي   على القتلِ أو هلْ لا منِي لكَ لائم

متَى تدعُنِي أخرَى أحبكَ بمثلهَا   وأنتَ امرؤٌ بالحقِّ ليسَ بعالم

فخرج الأخطلُ حتى أتى عبد الملك، وقد قال:

لقد أوقَع الجحَّافُ بالبشرِ وقعةً   إلى الله منها المستَكَى والمعوَّل

فإلاَّ تغيِّرهَا قريش بمثلِهَا   يكنْ عنْ قريش مسمارٌ ومزحَل

فقال له عبد الملك: إلى أين يا بن اللّخناء؟ فقال: إلى النّار. فقال. والله لو غيرها قلت لضربتُ عنقك.

ووجه العيبِ فيه أنه هدّد عبد الملك، وهو ملكُ الدنيا بتركهِ إياه والانصراف عنه إلى غيره. وهذه حماقة مجردة، وغفلة لا يطار غرابها. ثم قال:

فلا هدى اللهُ قيساً منْ ضلالتَها   ولا لعّاً لبنى ذكوانَ إذ عثرُوا

ضجُّوا من الحربِ إذ عضتَّتْ غواربَهُمْ وقيس غيلانَ من أخلاقِها الضجَّرُ

فقال له عبد الملك: لو كان الأمر كما زعمت لما قلت:

لقدْ أوقعَ الجحّاف بالبشرِ وقعةً

وممن أراد أن يمدح نفسه فهجاها جرير في قوله:

تعرَّضَ التَّيمُ لي عمداً لأهجوها كما تعرَّضَ لاستِ الخارئِ الحجرُ

فشبَّه نفسه باستِ الخاري.

وقريبٌ من ذلك قول الرّاعي:

ولا أتيتُ نجيدةَ بن عويمرٍ أبغى الهدَى فيزيدني تضليلاً

فأخبر أنه على شيء من الضلال، لأن الزيادة لا تكون إلا على أصل، وأراد أن يمدح نفسه فهجاها.

وأراد جريرٌ يذكر عفوه عن بني غدانة حيث شفع فيهم عطية بن جمال، فهجاهم أقبح هجاء حيث يقول:

أبِني غدانة إنني حررَّتكم فوهبتُكم لعطيَّةَ بن جعال

لولا عطيَّةُ لاجتدعتُ أنوفكم ما بين الأم آنفٍ وسبالِ

فلما سمع عطية هذا الشعر قال: ما أسرعَ ما رجع أخي في عطيّته.

ومثل ذلك سواء قول يزيد بن مالك العامري حيث يقول:

أكفُّ الجهلَ عن حلماءِ قومي وأعرضُ عن كلامِ الجاهلينَا

فأخبر أنه يحلم عن الجهّال ولا يعاقبهم، ثم نقض ذلك في البيت الثاني، فقال:

إذا رجلٌ تعرَّضَ مستخفّاً لنا بالجهلِ أوشكَ أنْ يحينَا

فذكر أنه كاد أن يفتكَ بمن جهل عليه.

وقريب منه قول عبد الرحمن بن عبد الله القس:

أرى هجرها والقتلَ مثلين فاقصروا ملامكم فالقتلُ أعفى وأيسَرُ

فأوجب أنَّ الهجر والقتل سواء، ثم ذكر أنَّ القتلَ أعفى وأيسر، ولو أتى بيل استوى.

ومن عجائب الغلط قول ذي الرمة:

إذا انجابت الظّلماء أضحت رؤوسُها عليهنَّ من جهد الكرى وهي ظلَّعُ

وقال ابن أبي فروة: قلت لذي الرّمة: ما علمتُ أحداً من الناس أظلع الرؤوس غيرك فقال: أجل.

ومن الغلط قول العجّاج:

كأنَّ عينيهِ من الغؤورِ		قلتَانِ أو حوجَلتا قارورِ

صيّرتا بالنَّضجِ والتَّصبير		صلاصلَ الزَّيتْ إلى الشّطورِ

فجعل الزّجاج ينضج.

ومن الخطأ قول رؤبة في صفة قوائم الفرس: "يهوين شتى ويقعن وقعا" فقال له سلم: أخطأت، جعلته مقيّداً، فقال له رؤبة: أدنِي من ذنب البعير، أي لستُ أبصر الخيل، وإنما أنا بصيرٌ بالإبل.

ومن الغلط قول رؤبة أيضاً:

وكلُّ زجَّاجٍ سخام الخملِ		يبرى له في رعلاتٍ خطلِ

جعل للظليم عدّةَ إناث، وليس للظليم إلا أنثى واحدة.

وأخطأ في قوله:

كنتمْ كمن أدخل في جحرٍ يدا		فأخطأ الأفعى ولاقَى الأسودَا

فجعل الأفعى دونَ الأسودِ في المضرَّةِ، وهي فوقهُ فيها.

ومن خطأ الوصف قول أبي النّجم:

أخنسَ في مثل الكظام المخطمه

والأخنس: القصير المشافر، وإنما توصف المشافر بالسّبوطة.

ووصف أعرابي إبلا، فقال: كوم بهازر، مكد خناجر، عظام الحناجر، سباط المشافر، أجوافها رغاب، وأعطانها رحاب، تمنع من البُهُم، وتبذل للجممِ.

ناقة مكود وخنجورة: كثيرة اللبن. والبهازر: العظام. والكوم: المرتفعة الأسنمة. و لم يحسن أيضاً صفة ورود الإبل. قال:

جاءت تسامي في الرَّعيلِ الأوَّلِ		والظَّلُّ عن أخفافِهَا لم يفضُلِ

ذكر أنها وردتْ في الهاجرة، وهذا خلاف المعهود، وإنما يكون الورود غلسا، كقول الآخر:

فوردتْ قبلَ الصبّاحِ الفاتقِ

وقال الآخر:

فوردن قبل تبين الألوانِ

وقول لبيد:

إن من وردى تغليس النَّهلْ

ومن الغلط قول أبي النّجم:

صلبُ العصا جافٍ عن التغزلُّ

يصف راعي الإبل بصلابة العصا، وليس بالمعروف.

والجيّد قول الراعي:

ضعيفُ العصا بادي العروق ترَى لهُ   عليهَا إذا ما أجدبَ الناسُ إصبعاً

وإنما يقال: فلانٌ صلب العصا على أهله إذا كان شديداً عليهم.

ومن الغلط قول أبي النّجم أيضاً في وصف الفرس، وهو غلط في اللّفظ

كأنّها ميجنة القصَّار

وإنما الميجنة لصاحب الأدم، وهي التي يدقُّ عليها الأدمُ من حجرٍ وغيره.

ومن فساد المعنى قول الشمَّاخ:

بانتْ سعاد وفي العينينِ ملمُولُ   وكانَ في قصرٍ من عهدها طولُ

كان ينبغي أن يقول: في طول من عهدها قصر، لأنَّ العيش مع الأحبّةِ بوصف بقصر المدة، كما قال الآخر:

يطولُ اليومُ لا ألقاكَ فيه   وحولٌ نلتقي فيه قصيرُ

ومن اضطراب المعنى قول أبي دواد الأيادي:

لو أنها بذلتْ لذي سقمٍ   حرض الفؤادِ مشارف القبضِ

حسنَ الحديثِ لظلَّ مكتئباً   حرَّان من وجد بها مضٍّ

وكان استواء المعنى أن يقول: لبرأ من سقمه كما قال الأعشى:

لو أسندتْ ميتاً إلى نحرِهَا   عاشَ ولم ينقلْ إلى قابرِ

وقال تأبط شراً:

قليلُ غرارِ النّومِ

تقديره قليل يسير النوم، وهذا فاسد، ووجهُ الكلام أن يكون ما ينام إلاَّ غراراً، فإن احتلت له قلت: يعنى أن نومه أيسر من اليسير.

وقول أبي ذؤيب:

فلا يهنأ الواشونَ أن قد هجرتُها وأظلمَ دوني ليلُها ونهارُها

هذا من المقلوب، كان ينبغي أن يقول: وأظلم دونَها ليلى ونهاري.

وقول ساعدة:

فلو نبأتك الأرضُ أو لو سمعتَه لأيقنتَ أني كدتُ بعدكَ أكمدُ

كان ينبغي أن يقول: إنِّ بعدك أكمَد.

ومن الخطأ قول طرفة يصف ذنب البعير

كأنَّ جناحي مضرحيٍّ تكنَّفَا حفافيه شكًّا في العسيب بمسردِ

وإنما توصفُ النجائب بخفّة الذنب وجعله هذا كثيفاً طويلاً عريضاً

وقول امرئ القيس:

وأركبُ في الرَّوعِ خيفانةً كسا وجههَا سعفٌ منتشرْ

شبّه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها، وإذا غطى الشعرُ العين لم يكن الفرس كريماً.

وقول الحطيئة:

ومن يطلب مساعِي آل لأيٍ تصعّدُهُ الأمورُ إلى علاهَا

كان ينبغي أن يقول: من طلب مساعيها جز عنها وقصّر دونها، فأما إذا تناهى إلى علاها فأي فخر لهم، فإن قيل: إنه أراد به أنه يلقى صعوبة كما يلقى الصاعد من أسفل إلى علو، فالعيبُ أيضاً لازم له، لأنه لم يعبّر عنه تعبيراً مبيناً.

وقول النابغة:

ماضِي الجنان أني صبرٍ إذا نزلتْ حربٌ يوائلُ منها كل تنبالِ

التّنبال: القصير من الرجال، وليس القصير بأولى بطلب الموئل من الطوال، وإن جعل التّنبال الجبان فهو أبعد من الصواب، لأن الجبان خائف وجل اشتدت الحرب أم سكنت.

والجيد قول الهمداني:

يكرُّ عل المصافِّ إذا تعادَى من الأهوالِ شجعانُ الرّجالِ

وقول المسيب بن علس:

فتسلَّ حاجتَها إذا هي أعرضتْ بخميصةٍ سرح اليدين وساعِ

وكأنَّ قنطرةً بموضع كورِها وتمدّ ثنى جديلها بشراعِ

وإذا أطفتَ بها أطفتَ بكلكلٍ نبضِ الفرائص مجفَرِ الأضلاعِ

وهذا من المتناقض، لأنه قال خميصة، ثم قال: كأن موضع كورِها قنطرة، وهي مجفرة الأضلاع، فكيف تكون خميصة وهذه صفتها.

وقول الحطيئة:

حرج بلاوذُ بالكناس كأنّه متطوّف حتى الصباح يدورُ

حتى إذا ما الصبّح شقَّ عمودهُ وعلاه أسطعُ لا يردُّ منيرُ

وحصى الكثيب بصفحتيْه كأنه خبثُ الحديدِ أطارَهنّ الكيرُ

زعم أنه يطوفُ حتى الصباح، فمن أين صار الحصى بصفحتيه؟ وقول لبيد:

فلقد أعوصُ بالخصمِ وقدْ أملأُ الجفنةَ من شحمِ القللْ

أرد السنام، ولا يسمّى السنام شحما.

وقوله:

ولو يقوم الفيلُ أو فيّالهُ زلَّ عن مثل مقامي وزحلْ

ليس للفيّال من الشدّة والقوة ما يكون مثلا.

ومن الخطأ قول أبي ذؤيب في الدرة:

فجاء بها ما شئت من لطميّةٍ يدومُ الفراتُ فوقَها ويموجُ

والدّرّة إنما تكون في الماء الملح دون العذب. وقال من احتج له: إنما يريد بماء الدّرة صفاءه فشبّه بماء الفرات، لأنَّ الفرات لا يخطئه الصفاء والحسن.

وقوله أيضاً:

فما برحتْ في الناسِ حتى تبينّتْ ثقيفاً بزيزاءِ الأشاةِ قبابُها

يقول: مازالت هذه الخمرة في الناس يحفظونها حتى أتواها ثقيفا. قال الأصمعي: وكيف تحمل الخمرة إلى ثقيف وعندهم العنب.

وقول عدي بن الرقاع:

لهم رايةٌ تهدِي الجموعَ كأنها إذا خطرتْ في ثعلبِ الرُّمحِ طائرُ

والراية لا تخطر، وإنما الخطران للرمح.

ومما لم يسمع مثله قط قول عدي بن زيد في الخمرة ووصفه إياها بالخضرة حيث يقول:

والمشرفُ الهيدبُ يسعى بها   أخضرَ مطموثاً بماء الحريصِ

والحريص: السّحابة تحرص وجه الأرض، أي تقشرها بشدّة وقع مطرها.

ومن وضع الشيء في غير موضعه قول الشاعر:

يمشِي بها كل موشّى أكارِعهُ   مشى الهرابذِ حجّوا بيعة الّدونِ

فالغلط في هذا البيت في ثلاثة مواضع: أحدها أن الهرابذ المجوس لا النصارى. والثاني أن البيعة للنصارى لا للمجوس. والثالث أنّ النصارى لا يعبدون الأصنام ولا المجوس.

ومن المحال الذي لا وجه قول القس:

وإنّي إذا ما الموتُ حلَّ بنفسها   يزال بنفسِي قبلَ ذاكَ فأقبرُ

وهذا شبيه بقول قائل لو قال: إذا دخل زيد الدار دخل عمرو قبله. وهذا عين المحال الممتنع الذي لا يجوز كونه.

ومن عيوب المعنى مخالفة العرف وذكر ما ليس في العادة كقول المرار:

وخالٍ على خدّيكَ يبدو كأنَّه   سنا البدرِ في دعجاءَ بادٍ دجونُها

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر، والخدود الحسانُ إنما هي البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى.

وهكذا قول الآخر:

كأنَّما الخيلان في وجهه   كواكبُ أحدقنَ بالبدرِ

ويمكن أن يحتج لهذا الشاعر بأن يقال: شبّه الخيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللّون.

والجيد في صفة الخال قولُ مسلم:

وخالٍ كخالِ البدرِ في وجه مثله   لقينا المنَى فيه فحاجزَنا البذلُ

وقال العباس بن الأحنف:

لخال بذاتِ الخال أحسنُ عندنا   من النكتةِ السّوداء في وضحِ البدرِ

ومن المعاني ما يكون مقصراً غير بالغ مبلغ غيره في الإحسان، كقول كثير:

وما روضةٌ بالحزنِ طيبة الثّرَى   تمجُّ الندى حوذانُها وعرارُها

بأطيبَ من أردانِ عزَّةَ موهِنا   وقدْ أوقدتْ بالمندلِ الرَّطب نارُها

وقد صدق، ليس ريح الروض بأطيب من ريح العود، إلا أنه لم يأت بإحسان فيما وصف من طيب عرق المرأة، لأن كلّ من تجمّر بالعود طابت رائحته.

والجيد قول امرئ القيس:

ألم ترى أنِّي كلّما جئتُ طارقاً   وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ

والعود الرطب ليس بمختار للبخور، وإنما يصلح للمضع والسواك، والعود اليابس أبلغ في معناه.

وأنشد الكميت نصيباً:

كأنَّ الغطامط في غليهَا   أراجيزُ أسلمَ تهجُو غفارا

فقال نصيب: لم تهجُ أسلم غفاراً قط، فقال الكميت:

إذا ما الهجارِس غنَّينَها   تجاوبنَ بالفلواتِ الوبارَا

فقال نصيب: لا يكون بالفلوات وبار، فاستحى الكميت وسكت.

ومن عيوب المديح عدولُ المادح عن الفضائل التي تختصّ بالنفس: من العقل، والعفّة، والعدلِ، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم: من الحسن، والبهاء والزينة، كما قال ابن قيس الرقّيات في عبد الملك بن مروان:

يأتلقُ التّاجُ فوقَ مفرقهِ   على جبينٍ كأنَّهُ الذَّهبُ

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللَّـ   ـهِ تجلَّتْ عن وجههِ الظّلماءُ

فأعطيته المدح بكشفِ الغمم، وجلاء الظّلم، وأعطيتني من المدح مالاً فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذّهب في النضارة.

ومثل ذلك قول أيمن بن خزيم في بشر بن مروان:

يا بنَ الأكارِم من قريشٍ كلّها   وابن الخلائِفَ وابنَ كلِّ قلمّسِ
من فرع آدمَ كابراً عن كابرٍ   حتّى أتيتَ إلى أبيك العنبسِ
مروانَ، إنَّ قنانهُ خطّيّةٌ   غرست أرومتُها أعزَّ المغرسِ
وبنيتَ عند مقامِ ربك قبَّةً   خضراء كلّلَ تاجًها بالفسفسِ
فسماؤها ذهبٌ وأسفَلَ أرضِها   ورق تلألأ في صميم الحندسِ

فما في هذه الأبيات شيءٌ يتعلَّقُ بالمدح الذي يختصّ بالنفس، وإنما ذكر سؤدد الآباء، وفيه فخرٌ للأبناء، ولكن ليس العظامى كالعصاميّ، وربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصة للولد إذا تأخّر عن رتبة الوالد، ويكون ذكر الوالد الفاضل تقريعاً للولد الناقص.

وقيل لبعضهم: لم لا تكون كأبيك؟ فقال: ليت أبي لم يكن ذا فضل، فإنّ فضله صار نقصاً لي.

وقد قال الأوّل:

إنَّمَا المجدُ ما بنَى والدُ الصِّدْ ... قِ وأحيا فعالهُ المولُودُ

وقال غيره في خلافه:

لئنْ فخرتَ بآباء ذوِي شرفٍ ... لقدْ صدقتَ ولكنْ بئسَ ما ولدوا

وقال آخر:

عفَّتْ مقابحُ أخلاقٍ خصصتَ بها ... على محاسنَ أبقاهَا أبوكَ لكا

لئنْ تقدمتَ أبناء الكرامِ به ... لقد تأخَّر آباءُ اللِّئامِ بِكا

ثم ذكر أيمن بناء قبة حسنة، وليس بناء القباب مما يدل على جودٍ وكرم، بل يجوز أن يبنى اللئيم البخيل الأبنية النفيسة، ويتوسّع في النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق، وردّ السائل، وليس اليسار مما يمدح به مدحاً حقيقياً، ألا ترى كيف يقول أشجع السّلمى:

يريدُ الملوكُ مدىَ جعفرٍ ... ولا يصنعونَ كما يصنعُ

وليسَ بأوسعِهِمْ في الغنى ... ولكنَّ معروفَهُ أوسعُ

ومن عيوب المدح قول أيمن بن خريم أيضاً في بشر بن مروان:

فإنْ أعطاكَ بشرٌ ألفَ ألفٍ ... رأى حقّاً عليهِ أن يزيدا

وأعقبَ مدحتي سرجاً خلنجاً ... وأبيضَ جوزجانيّا عنودَا

وإنَّا قدْ رأينا أمَّ بشرٍ ... كأمّ الأسدِ مذكاراً ولودَا

جميع هذا الكلام جار على غير الصواب، إلاَّ في ابتداء وصفه في التناهي في الجود، ثم انحطّ إلى مالا يقع مع الأول موقعاً وهو السّرج وغيره. وأتى في البيت الثالث بما هو أقرب إلى الذّم منه إلى المدح، وهو قوله:

وإنا قد رأينَا أمَّ بشر ... كأمّ الأسدِ مذكاراً ولوداً

لأنّ الناس مجمعون على أنَّ نتاج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقلّ كما قال الأول:

بغاثُ الطّيرِ أكثرُها فراخاً وأمُّ الصقرِ مقلاتٌ نزورُ

ومن عيوب المدح قول بعضهم هو عبيد الله بن الحويرث لبشر بن مروان:

إنّي رحلتُ إلى عمروٍ لأعرفهُ إذْ قيلَ بشرٌ ولم أعدلْ به نشباً

فنكّرَ الممدوح وسلبه النباهة، وكان ينبغي أن يقول: ليعرفني.

والنادر العجب الذي لا شبه له قول عديّ بن الرّقاع، وذكر الله سبحانه، فقال:

وكفكَ سبطةٌ ونداكَ غمرٌ وأنتَ المرءُ تفعلُ ما تقولُ

فجعل إلهه امرءاً، تعالى الله عما يقول: وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، قال: أخبرنا أبو العيناء عن الأصمعي قال: اجتمع جرير والفرزدق عند الحجّاج. فقال: من مدحني منكما بشعرٍ يوجزُ فيه ويحسن صفتي فهذه الخلعة له، فقال الفرزدق:

فمن يأمنِ الحجاجَ والطيرُ تتَّقى عقوبتَهُ إلاَّ ضعيفُ العزائم

فقال جرير:

فمن يأمنِ الحجّاجَ أمَّا عقابُه فمرٌّ وأمَّا عقدُهُ فوثيق

يسرُّ لكَ البغضاءَ كلُّ منافقٍ كما كلُّ ذي دينٍ عليكَ شفيقُ

فقال الحجاجُ للفرزدق: ما عملت شيئاً، إنّ الطير تنفر من الصبيّ والخشبة، ودفع الخلعة إلى جرير.

والجيد في المديح قول زهير:

هنالك أنْ يستخولُوا المالَ يخولُوا وإن يسألوا يعطُوا وإن ييسرُوا يغلُوا

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُها وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

فلما استتم وصفهم بحسن المقال، وتصديق القول بالفعل، وصفهم بحسنِ الوجوه.

ثم قال:

على مكثريهم حقُّ من يعتريهُم وعندَ المقلّينَ السماحةُ والبذلُ

فلم يخل مكثراً ولا مقلاً منهم من برٍّ وفضل.

ثم قال:

فإن جئتهُمْ ألفيتَ حولَ بيوتِهم مجالسَ قد يشفَى بأحلامِهَا الجهْل

فوصفهم بالحلم.

ثم قال:

وإن قامَ منهمُ قائمٌ قال قاعدٌ ... رشدتَ فلا غرمٌ عليكَ ولا خذلُ

فوصفهم أيضاً بالتّضافرِ والتّعاون.

فلما آتاهم هذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال:

وما يكُ من خيرٍ أتوهُ فإنَّما ... توارثهُ آباءُ آبائِهم قبلُ

وهل ينبتُ الخطىَّ إلاَّ وشيجُهُ ... وتغرسُ إلاَّ في منابتها النَّخلُ

وكقول ذي الرمة:

إلى ملكٍ يعلو الرّجالَ بفضلِه ... كما بهرَ البدرُ النّجومَ السّواريا

فما مرتعُ الجيرانِ إلاَّ جفانكُم ... تبارونَ أنتم والرياحَ تباريا

أخذه بعضهم، فقال وأحسن:

رأيتكم بقيّةَ حيّ قيسٍ ... وهضبتُهُ التّي فوق الهضابِ

تبارونَ الرّياحَ إذا تبارت ... وتمتثلونَ أفعالَ السّحاب

يذكرني مقامي في ذراكم ... مقامي أمسِ في ظلِّ الشَّبابِ

وكقول الراعي:

إني وإياكَ والشكوى التي قصرتَ ... خطوى وبابكَ والوجدُ الذي أجدُ

كالماء والظالعُ الصَّديانُ يطلبُه ... وهو الشَّفاءُ له لوْ أنَّه يردُ

ضافى العطيّة، راجيه وسائلهُ ... سيّانِ، أفلحَ من يعطى ومن يعدُ

وقول مروان بن أبي حفصة:

بنو مطرٍ يومَ اللّقاءِ كأنَّهمْ ... أسودٌ لهم في غيلِ خفَّانَ أشبلُ

هم المانعون الجارَ حتّى كأنَّما ... لجارهمُ فوقَ السّما كينِ منزلُ

بها ليلُ في الإسلامِ سادُوا ولم يكنْ ... كأوَّلهمْ في الجاهليّة أوّلْ

هم القومُ إن قالوا أصابُوا وإن دُعُوا ... أجابُوا وإن أعطوْا أطابُوا وأجزلُوا

ولا يستطيعُ الفاعلونَ فعالَهُمْ ... وإن أحسنوا في النَّائبات وأجملُوا

ثلاثُ بأمثال الجبالِ حباهُم ... وأحلامُهم منها لدى الوزنِ أثقلُ

ويقول الآخر:

علم الغيثَ الندى حتى إذا   ما حكاهُ علَّمَ البأسَ الأسَدْ
فلَهُ الغيثُ مقرٌّ بالنَّدَى   ولهُ اللّيثُ مقرٌّ بالجلدْ

وكقول الآخر:

شبه الغيث فيه والليث وال   بدْر فسمحٌ ومحربٌ وجميلُ

ومع ما ذكرناه فإنه لا ينبغي أن يخلو المدح من مناقب لآباء الممدوح، وتقريظ من يعرف به وينسبُ إليه.

وأنشد أبو الخطاب الفضل بن يحيى:

وجدْ لهُ يا بنَ أبي عليٍّ   بنفحةٍ من ملكٍ سخيّ
فإنَّهُ عودٌ على بديّ   فإنَّما الوسميّ بالوليِّ

فقال الفضل: بنفحة من نفح برمكي، فجعله كذلك.

وأنشده مروان بن أبي حفصة:

نفرتَ فلا شلّتْ يدٌ خالديَّةٌ   رتقتَ بها الفتقَ الذي بينَ هاشِمِ

فقال له الفضل: قل برمكية، فقط يشركنا في خالد بشرٌ كثير، ولا يشركنا في برمك أحدٌ.

والهجاء أيضاً إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصّها النفس، ويثبتُ الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً.

والاختيارُ أن ينسبَ المهجوّ إلى اللؤم والبخل والشّره وما أشبه ذلك.

وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبحِ الوجه وصغر الحجم وضؤولة الجسم، يدلُّ على ذلك قول القائل:

فقلتُ لها: ليسَ الشّجوب على الفتَى   بعارٍ ولا خيرُ الرجالِ سمينُها

وقول الآخر:

تنالُ الخيرَ ممّنْ تزدريهِ   ويخلفُ ظنّكَ الرَّجلُ الطّريرُ

وقول الآخر:

رأوهُ فازدروه وهو خرقٌ   وينفعُ أهله الرجلُ القبيحُ

وذكر السموءل أنّ قلة العدد ليست بعيب، فقال:

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدُنا   فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ

ومن الهجاء الجيد قولُ بعضهم:

اللّؤمُ أكرمُ من وبرٍ ووالدهِ   واللّؤمُ أكرم من وبرٍ وما ولدَا

قومٌ إذا ما جنى جانيهُمُ أمنوا   من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قوَدَا

وقول أعشى باهلة:

بنو تيمٍ قرارةُ كلِّ لؤُمٍ   كذاك لكلِّ سائلة قرارُ

وتبعه أبو تمام، فقال:

ملقى الرجاء وملقى الرَّحلِ في نفرِ   الجودُ عندهمُ قولٌ بلا عملِ

أضحوا بمستنِّ سبل اللُّؤم وارتفعتْ   أموالهُم في هضابِ المطلِ والعلَلِ

ونقله إلى موضع آخر، فقال:

وكانتْ زفرةً ثمَّ اطمأنَّتْ   كذاكَ لكلِّ سائلةٍ قرارُ

وقول الآخر:

لو كان يخفى على الرّحمنِ خافيةٌ   من خلقِهِ خفيتْ عنه بنو أسدٍ

وقول الحكم الحضري:

ألم تر أنَّهم رقمُوا بلؤمٍ   كما رقمتْ بأذرُعها الحميرُ

ومن خبيث الهجاء قول الآخر:

إنْ يغدروا أو يجبنُوا   أو يبخلوا لا يجفلُوا

يغدوا عليك مرجِّلي   ن كأنَّهم لم يفعلُوا

وقول الآخر:

لو اطَّلع الغرابُ على تميمٍ   وما فيها من السّوءاتِ شابَا

وقول مرة بن عدي الفقعسي:

وإذا تسرُّك من تميمٍ خصلةٌ   فلما يسوءكَ من تميمٍ أكثرُ

ومن المبالغة في الهجاء فول ابن الرومي:

يقتِّرُ عيسَى على نفسِهِ   وليسَ بباقٍ ولا خالدِ

ولو يستطيعُ لتقتيره   تنفَّسَ من منخرٍ واحدِ

والناس يظنون أنَّ ابن الرومي ابتكر هذا المعنى، وإنما أخذه ممن حكاه أبو عثمان أنّ بعضهم قبر إحدى عينيه وقال: إنّ النظر بهما في زمان واحد من الإسراف.

وقول البحتري:

وردّدتُ العتابَ عليكَ حتَّى ... سئمتُ وآخرُ الودِّ العتابُ

وهان عليكَ سخطي حين تغدُو ... بعرضٍ ليسَ تأكلُه الكلابُ

ومن خطأ الوصف قولُ كعب بن زهير:

ضخمٌ مقلَّدها فعمٌ مقيَّدها

لأن النجائب توصف بدقّة المذبح.

ومن خطأ اللفظ قول ذي الرّمة:

حتَّى إذا الهيق أمسى شام أفرخَه ... وهنَّ لا مويسٌ نأياً ولاكثبُ

لأنَّه لا يقال شام إلاَّ في البرق.

ومن ردئ التشبيه قول لبيد:

فمتى ينقع صراخٌ صادقٌ ... يحلبوها ذات جرسٍ وزجلْ

فخمةٌ ذفراءُ ترتَى بالعرَا ... قردمانيّاً وتركا كالبصلْ

فشبَّه البيضة بالبصل، وهو بعيد، وإن كانا يتشابهان من جهة الاستدارة لبعد ما بينهما في الجنس.

وقول أبي العيال:

ذكرتُ أخي فعاودني ... صداعُ الرأسِ والوصبُ

فذكر الرأس من الصّداع لا يكون في الرّجل ولا في غيرها من الأعضاء. وفيه وجهٌ آخر من العيب، وهو أن الذّاكر لما قد فات من محبوب يوصفُ بألم القلب واحتراقه بالصّداع.

وقول أوس بن حجر:

وهم لمقلِّ المالِ أولادُ علّةً ... وإن كان محضاً في العمومةِ مخولا

فقوله: المال من المقلّ فضلٌ.

وقول عبد الرحمن بن عبد الله الخزرجي:

قيدتْ فقد لان حاذاها وحارِكُها ... والقلبُ منها مطار القلبِ مذعورُ

فما سمعنا بأعجب من قوله: فالقلبُ منها مطارُ القلب.

وقول الآخر:

ألا حبذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ وهندٌ أتى من دونِها النّأيُ والبعدُ

فقوله: النّأى مع البعد فضلٌ، وإن كان قد جاء من هذا الجنس في كلامهم كثير، والبيت في نفسه باردٌ.

ومن عيوب اللفظ ارتكابُ الضرورات فيه كما قال المتلمس:

إنْ تسلُكِي سبلَ الموماةِ منجدةً ما عاش عمرٌ وما عمرتَ قابوسُ

أراد ما عاش عمرو وما عمّر قابوس وقول الأعشى حكاه بعض الأدباء وعابه:

منَ القاصراتِ سجوفَ الحجَا ل لم تر شمسا ولا زمهريرا

قال: لا توضع الشمسُ مع الزمهرير. قال: وكان يجبُ أن يقول، لم تر شمساً ولا قمراً، ولم يصبها حرٌّ ولا قر، وقد أخطأ لأنَّ القرآن قد جاء فيه موضعُ هاتين اللفظتين معا.

ومن المطابقة أن يتقارب التضاد دون تصريحه، وهذا كثير في كلامهم. وقد أوردناه ي باب الطباق.

وكقول علقمة:

يحملنَ أترجةً نضخُ العبيرِ بها كأنَّ تطيابَهَا في الأنفِ مشمُومُ

والتطباب ها هنا على غاية السماجة. والطيب أيضاً مشموم لا محالة، فقوله: كأنه مشموم هجنة. وقوله: في الأنف أهجن، لأن الشمّ لا يكون بالعين.

وقول عامر بن الطفيل:

تناولتُهُ فاحتل سيفي ذبابُه شراشيفَه العليا وجذَّ المعاصما

وهذا البيت على غاية التكلف.

وقول خفاف بن ندبة:

إنْ تعرضِي وتضنِّى بالنَّوالِ لنا تواصلين إذا واصلتِ أمثالي

وكان ينبغي أن يقول: إن تضنّى بالنوال علينا، على أنّ البيت كله مضطرب النّسج.

وقول الخطيئة:

صفوف وماذيٌّ الحديدِ عليهم وبيض كأولادِ النّعام كثيف

جعل بيض النّعامِ أولادها.

ومن عيوب اللّفظ استعماله في غير موضعه المستعمل فيه، وحمله على غير وجهه المعروف به، كقول ذي الرمة:

نغارُ إذا ما الرّوعُ أبدى عن البرَى ونقرِى عبيطَ اللّحمِ والماءُ جامسُ

لا يقال: ماءٌ جامس، وإنما يقال: ودكٌ جامس.

وقول جرير:

لمَّا تذكَّرتُ بالدّيرينِ أرّقني صوتُ الدّجاجِ وقرعٌ بالنّواقيسِ

قالوا: لا يكونُ التّأريقُ إلاَّ أوّل الليل. والدجاج: الديكة ها هنا.

وقول عديّ بن زيد في الفرس: فارها متابعا. لا يقال: فرسٌ فاره، إنما يقال بغلٌ فاره.

وقول النابغة:

رقاق النّعال طيّبٌ حجزاتُهم يحيّون بالرّيحانَ يومَ السّباسبِ

يمدح بذلك ملوكا بأنهم يحيّون بالريحان يومَ السباسب، ويوم السباسب يومُ عيد لهم، ومثل هذا لا يمدح به السوقة فضلاً عن الملوك.

ومنه قوله فيهم:

وأكسيةٌ الإضريح فوق المشاجب

جعل لهم أكسية حمراً يضعونها على مشاجب. فترى لو كان لهم ديباج أين كانوا يضعونه، وليس هذا مما يمدح به الملوك.

ومن الردئ أيضاً قول امرئ القيس:

أرانا موضعين لأمرٍ غيبٍ ونسحر بالطعام والشراب

عصافيرٌ وذبَّانٌ ودودٌ وأجرٍ منْ مجلّحةِ الذّئابِ

هذا وإن لم يكنْ مستحيلاً، فهو على غاية القباحة في اللفظ وسوء التمثيل.

وقول بشر:

على كل ذي ميعة سابحٍ يقطع ذو أبهريه الحزاما

وإنّما له أبهر واحد.

ومن الأبيات العارية الخربة من المعاني قولُ جرير للأخطل:

قال الأخيطل إذ رأى راياتكم ... يا مار سرجسَ لا أريدُ قتالا

ومن المتناقض قولُ عروة بن أذينة:

نزلوا ثلاثَ منىً بمنزلِ غبطةٍ ... وهمُ على غرضٍ لعمركَ ما همُ

متجاورين بغير دارِ إقامةٍ ... لو قد أجدَّ رحيلُهم لم يندَموا

فقال: لبثوا في دار غبطة، ثم قال: لو رحلوا لم يندموا.

ومثله قول جرير:

فلم أر داراً مثلها دارَ غبطةٍ ... وملقىً إذا التفَّ الحجيجُ بمجمع

أقلَّ مقيما راضياً بمقامه ... وأكثرَ جاراً ظاعناً لم يودَّع

وهل يغتبطُ عاقلٌ بمكان من لا يرضى به.

وقول جميل:

خليليَّ فيما عشتما هل رأيتُما ... قتيلا بكى من حبِّ قاتِله مثلي

فلو تركتْ عقلى معي ما طلبتُها ... ولكنْ طلابيهَا لمَا فاتَ منْ عقلِي

زعم أنه يهواها لذهاب عقله، ولو كان عاقلاً ما هويها.

والجيّد قول الآخر:

وما سرني أنّي خليٌّ من الهوَى ... ولو أن لي من بين شرقٍ إلى غربِ

فإن كان هذا الحبّ ذنبي إليكم ... فلا غفر الرّحمنُ ذلكَ من ذنبِ

وقول الآخر:

أحببتُ قلبي لما أحبّكُم ... وصارَ رأيي لرأيه تبعا

وربَّ قلبٍ يقول صاحبُه ... تبّاً لقلبي فبئسَ ما صنعا

والجيد في هذا المعنى قول البحتري:

ويعجبني فقرى إليكَ ولم يكنْ ... ليعجبَني لولا محبَّتُك الفقرُ

وقول العرجى:

من ذكرِ ليلى وأيُّ الأرض ما سكنتْ ... ليلى فإني بتلك الأرض محتبسُ

ومنه:

مثل الضفادع نقّاقون وحدهمُ ... إذا خلوا وإذا لاقيتَهم خرسُ

وقال ابن داود: من التشبيه الذي لا يقع أبرد منه قول أبي الشيص:

وناعسٍ لو يذوق الحبَّ ما نعسا　　　بلى عسى أنْ يرى طيف الحبيبِ عسَى
وللهوى جرسٌ ينفي الرّقاد به　　　فكلما كدتُ أغفى حرّك الجرَسا

وقول الآخر:

إن قلبي سلَّ من غير مرضْ　　　وفؤادي من جوى الحبِّ غرضْ
كجرابٍ كان فيه جبن　　　دخل الفأرُ عليه فقرضْ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه: أعلمتم أنّ الأحوص أحمق لقوله:

فما بيضةٌ بات الظّليم يحفها　　　ويجعلها بين الجناح وحوصلهْ
بأحسن منها يوم قالت تدللا　　　تبدَّلْ خليلي إنني متبدّله

فما أعجبه وهي تقول هذه المقالة والجيد قول أبي تمام:

لا شيءَ أحسنُ منهُ ليلةَ وصلِهِ　　　وقدْ اتخذتُ مخدَّةً من خدِّه

وأنشد عبد الملك قول نصيب:

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمتْ　　　فواحزنا من ذا يهيمُ بها بعدِي

فقال بعض من حضر، أساءَ القول، أبحزنُ لمن يهيمُ بها بعده؟ فقال عبد الملك: فلو كنت قائلاً ما كنت تقول؟ فقال:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمتْ　　　أوكِّلْ بدعدٍ من يهيم بها بعدِي

فقال عبد الملك: أنتَ واللهِ أسوأ قولا، أتوكِّلُ من يهيم بها ثمَّ قال: الجيد:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمتْ　　　فلا صلحتْ دعدٌ لذي خلَّةٍ بعدِي

وأخذ الأصمعيّ على الشّماخ قوله:

رحى حيزومِها كرَحَى الطّحين

وقال: السعدانة توصف بالصّغر. فقال من احتجّ للشماخ: إنما شبهها بالرّحى لصلابتها، كما قال:

قلائص يطحنّ الحصى بالكراكرِ

ومن المعيب قول عمر بن أبي ربيعة هذا:

أومتْ بكفَّيهَا من الهودَجِ　　　لولاكَ في ذا العام لم أحجُجِ
أنتَ إلى مكةَ أخرجتنِي　　　حبّاً ولولا أنتَ لم أخرجِ

لا ينبئ الإيماء عن هذه المعاني كلها.

ونحوه قول المثقب العبدي:

تقول إذا درأتُ لها وضيني أهذا دينُه أبداً وديني

أكلّ الدهر حلٌّ وارتحالٌ أما يبقى عليَّ ولا يقيني

والذي يقارب الصواب قول عنترة:

فأزورّ من وقع القنا بلبانِه وشكَا إليّ بعبرةٍ وتحمحُمِ

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكَى ولكان لو علمَ الكلامَ مكلِّمِي

ومن النسيب الردئ قولُ نصيب:

فإن تصلى أصلك وإن تعودى لهجرٍ بعدَ وصلك لا أبَالي

وذلك أنّ التجلّد من العاشق مذموم. وفي خلاف ذلك قولُ زهير:

لقد باليتُ مطعن أمِّ أوفى ولكنْ أمّ أوفى لا تبَالِي

وقول عمر بن أبي ربيعة:

قالت لها أختها تُعاتبُها لا تفسدنّ الطّواف في عمرِ

قومي تصدَّى له ليبصرنَا ثم اغمزيهِ يا أختِ في خفرِ

قالت لها قد غمزتُه فأبَى ثم اسبكرّت تشتدّ في أثرى

فشبَّبَ بنفسه ووصفها بالقحة، وناقض في حكايته عن صاحبتها، فذكر نهيها إياها عن إفساد الطّواف فيه، ثم إنها قالت لها: "قومي انظري".

ومما جاء في ذلك من أشعار المحدثين قول بشّار:

إنّما عظمُ سليمَى حبَّتي قصبُ السّكر لا عظم الجملْ

وإذا أدنيت منها بصلاً غلبَ المسكُ على ريح البصلْ

وقوله:

وبعض الجود خنزير

ومن المعاني البشعة قول أبي نواس:

يا أحمد المرْتجى في كلِّ نائبةٍ قم سيِّدي نعص جبَّارَ السَّمواتِ

فهذا مع كفرِه ممقوتٌ وكذا قوله:

لو أكثر التسبيح ما نجّاه

وقوله:

من رسول الله من نفرَه

وقد تبع في هذا القول حسان بن ثابت في قوله:

أكرِم بقومٍ رسولُ الله شيعتُهم إذا تفرَّقَتِ الأهواءُ والشِّيَع

والخطأ من كل واحد خطأ.

وقول أبي نواس أيضاً:

أحبب قريشاً لحبّ أحمدها

وقوله:

تنازعَ الأحمدان الشبهَ فاشتبَها خلقاً وخُلقاً كما قدَّ الشَّرَا كانِ

فزعم أنَّ ابن زبيدة مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلقه وخلقه.

ومثل ذلك قول أبي الخلال في يزيد بن معاوية:

بأيها الميتُ بحوّارينا إنّك خيرُ النَّاس أجمَعينا

وقول أبي العتاهية:

غنيتَ عن الوصلِ القديم غنيتَا وضيّعتَ ودّاً كان لِي ونسيتَا

ومن أعجبِ الأشياءِ أن ماتَ مألَفي ومن كنتَ ترعانِي له وبَقِيتَا

تجاهلتَ عمَّا كنتَ تحسنُ وصفَه ومتَّ عن الإحسانِ حينَ حييتَا

وليس من العجب أن يموت إنسانٌ ويبقى بعده إنسان آخر، بل هذه عادةُ الدنيا والمعهود من أمرها، ولو قال: من ظلم الأيام كان المعنى مستوياً.

وسمعت بعض العلماء يقول: ومن المعاني الباردة قول أبي نواس في صفة البازي:

في هامةٍ علياءَ تهدى منسرَا كعطفة الجيم بكفٍّ أعسَرا

فهذا جيد مليح مستوفى ثم قال:

يقول من فيها بعقلِ فكَّرا لو زادَها عيناً إلى فاء ورا

فاتَّصلت بالجيم صار جعفرا

فمن يجهل أن الجيم إذا أضيف إليها العين والفاء والراء تصير جعفرا وسواء قال هذا، أو قال:

لو زادَها جاء إلى دال ورَا فاتصلت بالجيم صارَ جحدَرا

وما يدخل في صفة البازي من هذا القول.

وتبعه أبو تمام فقال:

هنّ الحمام فإنْ كسرتَ عيافةً من حائهنَّ فإنَّهنَّ حمامُ

فمن ذا الذي جهل أنَّ الحمام إذا كسرت حاؤُها صارت حماماً.

وإنما أراد أبو نواس أنه يشبه الجيم لا يغادرُ من شبهها شيئاً، حتى لو زدت عليها هذه الأحرف صارت جعفرا لشدّة شبهها به، وهو عندي صوابٌ، إلا أنه لو اكتفى بقول "كعطفة الجيم بكف أعسرا" و لم يزد الزيادة التي بعدها كان أجود وأرشق وأدخل في مذاهب الفصحاء، وأشبه بالشعر القديم.

وأما قول أبي تمام فله معنى خلافُ ما ذكره، وذلك أنه أراد أنك إذا أردتَ الزّجرَ والعيافة أدّاك الحمام إلى الحمام، كما أنّ صوتها الذي يظنّ أنه بكاء إنما هو طرب، ويؤدّيك إلى البكاء الحقيقي، وهذا المعنى صحيح، إلا أن المعنى إذا صار بهذه المترلة من الدّقة كان كالمعمّى والتعمية حيث يراد البيانُ عيٌّ.

ومن عيوب المعنى قول أبي نواس في صفة الأسد:

كأنما عينُه إذا نظرت بارزة الجفن عينُ مخنوق

فوصف عين الأسد بالجحوظ، وهي توصف بالغؤور، كما قال الرّاجز:

كأنّما ينظر من خرق حجرْ

وكقول أبي زبيد:

كأن عينيه في وقبين من حجرٍ قيضا اقتياضاً بأطرافِ المناقِيرِ

وقوله أيضاً:

وعينان كالوقبين في قلب صخرة يرى فيها كالجمرتين تسعر

وأنشد مروان بن أبي حفصة عمارة بن عقيل بيته في المأمون:

أضحى إمام الهدَى المأمونُ مشتغلاً بالدّين، والناسُ بالدنيا مشاغيلُ

فقال له: ما زدتَه على أن وصفتَه بصفةِ عجوزٍ في يدها مسباحُها، فهلا قلتَ: كما قال جدّي في عمر بن عبد العزيز:

فلا هوَ في الدنيا مضيعٌ نصيبَه ولا عرض الدّنيَا عن الدين شاغِلُه

ومن الغلط قول أبي تمام:

رقيقُ حواشِي الحلم لو أنَّ حلمَهُ بكفّيك ما ماريتَ في أنه بردُ

وما وصف أحدٌ من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرّقة، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة، كما قال النابغة:

وأعظمُ أحلاماً وأكبر سيداً وأفضلُ مشفوعاً إليه وشافعا

وقال الأخطل:

صمٌّ عن الجهل عن قيل الخناخرُس وإن ألمَّت بهم مكروهةٌ صبرُوا

شمسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهمْ وأعظمُ النّاسِ أحلاماً إذا قدرُوا

وقال أبو ذؤيب:

وصبرٌ على حدثِ النّائبات وحلمٌ رزينٌ وعقلٌ ذكيّ

وقال عديّ بن الرّقاع:

أبتْ لكم مواطِن طيّبات وأحلام لكم تزنُ الجبالا

وقال الفرزدق:

إنّا لتوزنُ بالجبال حُلومنا ويزيد جاهلُنا على الجهّالِ

ومثل هذا كثير.

وإذا ذمّوا الرجل قالوا: خفّ حلمه وطاش، كما قال عياض بن كثير الضبي:

تنائلةٌ سودٌ خفافٌ حلُومُهُم ذوو نيربٍ في الحيِّ يغدو ويطرقُ

وقال عقبة بن هبيرة الأسدي:

أبنُوا المغيرةِ مثلُ آل خويلدٍ يا للرِّجال لخفَّةِ الأحلامِ

لا، بل أحسبني سمعت بيتاً لبعض المحدثين يصف فيه الحلمَ بالرّقةِ وليس بالمختار.

ومن خطئه أيضاً قوله:

من الهيف لو أنّ الخلاخل صيّرت لها وشحاً جالتْ عليها الخلاخلُ

ولو قال: نطقا لكان حسناً، وهذا خطأٌ كبير، وذلك أن الخلخال قدرُه في السعة معروف، ولو صار وشاحاً للمرأة لكانت المرأة في غاية الدّمامة والقصر، حتى لو كانت هي في خلقة الجرذ والهرة، ولو قال: حقبا لكان جيّداً، كما قال النمري:

ولوْ قستَ يوماً حجلَها بحقَابِها لكان سواء، لا، بل الحجلُ أوسَعُ

فجعل الحجلَ أوسع من الحقاب، لأنّ امتلاء الأسوق محمود ودقّة الخصور ممدوح.

والجيد في ذكر الوشاح قول ذي الرمة:

عجزاء ممكورَة خمصانة قلقٌ عنها الوشاحُ وتم الجسمُ والقصبُ

وقال ابن مقبل:

وقد دقّ منها الخصر حتَّى وشاحُها يجول، وقد عمّ الخلاخيلَ والقلبَا

وقال طرفة:

وملء السوار من الدُملجين وأما الوشاحُ عليها فجالا

وقال كثير:

يجولُ الوشاحُ بأقرَابِها وتأبَى خلاخِلُها أن تجُولا

ومن الخطأ قوله أي أبو تمام:

قسم الزّمانُ ربوعها بينَ الصّبا وقبولَها ودبورَها أثلاثا

والصّبا: هي القبول.

أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: مهب الجنوب من مطلع سهيل إلى طرف جناح الفجر، وما يقابل ذلك من ناحية المغرب، فهي الشمال، وما يجئ من وراء البيت الحرام فهي دبور، وما يقابل ذلك فهي القبول، والقبول والصّبا واحدة.

والجيد ما قال البحتري:

متروكةٌ للريح بين شمالها وجنوبها ودبورها وقبولها

وأما قوله:

شنئت الصّبا إذْ قيلَ وجّهنَ قصدَها وعاديتُ من بين الرياح قبُولها

فإنما يعنى شنئت هذين الأسمين، لأنَّ حمول الظاعنينَ توجّهت نحوها.

ومن الخطأ قول أبي المعتصم:

كأنما أربعُه إذا تناهبنَ الثّرَى ريح القبول والدّبُور والشّمال والصبّا

ومن الخطأ قوله أي أبو تمام:

الودُّ للقربَى ولكنْ عرفُه		للأبعدِ والأوطانِ دونَ الأقربِ

ولا أعرف لم حرم أقارب هذا الممدوح عرفه وصيره للأبعدين؟ فنقصه الفضل في صلةِ الرحم، وإذا لم يكن مع الود نفعٌ لم يعتدّ به. قال الأعشى:

بانتْ وقد أسأرتْ في النفسِ حاجتَها		بعد ائتلافٍ وخيرُ الودّ ما نفعَا

وقال المقنع:

جعلتُ لهم منّى معَ الصّلةِ الودَّا

وقد أغرى أبو تمام بهذا القول أقرباء الممدوح، لأنّهم إذا رأوا عرفة يفيض في الأبعدين ويقصر عنهم أبغضوه وذمّوه.

وقد ذمّ الشاعر الطريقة التي يمدح بها أبو تمام، فقال:

كمرضعةٍ أولادَ أخرى وضيّعتْ		بنيها فلم ترقعْ بذلكَ مرقَعا

وقال آخر وهو ابنُ هرمة:

كتاركةٍ بيضها بالعراءِ		وملبسةٍ بيضَ أخرَى جناحَا

وقال أبو دواد الإيادي:

إذا كنتَ مرتاد الرِّجالِ لنفعهِم		فرشْ واصطنعْ عندَ الذينَ بهم ترمِي

وقال آخر:

وإذا أصبت من النّوافلِ رغبةً		فامنحْ عشيرتَك الأدَاني فضلها

وذمّ قديماً المذهب الذي ذهب إليه أبو تمام مسافر العبشمي، فقال:

تمدّ إلى الأقصى بثديك كلِّه		وأنت على الأدنى صرور مجدّدُ

فإنَّكَ لو أصلحتَ من أنتَ مفسدٌ		تودَّدكَ الأفصَى الذي تتودّدُ

وقال المسيب بن علس:

من الناس من يصلُ الأبعدينَ		ويشقى به الأقربُ الأقربُ

وقال الحارث بن كلدة:

ومن الناس من يغشَى الأباعدَ نفعُه		ويشقى به حتّى الممات أقاربِه

وقد ذهب البحتري مذهب أبي تمام، فقال:

بل كان أقربُهم من سيبِه سبباً		من كان أبعدَهم من جذمه رحِما

إلا أنه لم يخرجهُمْ من معروفه، وإن كان قد دخل تحت الإساءة.
والجيّد قوله:

ظل فيه البعيد مثل القري ب المجتَبَى والعدوُّ مثلُ الصديقِ

وقوله أيضاً:

ما إن يزالُ النَّدَى يدنى إليه يداً ممتاحةً من بعيد الدّارِ والرَّحمِ

ومن الخطأ قوله:

ورحبَ صدرٍ لو أنَّ الأرضَ واسعةٌ كوسعِهِ لم يضقْ عن أهلهِ بلدُ

وذلك أنّ البلدان التي تضيق بأهلها لم تضق بأهلها لضيق الأرض، ومن اختطّ البلدان لم يختطّها على قدر ضيق الأرض وسعتها، وإنما اختطّت على حسب الأتّفاق، ولعل المسكون منها لا يكون جزءاً من ألف جزء، فلأي معنى تصييره ضيق البلدان الضيقة من أجل ضيق الأرض. والصواب أن يقول: ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يسعها الفلك، أو لضاقت عنها السماء، أو يقول: لو أن سعة كلّ بلد كسعة صدره لم يضق عن أهله بلد.
والجيّد في هذا المعنى قول البحتري:

مفازة صدر لو تطرقُ لم يكنْ ليسلُكَها فرداً سليكُ المقانبِ

أي لم يكن ليسلكَها إلاّ بدليل لسعتها، على أن قول مفازة صدر استعارة بعيدة.
ومن الخطأ قول أبي تمام:

سأحمدُ نصراً ما حييتُ وإنّني لأعلمُ أن قد جلَّ نصرٌ عن الحمدِ

وقد رفع الممدوحَ عن الحمد الذي رضيه اللهُ جل وعزّ لنفسه، وندب عبادَه لذكره ونسبه إليه، وافتتح به كتابه. وقد قال الأول: الزيادة في الحدّ نقصان، و لم نعرف أحداً رفع أحداً عن الحمد، ولا من استقلّ الحمد للمدوح.
قال زهير بن أبي سلمى:

متصرّف للحمدِ معترف للرزءِ نهّاض إلى الذكرِ

وقال الأعشى:

ولكنْ على الحمد إنفاقُه وقد يشتريه بأغلى ثمنْ

وقال الحطيئة:

ومن يعطَ اثمانَ المحامدِ يحمدِ

وقالت الخنساء:

ترى الحمدَ يهوى إلى بيتِه يرى أفضلَ المجدِ أن يحمَدا

والجيّد قولُ البحتري:

لو جلّ خلقٌ قطّ عن أكرومةٍ تنثى جللتَ عن النّدَى والباسِ

ومن الخطأ قوله:

ظعنوا فكان بكاى حولاً بعدهُم ثم ارعويتُ وذاكَ حكمُ لبيدِ

أجدرْ بجمرةِ لوعةٍ إطفاؤها بالدّمع أن تزدادَ طولَ وقودِ

هذا خلافُ ما يعرفه الناس، لأنهم قد أجمعوا أنّ البكاء يطفئ الغليل، ويبرد حرارة المحزون، ويزيل شدّة الوجد.

وذكروا أن امرأةً مات ولدُها فأمسكتْ نفسها عن البكاء صبراً واحتساباً، فخرج الدم من ثدييها، وذلك لما ورد عليها من شدّة الحزن مع الامتناع من البكاء.

وقد شهد أبو تمام بصحّة ما ذكرناه، وخالف قوله الأوّل، فقال:

نثرت فريدَ مدامعٍ لم تنظمِ والدمعُ يحملُ بعضَ ثقل المغرَمِ

وقال:

واقع بالخدود والبردُ منه واقعٌ بالقلوبِ والأكبادِ

وقال امرؤ القيس:

وإنّ شفائي عبرة مهراقة فهل عندَ رسمٍ دارسٍ من معوَّل

وأخبرنا أبو أحمد قال أخبرنا الأنباري، قال: حدثنا محمد بن المرزبان، قال حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثنا محمد بن كناسة، قال، قال أبو بكر بن عياش: كنتُ وأنا شابّ إذا أصابتني مصيبة لا أبكي فيحترق جوفى، فرأيت أعرابياً بالكناس على ناقة له والناس حوله وهو ينشد:

خليليَّ عوجَا من صدورِ الرّواحلِ ببرقة حزوَى فابكيَا في المنازلِ

لعلَّ انحدارَ الدّمعِ يعقبْ راحةً من الوجد أو يشفى نجيَّ البلابلِ

فسألت عن الأعرابي، فقيل: هو ذو الرّمة، فكنت بعد ذلك إذا أصابتني مصيبةٌ بكيت فاشتفيت. فقلت: قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره وقال الفرزدق:

فقلت لها إنّ البكاءَ لراحةٌ   به يشتفى من ظنَّ أن لا تلاقيَا

وقد تبعه البحتري على إساءته، فقال:

فعلام فيض مدامعٍ تدقُ الجوَى   وعذابَ قلبٍ في الحسان معذّبِ

تدق: من الوديقة، وهي الهاجرة لدنوِّ الحرِّ فيها. والودق: أصلُه الدنو، يقال: أتان وديق، إذا دنت من الفحل. والودق: القطر، لدنوِّه من الأرض بعد انحلاله من السحاب.

والخطأ الفاحش له قوله، أي أبو تمام:

رضيتُ وهل أرضى إذا كان مسخطى   من الأمر ما فيه رضَا منْ لهُ الأمر

والمعنى: لستُ أرضى إذا كان الذي يسخطني هو الذي برضاه الله عزّ وجل، لأنّ هل تقريرٌ لفعل ينفيه عن نفسه، كما تقول: هل يمكنني المقام؟ وهل آتى بما تكره؟ معناه لا يمكنني المقام. ومعنى قوله: هل أرضى إذا كان مسخطى؟ أي لا أرضى.

ومن الخطأ قوله:

ويومٍ كطولِ الدَّهرِ في عرضِ مثلِهِ   ووجدىَ من هذا وهذاكَ أطولَ

قد استعمل الناسُ الطولَ والعرض فيما ليس له، استعمالا مخصوصاً، كقول كثير:

أنت ابنُ فرعي قريشٍ لو تقايسها   في المجد صار إليك العرضُ والطولُ

أي صار إليك المجدُ بتمامه.

وقول كثير أيضاً:

بطاحيٌّ له نسبٌ مصفَّى   وأخلاقٌ لها عرضٌ وطولُ

فعلى هذا استعمل هذان اللفظان.

وقالوا: هذا الشيء في طول ذلك وعرضه، إذا كان مما يرى طوله وعرضه، ولا يستعمل فيما ليس له طولٌ وعرض على الحقيقة، ولا يجوز مخالفة الاستعمال البتة.

وكان أبو تمام قد استوفى المعنى في قوله: "كطول الدهر" ولم يكن به حاجةٌ إلى ذكر العرض.

ومن الخطأ قول البحتريّ ورواه لنا أبو أحمد عن ابن عامر لأبي تمام، والصحيح أنه للبحتري:

بدتْ صفرةٌ في لونه إنَّ حمدهم   من الدرِّ ما اصفرَّتْ حواشيه في العقدِ

وإنما يوصف الدرّ بشدّة البياض، وإذا أريد المبالغة في وصفه وصفَ بالنصوع، ومن أعيب عيوبه الصفرة. وقالوا: كوكب درِّى، لبياضه، وإذا اصفرّ احتيل في إزالة صفرته. ليتضوّأ. واستعمال الحواشيّ في الدر أيضاً خطأ، ولو قال نواحيه، لكان أجود، والحاشية للبرد والثوب، فأما حاشية الدرّ فغير معروف، وفيها:

وجرَّتْ على الأيدي مجسة جسمه كذلك موج البحر ملتهبُ الوقدِ

وهذا غلطٌ، لأنَّ البحر غير ملتهب الموج ولا متقّد الماء، ولو كان متقّداً أو ملتهباً لما أمكن ركوبه، وإنما أراد أن يعظّم أمر الممدوح فجاء بما لا يعرف. وفيها:

ولست ترى شوك القتادةِ خائفاً سمومَ رياحِ القادحات من الزَّندِ

وهذا خطأ، لأنه شبّه العليل بشوك القتاد على صلابته على شدّة العلّة، وزعم أنّ شوك القتاد لا يخاف النّارَ التي تقدح بالزّناد. وقد علمنا أن النار تفلق الصّخر وتلين الحديد، فكيف يسلم منها القتاد؟ وليس لذكر السّموم والرياح أيضاً في هذا البيت فائدة ولا موقع.

ولما مات المتوكل أنشد رجل جماعة:

ماتَ الخليفةُ أيُّها الثّقلانِ

قالوا: جيد نعى الخليفة إلى الجنّ والإنس في نصف بيت، فقال:

فكأنني أفطرتُ في رمضانِ

فضحكوا منه.

ونورد هاهنا جملة نتمّم بها معاني هذا البيت: ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينك، وذلك مثل قول الشماخ في نبالة:

خلتْ غير آثار الأراجيلِ ترتمي تقعقعُ في الآباطِ منهَا وفاَضُها

فهذا البيت يصوّر لك هرولة الرجالة، ووفاضُها في آباطها تقعقع.

وإفاض جمع وفضة وهي الجعبة. وقول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رأى قومي كأنَّ رجالهم نخيلٌ أتاها عاضد فأمالَهَا

فهذا التشبيه كأنه يصوّر لك القتلى مصروعين.

وقال العتابي في السحاب:

والغيمُ كالثوب في الآفاق منتشرٌ من فوقه طبقٌ من تحته طبقُ

تظنه مصمتاً لا فتقَ فيه فإن سالتْ عزاليهِ قلت الثوب منفتقُ

إن معمعَ الرّعدُ فيه قلت منخرق   أو لألأ البرقُ فيه قلتَ محترقُ

وينبغي أن يكون التشبيبُ دالاّ على شدة الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، ويكون برياً من دلائل الخشونة والجلادة، وأمارات الإباء والعزّة. ومن أمثلة ذلك قول أبي الشيص:

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليسَ لي   متأخّرٌ عنهُ ولا متقدّمُ

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً   حبّاً لذكرك فليلمني اللُّوَّمُ

أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحبُّهم   إذْ كانَ حظّي منك حظٌّ منهمُ

وأهنتني فأهنتُ نفسيَ صاغراً   ما منْ يهونُ عليكِ ممَّنْ أكرمُ

فهذا غايةُ التهالك في الحب، ونهايةُ الطاعة للمحبوب.

ويستجاد التشبيب أيضاً إذ تضمّن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة، بهبوب الرياح، ولمع البروق، وما يجرى مجراهما من ذكر الدّيار والآثار.

فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدى:

فلم تدع الأرياح والقطرُ والبلى   من الدارِ إلاَّ ما بشفّ ويشغف

وفي ذكر البروق قولُ الأول:

سرى البرقُ من نحوِ الحجازِ فشاقنِي   وكلُّ حجازي له البرقُ شائقُ

وفي ذكر البروق قول الأول:

سرى البرقُ من نحوِ الحجازِ فشاقنِي   وكلُّ حجازيٍّ له البرقُ شائقُ

بدا مثل نبض العرق والبعدُ دونه   وأكنافُ لبنَ دوننا والأسالقُ

نهاري بأشرافِ التّلاعِ موكّل   وليلى إذا ما جنّنى اللّيل آرقُ

فوا كبدي ممّا ألاقي منَ الهوَى   إذا حنَّ إلفٌ أو تألَّقَ بارقُ

وكذا ينبغي أن يكونَ التشبيبُ دالاًّ على الحنين، والتحسّر، وشدة الأسف، كقوله:

وليستْ عشيّاتُ الحمَى برواجعٍ   إليكَ ولكنْ خلِّ عينيك تدمعَا

وأذكُر أيامَ الحمَى ثم أنثنِى   على كبدِي من خشيّةٍ أن تصدَّعا

وقال ابن مطير:

وكنت أذودُ العينَ أنْ ترد البُكا   فقد وردت ما كنتُ عنه أذودُهَا

خليليَّ ما في العيشِ عيبٌ لو أنَّنا   وجدنا لأيّامِ الحمَى منْ يعيدُهَا

فهذا يدلّ على تحسّرٍ شديد، وحنين مفرط.

وقول الآخر:

وددتُ بأبرق العيشُومِ أنّي ... ومنْ أهوَى جميعاً في رداءِ

أباشره وقد نديت عليه ... وألصقُ صحَّةً منهُ بدائِي

فحنَّ إليه حنينَ السقيم إلى الشفاء ومن الشعر الدالّ على شدَّةِ الحسرةِ والشوق قول الآخر:

يقر بعينِي أنْ أرَى رملةَ الغضَا ... إذا ما بدتْ يوماً لعيني قلالُها

ولستُ وإن أحببتُ من يسكُن الغضَا ... بأوّلِ راجٍ حاجةً لا ينالُها

وينبغي أن يظهرَ الناسبُ الرغبة في الحبّ، وألاّ يظهرَ التبرّمَ به، كأبي صخر حين يقول:

فيا حبَّها زدنِي جوىً كلَّ ليلةٍ ... ويا سلوةَ الأيَّامِ موعدُكِ الحشرُ

وقول الآخر:

تشكَّى المحبُّونَ الصَّبابَةَ ليتني ... تحمّلتُ ما يلقون من بينِهم وحدِي

فكانت لنفسِي لذةُ الحبِّ كلُّها ... ولم يلقَهَا قبلى محبٌّ ولا بعدِي

وينبغي أن يكون في النسيب دليلُ التدلّه والتحيّر، كقول الحكم الحضري:

تساهمَ ثوباها ففي الدرعِ رأدةٌ ... وفي المرط لّفاوان ردفُهما عبلُ

فوالله ما أدري أزيدتْ ملاحةً ... وحسناً على النسوان أم ليس لي عقلُ

وقيل لبعضهم: ما بلغ من حبّك لفلانة؟ فقال: إني أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها.

ولما كانت أغراض الشعراء كثيرة، ومعانيهم متشعبة جمّة، لا يبلغها الإحصاء كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالا، وأطول مدارسة له، وهو المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والمزائي، والفخر، وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما، ثم ذكرت الآن الوصف والنسيب، وتركت المرائي والفخر، لأنهما داخلان في المديح. وذلك أنّ الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحسب، وما يجرى مجرى ذلك. والمرثيّة مديح الميّت، والفرق بينهما وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وأنت كذا. فينبغي أن تتوخّى في المرثية ما تتوخّى في المديح، إلا أنك إذا أردتَ أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول: مات الجود، وهلكت

الشجاعة، ولا تقول: كان فلاناً جوادا وشجاعا، فإنّ ذلك باردٌ غير مستحسن، وما كان الميت يكده في حياته فينبغي ألا يذكر أنه يبكي عليه مثل الخيل والإبل وما يجري مجراهما، وإنما يذكر اغتباطهم بموته. وقد أحسنت الخنساءُ حيث تقول:

فقدْ فقدَتكَ طلقةُ واستراحتْ   فليتَ الخيلَ فارسُها يراهَا

بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسنُ في حياته إليه كما قال الغنويّ:

ليبككَ شيخٌ لم يجد من يعينه   وطاوى الحشَا نائي المزارِ غريب

فهذه جملة إذا تدبّرها صانع الكلام استغنى بها عن غيرها، وبالله التوفيق.

الباب الثالث

معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ

فصلان

الفصل الأول

في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه

إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولُها، ولا يتعبك تطلّبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، وتخوّنك الملال فأمسك، فإنَّ الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضّجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الرّى، وتنال أربك من المنفعة. فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك غناؤُها.

وينبغي أن تجرى مع الكلام معارضة، فإذا مررتُ بلفظ حسن أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلّقت بذيله، وتحذّر أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت في تتبّعه، ونصبت في تطلّبه، ولعلك لا تلحقه على طول الطلب، ومواصلة الدأب، وقد قال الشاعر:

إذا ضيَّعتَ أولَ كل أمرٍ أبتْ أعجازهُ إلاّ التواءَ

وقالواك ينبغي لصانع الكلام ألاَّ يتقدَّم الكلام تقدما، ولا يتبع ذناباه تتبّعا، ولا يحمله على لسانه حملا، فإنه إن تقدّم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه والشارد منه. وإن تتبعه فاتته سوابقه ولواحقه، وتباعدت عنه جياده وغرره، وإن حمله على لسانه ثقلتْ عليه أو ساقه وأعباؤه، ودخلت مساويه في محاسنه. ولكنه يجرى معه فلا تندّ عنه نادّة معجبة سمناً إلاّ كبحها، ولا تتخلّف عنه مثقلة هزيلة إلاّ أرهقها. فطوراً يفرّقه ليختار أحسنه، وطوراً يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر، ويتناول اللفظ من تحت لسانه، ولا يسلّط الملل على قلبه ولا الإكثار على فكره. فيأخذ عفوه، ويستغزر درّه، ولا يكره أبيّاً، ولا يدفع أتياً.

وقال بشر بن المعتمر: خذ من نفسك ساعة لنشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها لك، فإنّ قلبك في تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرق حسناً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ،

وأجلب لكل غرّة من لفظ كريم، ومعنى بديع.

واعلم أنّ ذلك أجدى عليك ممّا يعطيك يومك الأطول بالكدّ والمطالبة والمجاهدة والتكلّف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلا، وكما خرج عن ينبوعه، ونجم من معدنه.

وإياك والتوعّر، فإن التوعّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإنَّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصونهما عما يدنّسهما ويفسدهما ويهجنهما، فتصير بهما إلى حدّ تكون فيه أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس منازل البلاغة، وترهن نفسك في ملابستهما، فكن في ثلاث منازل: فأول الثلاث أن يكون لفظك شريفاً عذباً، وفخماً سهلا، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً. فإن كانت هذه لأتواتيك، ولا تسنح لك عند أوّل خاطر، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، و لم تصل إلى مركزها، و لم تتصل بسلكها، وكانت قلقة في موضعها، نافرة عن مكانها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم، و لم تتكلّف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بذلك أحد، وإن تكلّفته و لم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لشأنك بصيراً عابك من أنت أقلّ عيباً منه، وزرى عليك من هو دونك.

فإن ابتليت بتكلّف القول، وتعاطى الصناعة، و لم تسمح لك الطبيعة في أوّل وهلة، وتعصّى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل، ودعه سحابة يومك ولا تضجر، وأمهلة سواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة وجربت من الصناعة على عرق، هي المترلة الثانية.

فإن تمنّع عليك بعد ذلك مع ترويح الخاطر، وطول الإمهال، فالمترلة الثالثة أن تتحوّل عن هذه الصناعة إلى اشهى الصناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنك لم تشتهها إلاّ وبينكما نسب، والشيء لا يحنّ إلا إلى ما شاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، فإنّ النفوس لا تجود بمكنونها، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع الرّغبة والمحبّة.

وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكلّ طبقة كلاما، ولكلّ حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات.

وأعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال، فإنْ كنت متكلما، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخط ألفاظ المتكلمين، مثل

الجسم والعرضِ والكون والتأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجنةٌ.

وخطب بعضهم فقال: إن الله أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّنهم ثم لا شاهم، فضحكوا منه، وقال بعض المتأخرين:

نورٌ تبين فيه لاهوتيه فيكاد يعلم علم ما لنْ يعلما

فأتى من الهجنة بما لا كفاء له، وكذلك كن أيضاً إذا كنت كاتبا.

واعلم أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلاّ أنّ الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة، في أيسر كلفة، ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلاّ بكلفة، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلا بمشقّة.

ومما يعرف أيضاً من الخطابة والكتابة أنّهما مختصّتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدارُ الدّار، وليس للشّعر بهما اختصاص.

أمّا الكتابة فعليها مدار السلطان.

والخطابة لها الحظّ الأوفر من أمر الدّين، لأنَّ الخطبة شطرُ الصلاة التي هي عماد الدّين في الأعياد والجمعات والجماعات،وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهّد بها الإمام رعيّته لئلاَّ تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عزّ وجلّ من ذلك في كتابه، إلى غير ذلك من منافع الخطب.

ولا يقع الشّعر في شيء من هذه الأشياء موقعاً، ولكنّ له مواضع لا ينجعُ فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة، من قذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، لا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأفحله، وليس يراد منه إلاّ حسن اللفظ، وجودة المعنى، هذا هو الذي سوّغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه.

وقيل لبعض الفلاسفة: فلان يكذب في شعره، فقال: يراد من الشاعر حسن الكلام، والصّدق يراد من الأنبياء.

فمن مراتبه العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام النظم الذي به زنة الألفاظ، وتمام حسنها، وليس شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ مترلة الشعر.

ومما يفضل به غيره أيضاً طول بقائه على أفواه الرّواة، وامتداد الزمان الطويل به، وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض، وهذه خاصة له في كلّ لغة، وعند كل أمة، وطول مدة الشيء من أشرف فضائله.

ومما يفضل به غيره من الكلام استفاضته في الناس وبعد سيره في الآفاق، وليس شيء أسير من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال.

وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر.

ومما يفضل به غيره أنه ليس يؤثر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام، فكم من شريف وضع، وخامل دنئ رفع، وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب.

ومما يفضلهما به أيضاً أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنّية، ولا يهتزّ ملك، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتزّ له، ويرتاح لاستماعه، وهذه فضيلةٌ أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام.

ومنه أنّ مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب، ولا تؤنس إلاّ بإنشاد الأشعار، ومذاكرة الأخبار، وأحسن الأخبار عندهم ما كان في أثنائها أشعار، وهذا شيء مفقودٌ في غير الشعر.

ومما يفضل به الشعر أن الألحان التي هي أهنئ اللّذات إذا سمعها ذوو القرائح الصافية، والأنفس اللطيفة، لا تتهيّأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر، فهو لها بمنزلة المادّة القابلة لصورها الشريفة، إلاّ ضرباً من الألحان الفارسية تصاغ على كلام غير منظوم نظم الشعر، تمطّط فيه الألفاظ، فالألحان منظومة، والألفاظ منثورة.

ومن أفضل فضائل الشّعر أنّ ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزلُها وفصيحُها، وفحلُها وغريبها من الشعر، ومن لم يكن راويةً لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته.

ومن ذلك أيضاً أنّ الشواهد تنزع من الشعر، ولولاه لم يكن على ما يلتبس من ألفاظ القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد.

وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلاَّ من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها، فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدبٍ بلغة العرب أو ناظر في علومها إليه ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة.

وأمّا النقص الّذي يلحق الشّعر من الجهات التي ذكرناها فليس يوجب الرغبة عنه زالزّهادة فيه، واستثناء الله عزّ وجل في أمر الشعراء يدلّ على أنّ المذموم من الشعر إنما هو المعدول عن جهة الصواب إلى الخطأ

والمصروف عن جهة الإنصاف والعدل إلى الظلم والجور.

وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم، ولو كان الذمّ لازماً له لكونه شعراً لما جاز أن يزول عنه على حال من الأحوال. ومع ذلك فإنّ من أكمل الصفات صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن من أتمّ صفات الشاعر أن يكون خطيباً كاتباً. والذي قصّر بالشعر كثرته وتعاطى كلّ أحد له حتى العامة والسفلة، فلحقه من النقص ما لحق العود والشّطرنج حين تعاطاهما كلّ أحد.

ومن صفات الشعر الذي يختصّ بها دون غيره أنّ الإنسان إذا أراد مدبح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر احتمل.

ومن ذلك أنّ صاحب الرياسة والأبّهة لو خطب بذكر عشيق له، ووصف وجده به، وحنينه إليه، وشهرته في حبّه، وبكاءه من أجله لاستهجن منه ذلك، وتنقّص به فيه، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً.

وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً يتأتّي فيه إيرادُها وقافيةً يحتملها، فمن المعاني ما تتمكّن من نظمه في قافية ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك، ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجئ سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجئ كزّاً فجّا ومتجعداً جلفاً.

فإذا عملت القصيدة فهذّبها ونقّحها، بإلقاء ماغثّ من أبياتها، ورثّ ورذل، والاقتصار على ما حسن وفخم، بإبدال حرف منها بآخر أجود منه، حتى تستوى أجزاؤها وتتضارع هواديها وأعجازها.

فقد أنشدنا أبو أحمد رحمه الله قال: أنشدنا أبو بكر بن دريد:

طرقتكَ عزَّةُ من مزارٍ نازحٍ ... يا حسنَ زائرةٍ وبعدَ مزارِ

ثم قال أبو بكر: لو قال: "يا قرب زائرة وبعد مزار" لكان أجود. وكذلك هو لتضّمنه الطّباق.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن عبد الرحمن عن عمه عن المنتجع بن نبهان، قال: سمعت الأشهب بن جميل يقول: أنا أوّل من ألقى الهجاء بين جرير وابن لجأ، أنشدت جريراً قوله:

تصطكُّ إلحيها على دلائهَا ... تلاطمَ الأزدِ على عطائهَا

حتى بلغتُ إلى قوله:

تجرُّ بالأهونِ من دعائهَا ... جرَّ العجوزِ الثّنىَ منْ كسائهَا

فقال جرير: ألا قال: "جر الفتاة طرفي ردائها" فرجعت إلى ابن لجأ فأخبرته. فقال: والله ما أردت إلا ضعفه العجوز، ووقع بينهما الشرّ. وقول جرير: "جرّ العروس طرفي ردائها". أحسن وأظرف وأحلى من

قول عمرو بن لجأ: "جرّ العجوز الثنى من كسائها". وليس في اعتذار ابن لجأ بضعفه العجوز فائدة، لأنّ الفتاة معها من الدلال ما يقوم في الهوينا مقام ضعفة العجوز. وإنكار جرير قوله: "الثّنى من كسائها" نقدٌ دقيق، وإنما أنكرهُ لأنَّ فيه شعبة من التكلف. وقول جرير: "طرفى ردائها" أسلس وأسهل وأقلّ حروفاً.

وقولك: رأيت الإيعاز بذلك أجود من قولك: رأيت أن أوعز بذلك، كذا وجدتً حذّاق الكتّاب يقولون. وعجبت من البحتري كيف قال:

لعمرُ الغوانِي يوم صحراءِ أربَدِ ... لقد هيَّجتْ وجداً على ذي توجُّدِ

ولو قال: "على متوجد" لكان أسهل وأسلس وأحسن.

وفي غير هذه الرواية قال، فقال ابن لجأ لجرير: فقد قلت أعجب من هذا، وهو قولك:

وأوثق عند المردفاتِ عشيّةً ... لحاقاً إذا ما جرّد السيف لامعُ

والله لو لم يلحقنَ إلا عشيّا لما لحقن حتى نكحن وأحبلن.

وقد كان هذا دأب جماعة من حذّاق الشعراء من المحدثين والقدماء، منهم زهير، كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذّبها في ستة أشهر، ثم يّظهرها، فتسمّى قصائده الحوليات لذلك.

وقال بعضهم: خير الشعر الحولي المنقّح، وكان الحطيئةُ يعمل القصيدة في شهر، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزُها. وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلةً، ثم ينظر فيها فيلقى أكثرها ويقتصر على العيون منها، فلهذا قصر أكثر قصائده.

وكان البحتري يلقى من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذبا.

وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل، وكان يرضى بأوّل خاطر فنعى عليه عيب كثير.

وتخيّر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه، وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحقّ بالمقام والحال كان جامعاً للحسن، بارعاً في الفضل، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوّله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام.

ومثاله ما أنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكي، قال: أنشدنا عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

اشارتْ بأطرافِ البنانِ المخضَّبِ ... وضنَّتْ بما تحت النقابِ المكتَّبِ

وعضَّتْ على تفاحة في يمينها ... بذي أشرٍ عذبِ المذاقة أشنبِ

وأومتْ بها نحوِي فقمتُ مبادراً إليها فقالت: هل سمعت بأشعبِ

فهذا أجودُ شعرٍ سبكا وأشده التئاما وأكثره طلاوة وماء.

وينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره، ومطابقاً هادية لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة من أختها، ومقرونة بلفقها، فإنّ تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام، ولا يكون ما بين ذلك حشوٌ يستغنى عنه ويتم الكلام دونه.

ومثال ذلك من الكلام المتلائم الأجزاء، غير المتنافر الأطرار قول أخت عمرو ذي الكلب:

فأقسمُ يا عمرُو لو نبّهاكَ إذاً نبَّهَا منكَ داءً عضالا

إذاً نبّها ليثَ عرّيسةٍ مفتياً مفيداً نفوساً ومالا

وخرقٍ تجاوزتَ مجهوله بوجناء حرف تشكّى الكلالا

فكنتَ النهارَ به شمسه وكنتَ دجى اللّيل فيه الهلالا

فجعلته الشمس بالنهار، والهلال بالليل. وقالت: مفيتا مفيدا، ثم فسرت فقالت: نفوساً ومالا.

وقال الآخر:

وفي أربع منّى حلتْ منكِ أربعٌ فما أنا دارٍ أيُّها هاجَ لي كربي

أوجهُك في عيني أم الرّيق في فمي أم النطق في سمعي أم الحبُّ في قلبي

وأخبرني أبو أحمد، قال: كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب تختلف إلى مدرك نتعلّم منه علم الشعر، فقال لنا يوماً: إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم قال: أجيزوا هذا البيت:

ألا إنَّما الدنيا متاعُ غرورِ

فأجازه كلّ واحد من الجماعة بشيء فلم يرضه، فقلت:

وإنْ عظمتْ في أنفسٍ وصدورِ

فقال: هذا هو الجيّدُ المختار.

وأخبرنا أبو أحمد الشطني، قال: حدّثنا أبو العباس بن عربي، قال: حدثنا حماد عن يزيد بن جبلة، قال: دفن مسلمة رجلاً من أهله، وقال:

نروحُ ونغدُو كلَّ يومٍ وليلة

ثم قال لبعضهم: أجز، فقال: "فحتّى متى هذا الرواح مع الغدو" فقال مسلمة: لم تصنع شيئاً. فقال آخر: "فيالك مغدى مرة ورواحا" فقال: لم تصنع شيئاً. فقال لآخر: أجز أنتَ، فقال: "وعمّا قليل لا نروح ولا نغدُو فقال: الآن تمَّ البيت.

ومما لم يوضع فيه الشيء مع لفقه من أشعار المتقدمين قول طرفة:

ولستُ بحلاَّلِ التّلاعِ مخافةً ... ولكن متى يسترْفد القوم أرفدِ

فالمصراع الثاني غير مشاكل الصورة للمصراع الأول، وإن كان المعنى صحيحا، لأنه أراد: ولست بحلاَّل التّلاع مخافة السّؤال، ولكنّي أنزل الأمكنة المرتفعة، لينتابوني فأرفدهم، وهذا وجه الكلام، فلم يعبّر عنه تعبيراً صحيحاً، ولكنه خلطه وحذف منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر، وأدواء الكلام كثيرة.

وهكذا قول الأعشى:

وإنّ امرء أسرى إليك ودونَه ... سهوبٌ وموماة وبيدَاء سملَق

لمحقوقةٌ أن تستجيبي لصوتهِ ... وأنْ تعلمي أنَّ المعانَ موفّقُ

قوله: "وأن تعلمي أنَّ المعانَ موفَّق" غير مشاكل لما قبله.

وهكذا قول عنترة:

حرقُ الجناحِ كأنَّ لحيي رأسِه ... جلمان بالأخبارِ هشّ مولعُ

إنَّ الذين نعبتَ لي بفراقِهم ... هم أسلموا ليلى التمام وأوجَعوا

ليس قوله "بالأخبار هشّ مولع" في شيء من صفة جناحه ولحييه.

وقول السموءل:

فنحنُ كماء المزنِ ما في نصابِنا ... كهامٌ ولا فينا يعدُّ بخيلُ

ليس في قوله: "ما في نصابنا كهام". من قوله: "فنحن كماءِ المزنِ" في شيء، إذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة، ولو قال: ونحن ليوث الحرب، أو أولو الصارمة والنّجدة ما في نصابنا كهامٌ لكان الكلام مستويا. أو نحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكفّ لكان جيدا.

وجعل بعض الأدباء من هذا الجنس قول امرئ القيس:

كأنّيَ لمْ أركبْ جواداً للذَّةٍ ... ولمْ أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ

ولم أسبَإِ الزقّ الرَّوىَّ ولمْ أقلْ ... لخيليَ كرّى كرَّةً بعدَ إجفالِ

قالوا: فلو وضع مصراعُ كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر لكان أحسن وأدخل في استواء النّسج، فكان يروى:

كأنّيَ لم أركبْ جواداً ولم أقلْ لخيليَ كرِّى كرَّةً بعد إجفالِ
ولم أسبإ الزِّقَّ الرَّوى للذَّةٍ ولم أتبطَّن كاعباً ذات خلخال

لأنَّ ركوبَ الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن.

قال أبو أحمد: الذي جاء به امرؤ القيس هو الصحيح، وذلك أن العرب تضع الشيء مع خلافه فيقولن: الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، وما يجرى مع ذلك. وقالوا في قول ابن هرمة:

وإني وتركى ندى الأكرمينَ وقدحِي بكفِّىَ زنداً شحاحَا
كتاركةٍ بيضهَا بالعراءِ وملبسةٍ بيضَ أخرَى جناحَا

وقول الفرزدق:

وإنك إذْ تهجُو تميماً وترتشِي سرابيلَ قيسٍ أو سحوقَ العمائمِ
كمهريق ماءٍ بالفلاة وغرَّهُ سرابٌ أذاعتهُ رياحُ السّمائمِ

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة مع بيت الفرزدق وبيت الفرزدق مع بيت ابن هرمة، فيقال:

وإني وتركي ندى الأكرمينَ وقدحِي بكفِّيَ زنداً شحاحا
كمهريق ماءِ بالفلاة وغرَّة سرابٌ أذاعته رياح السمائم

ويقال:

وإنكَ إذ تهجُو تميماً وترتشِي سرابيلَ قيسٍ أو سحوق العمائم
كتاركةٍ بيضَها بالعراءِ وملبسَة بيضَ أخرى جناحَا

حتى يصحّ التشبيه للشاعرين جميعاً.

ومن المتنافر الصدر والأعجاز قول حبيب بن أوس:

محمد إنّ الحاسدين حشودُ وإنّ مصاب المزنِ حيث تريدُ

ليس النصف الأول من النصف الثاني في شيء.

وقريبٌ من ذلك قول الطالبي:

قومٌ هدى اللهُ العباد بجدِّهم والمؤثرونَ الضيفَ بالأزوادِ

ومن الشعر المتلائم الأجزاء المتشابه الصدور والأعجاز قول أبي النجم:

إنّ الأعادي لنْ تنالَ قديمَنا حتّى تنالَ كواكبُ الجوزاء
كمْ في لجيمٍ من أغرّ كأنه صبح يشقُّ طيالسَ الظَّلماء

ومجرّبٍ خضل السنانِ إذا التقَى زحفٌ بخاطرة الصدورِ ظماء

وكقول القطامى:

يمشين رهواً فلا الأعجازُ خاذلة ولا الصّدورُ على الأعجازِ تتّكلُ

فهنَّ معترضاتٌ والحصَى رمضٌ والريح ساكنةٌ والظلُّ معتدلُ

إلاّ أنّ هذا لو كان في وصف نساء لكان أحسن، فهو كالشيء الموضوع في غير موضعه.

وينبغي أن تتجنّب إذا مدحتَ أو عاتبت المعاني التي يتطيّر منها ويستشنع سماعها، مثل قول أبي نواس:

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فقدتم بني برمكٍ من رائحين وغادِي

وإذا أردت أن تأتي بهذا المعنى فسبيلك أن تسلك سبيل أشجع السلمى في قوله:

لقدْ أمسَى صلاح أبي عليّ لأهل الأرض كلِّهم صلاحا

إذا ما الموتُ أخطأه فلسنَا نبالِي الموتَ حيث غدَا وراحَا

فذكر إخطاءَ الموت إياه وتجاوزه إلى غيره، فجاد المعنى وحسن المستمع. وقد أحسن القائل:

ولا تحسبنَّ الحزنَ يبقى فإنه شهابُ حريقٍ واقدٌ ثم خامدُ

ستألفُ فقدان الّذي قد فقدتُه كإلفكَ وجدان الّذي أنتَ واجدُ

فجعل ما يتطيّر منه من الفقدان لنفسه وما يستحبّ من الوجدان للممدوح، وقد أساء أبو الوليد أرطاة بن شهبة، حين أنشد عبد الملك:

رأيتُ الدهر يأكلُ كلَّ حيٍّ كأكلِ الأرضِ ساقطةَ الحديدِ

وما تبقِى المنّية حينَ تغدُو على نفس ابن آدمَ من مزيدِ

وأعلمُ أنها ستكرّ حتّى توفِي نذرَها بأبي الوليدِ

وكان عبد الملك يكنّى أبا الوليد فتطيّر منه، ومازال يرى كراهةَ شعره في وجهه حتى مات.

وإذا دعتِ الضرورةُ إلى سوق خبر واقتصاص كلام، فتحتاج إلى أن تتوخّى فيه الصدق، وتتحرّى الحقّ، فإن الكلام حينئذ يملكك ويحوجك إلى اتّباعه والانقياد له.

وينبغي أن تأخذ في طريق تسهل عليك حكايته فيها، وتركب قافية تطيعك في استيفائك له، كما فعل النابغة في قوله:

واحكمْ كحكمِ فتاةَ الحيِّ إذْ نظرَتْ إلى حمامِ شراعٍ واردِ الثَّمدِ

يحفّه جانباً نيقٍ وتتبعُه مثل الزّجاجةِ لم تكحلَ من الرَّمدِ

قالتْ ألا ليتمَا لهذا الحمامُ لنا   إلى حمامتنَا أو نصفه فقدِ
فكمّلتْ مائةً فيها حمامتُها   وأسرعتْ حسبةً في ذلك العدد
فحسبُوهُ فألفوهُ كما حسبتْ   تسعاً وتسعينَ لم تنقص ولم تزدِ

فهذا أجود ما يذكر في هذا الباب، وأصعب ما رامه شاعر منه، لأنه عمد إلى حساب دقيق، فأورده مشروحا ملخّصا، وحكاه حكاية صادقة. ولّما احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والثّمد بين الكلام على قافية فاصلة الدال فسهل عليه طريقه، واطّرد سبيله.

ومثل ذلك ما أتاه البحتري في القصيدة التي أولها:

هاجَ الخيالُ لنا ذكرَى إذا طافَا   وافى يخادعُنَا والصبحُ قد وافى

وكان قد احتاج إلى ذكر الآلاف، والإسعاف، والأضعاف، والإسراف، وترك الاقتصار على الأنصاف، فجعل القصيدة فائية، فاستوى له مرادُه وقرب عليه مرامه، وهو قوله:

قضيتَ عني ابن بسطامٍ صنيعتَه   عندِي وضاعفتَ ما أولاه أضعافا
وكانَ معروفُه قصداً إليَّ وما   جازيتَهُ عنه تبذيراً وإسرافَا
مئونَ عينا توليتَ الثّوابَ بها   حتى انثنتْ لأبي العباسِ آلافَا

قد كان يكفيه ممّا قدمتْ يده   ربّا يزيد على الآحادِ أنصافا

ولا ينبغي أن يكون لفظك وحشياً بدوياً، وكذلك لا يصلح أن يكون مبتذلا سوقيا.

أخبرنا أبو أحمد عن مبرمان عن أبي جعفر بن القتبي عن أبيه، قال، قال خلف الأحمر: قال شيخٌ من أهل الكوفة: أما عجبت أن الشاعر قال: أنبت قيصوما وجثجاثا فاحتمل، وقلت أنا: أنبت إجاصاً وتفاحا فلم يحتمل.

والمختار من الكلام ما كان سهلاً جزلا لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشويّة، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال، ألا ترى إلى قول المتنبي:

أين البطاريقُ والحلفُ الّذي حلفُوا   بمفرقِ الملك والزَّعمُ الَّذي زعمُوا

هذا قبيحٌ جداً، وإنما سمع قول العامّة حلف برأسه، فأراد أن يقول مثله، فلم يستو له، فقال: بمفرق الملك، ولو جاز هذا لجاز أن يقول: حلف بيافوخ أبيه، وبقمحدوة سيّده.

وقبح هذا يدلّ على أنّ أمثاله غير جائز في جميع المواضع، وهذا النوع في شعر المتنبي كبعد الاستعارة في

شعر أبي تمام.

ومن الألفاظ ما يستعمل رباعيّة وخماسيّة دون ثلاثيّة، ومنها ما هو بخلاف ذلك، فينبغي ألاَّ تعدل عن جهة الاستعمال فيها، ولا يغرّك أن أصولها مستعملة، فالخروجُ عن الطريقة المشهورة والنّهج المسلوك رديء على كل حال. ألا ترى أنّ الناسَ يستعملون التعاطي فيكون منهم مقبولا، ولو استعملوا العطو وهو أصل هذه الكلمة وهو ثلاثيّ، والثلاثيُّ أكثر استعمالا، لما كان مقبولا ولا حسناً مرضيا، فقس على هذا.

ومن الألفاظ ما إذا وقع نكرة قبح موضعه وحسن إذا وقع معرفة، مثل قول بعضهم:

لمّا التقينا صاح بينٌ بيننا		يدنى من القرب البعاد لحقاقَا

فقوله: "صاح بينٌ بيننا" متكلّفٌ جداً. فلو قال: البين كان أقرب، على أنَّ البيتَ كلّه رديء، ليس من وصف البلغاء.

وينبغي أن تجتنب ارتكاب الضرورات وإن جاءت فيها رخصةٌ من أهل العربية، فإنها قبيحةٌ تشين الكلام وتذهب بمائة، وإنما استعملها القدماء في أشعارهم لعدم علمهم بقباحتها، ولأنَّ بعضهم كان صاحب بداية، والبداية مزلة، وما كان أيضاً تنقد عليهم أشعارهم، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب كما ننقد على شعراء هذه الأزمنة ويبهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب لتجنَّبوها، وهو كقول الشاعر:

له زجلٌ كأنَّه صوتُ حادٍ		إذا طلب الوسيقةَ أو زميرُ

فلم يشبع.

وقول الآخر:

ألمْ يأتيكَ والأنباء تنمِي		بما لاقتْ لبونُ بنى زيادِ

فقال: "ألم يأتيك"، فلم يجزم.

وقال ابن قيس الرقيات:

لا باركَ الله في الغوانيَ هلْ		يصبحنَ إلاَّ لهنَّ مطَّلبُ

فحرّك حرف العلة.

وقال قعنب بن أم صاحب:

مهلاً أعاذل قدْ جرَّبتِ من خلُقي		إنّي أجودُ لأقوامٍ وإن ضننُوا

فأظهر التضعيف.

ومثله قول العجاج:

تشكُو الوجَى من أظللٍ وأظلل

وقال جميل:

ألا لا أرَى اثنينِ أحسن شيمةً   على حدثانِ الدَّهرِ منِّي ومنْ جملِ

وقال:

إذا جاوز الاثنين سرٌّ فإنَّه   بنشرٍ وتكثير الوشاةِ قمينُ

فقطع ألف الوصل.

وقال غيره:

من الثّعالي ووخزٌ من أرانيهَا

إلى غير ذلك مما يجري مجراه، وهو مكروه الاستعمال وينبغي أن تتحامى العيوبَ التي تعتري القوافي، مثل السّناد والإقواء والإبطاء، وهو أسهلها، والتوجيه وإن جاء في جميع أشعار المتقدمين وأكثر أشعار المحدثين. وينبغي أن نرتب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فتقدّم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره، ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخّر منها ما يكون التقديم به أليق.

فما أفسد ترتيبُ ألفاظه قول بعضهم:

يضحكُ منها كلُّ عضوٍ لها   من بهجةِ العيشِ وحسنِ القوامْ

ترفلُ في الدّارِ لها وفْرة   كوفرةِ الملط الخليع الغلامْ

كان ينبغي أن يقول: كوفرة الغلام الملط الخليع، أو الغلام الخليع الملط، فأمّا تقديم الصفة على الموصوف فرديءٌ في صنعة الكلام جداً. وقوله أيضاً: "بهجة العيش وحسن القوام" متنافرٌ غير مقبول.

وقول ابن طباطبا:

وعجلةٌ تشدو بألحانها   وكانتِ الكيّسة الخادمه

لو قال: "وكانت الخادمة الكيّسة" لكان أجود.

وينبغي ألاّ يذكر في التشبيب اسماً بغيضاً، فقد أنشد جريرٌ بعض ملوكِ بني أميّة:

ونقول بوزعُ قد دببتَ على العصَا   هلاَّ هزئتِ بغيرنَا يا بوزَعُ

فقال له الملك: أفسدتها ببوزَع.

وقد يقدح في الحسن قبح اسمه، ويزيد في مهابة الرجل فخامةُ اسمه، ولهذا تكنّى البحتري بأبي عبادة، وكان يكنّى أبا الحسن، وشهد رجلٌ عند شريح وكان الرجلُ يكنّى أبا الكويفر، فردَّ شهادته، ولم يسأل عنه.

وسمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلاً يكنى أبا العمرين، فقال: لو كان عاقلاً لكفاه أحدهما.

وأتى ظالم بن سرّاق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليستعمله فردّه، وقال: أنت تظلم وأبوك يسرق، وظالم هذا جدّ المهلّب بن أبي صفرة.

وهذه جملة كافية إذا تدبّرت، وبالله التوفيق.

ومن عيوب الكلام تكرير الكلمة الواحدة في كلام قصير: مثل قول سعيد بن حميد: ومثّل خادمك بين ما يملك فلم يجد شيئاً يفي بحقّك، ورأى أنّ تقريظك بما يبلغُه اللسانُ وإن كان مقصّرا عن حقك أبلغُ في أداء ما يجب لك.

فكرر الحقّ في المقدار اليسير من الكلام.

وينبغي أن يتجنّب الكاتب جميع ما يكسب الكلام تعميةً، فيرتب ألفاظه ترتيباً صحيحاً، ويتجنّب السقيم منه، وهو مثل ما كتب بعضهم: لفلان وله بي حرمة مظلمة. وكان ينبغي أن يقول: لفلان وأنا أرعى حرمته مظلمة. وما يجرى هذا المجرى من الترتيب المختار البعيد من الإشكال.

الفصل الثاني

فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته

ينبغي أن تعلم أنّ الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمّة، وآلاتٍ كثيرة، مع معرفة العربية لتصحيح الألفاظ، وإصابة المعاني، وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة، وغير ذلك مما ليس ها هنا موضع ذكره وشرحه، لأنّا إنما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلّها، وبقى عليه المعرفة بصنعة الكلام، وهي أصعبها وأشدّها.

والشاهد ما روى لنا أبو أحمد عن مبرمان عن المبرّد، أنه قال: لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي، إنه ليس أحدٌ من الخافقين يختلج في نفسه مسألةٌ مشكلةٌ إلا لقيني بها، وأعدّني لها، فأنا عالمٌ ومتعلمٌ وحافظٌ ودارسٌ، لا يخفى علي مشتبه من الشّعر والنّحو والكلام المنثور والخطب والرسائل، ولربما احتجت إلى اعتذار من فلتةٍ أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان. ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل، فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها، وأعرض ببعض أموري، فأتعبتُ نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عمّا في ضميري، فينصرف لساني إلى غيره. ولذلك قيل: زيادة المنطق على الأدب خدعة، وزيادة الأدب على المنطق هجنة.

فأوّل ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

والشاهد عليه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته، فكتب: من محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيم فارس: سلامٌ على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافّة لينذر من كان حيّاً، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإثم المجوس عليك.

فسهّل صلى الله عليه وسلم الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية.

ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ، لما عرف من فضل قوّتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله.

فكتب لوائل بن حجر الحضرمي: من محمد رسول الله إلى الأقيالِ العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على التّبعة الشاة، والتّبعة لصاحبها، وفي السّيوبِ الخمس، لا خلاطَ ولا وراطَ ولا شناقَ ولا شغار، ومن أجبى فقد أربَى، وكلُّ مسكر حرام.

وكذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأكيدر صاحب دومة الجندل: من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله.

إنّ لنا الضاحية من الضّحل والبور والمعاهي وأغفال الأرض، والحلقة والسّلاح، ولكم الضّامنة من النّخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، ولا تعدّ فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤدّون الزكاة، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه.

واعلم أنّ المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنّهي سبيلها أن تؤكّد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام، لا بجهة كثرة اللّفظ، لأنّ حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيهٌ بحكم توقيعاته، من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى هذا إذا كان الأمر والنهي واقعين في جملة واحدة لا يقع فيها وجوه التمثيل للأعمال.

فأمّا إذا وقعا في ذلك الجنس فإنّ الحكم فيهما يخالف ما ذكرناه، وسبيل الكلام فيها أن يحمل على الإطالة والتكرير دون الحذف والإيجاز، وذلك مثل ما يكتب عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدّم فيها ذكر ما رآه السلطان في ذلك ودبّره، ثم يعقّب بذكر الأمر بامتثاله، ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكد ويكرّر لتأكّد الحجة على المأمور به، ويحذّر مع ذلك من الإخلال والتقصير.

ومنها الإحماد والإذمام والثناء والتّقريظ، والذمّ والاستصغار، والعدل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن تشبع

الكلام فيه، ويمد القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع، وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسئ ويأخذ نفسه بالارتداع.

فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإنّ سبيل ما كان واقعاً منها في إنهاء الأخبار، وتقرير صور ما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال أن يمدّ القول فيه حتى يبلغَ غاية الشفاء والإقناع، وتمام الشرح والاستقصاء، إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأخذ، السريعة إلى الفهم، دون ما يقع فيه استكراه وتعقيد، وربما تعرض الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتّورية عن الشيء دون الإفصاح، لما في التصريح من هتك الستر، في حكايته عن عدوّ أطلق لسانه به، وفيه اطّراح مهابة الرئيس، فيجب إجلاله عنه، وفي الصدق ما يسوءه سماعه، ويقع بخلاف محبّته، فيحتاج منشئ الكلام إلى استعمال لفظ في العبارة لا تنخرق معه هيبة الرئيس، ولا يعترض فيه ما يشتدّ عليه، ولا يكون أيضاً معها خيانةٌ في طيّ ما لا يجب ستره، ولا يكمل لهذا إلا المبرّز الكامل المقدّم.

وسبيل ما يكتب به في باب الشكر ألّا يقع فيه إسهابٌ، فإن إسهاب التابع في الشكر، إذا رجع إلى خصوصية، نوع من الإبرام والتثقيل، ولا يحسن منه أن يستعمل الإكثار من الثناء والدعاء أيضاً، فإن ذلك فعل الأباعد الذين لم تتقدَّم لهم وسائل من الخدمة مقدّمات في الحرمة، أو تكون صناعتهم التكسّب بتقريظ الملوك وإطراء السلاطين. فلا يقبح إكثار الثناء من هؤلاء.

وليس يحسن منه أيضاً تكرير الدعاء في صدر الكتاب والرّقاع عندما يجريه من ذكر الرئيس، فإن ذلك مشغلة وكلفة، والحكم فيما يستعمله من ذلك في الكتب مشبّه بحكم ما يستعمل منه شفاهاً. ويقبح من خادم السلطان أن يشغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء له وتكثيره عند استئناف كلّ لفظة.

وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النّظراء ألا يكثر من شكاية الحال ورقّتها، واستيلاء الخصاصة عليه فيها، فإنَّ ذلك يجمع إلى الإبرام والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلّة ظهور نعمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروهٌ جداً، بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة وتوفير العائدة.

وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنّب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة الموجدة، ولا يمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير، فإن ذلك مما يكره الرؤساء، والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم وخولهم بالتقصير والتفريط في أداء حقوقهم وتأدية فروضهم، ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العفو والتجاوز موضع منّة مستأنفة تستدعي شكراً، وعارفة مستجدّة تقتضي نشراً، فأما إذا بالغ المتنصّل في براءة ساحته من كلّ ما قذف به فلا موضع للإحسان إليه

في إعفائه عن ترك السخط، بل ذلك أمرٌ واجبٌ له، وفي منع الرئيس حصّته منه ظلمٌ وإساءةٌ.

وينبغي أن يكثر الألفاظ عنده، فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعاد ما يعيده منها بغير اللّفظ الذي ابتدأه به، مثل ما قال معاوية رضى الله عنه: من لم يكن من بني عبد المطلب جواداً فهو دخيل، ومن لم يكن من بني الزبير شجاعاً فهو لزيق، ومن لم يكن من ولد المغيرة تيّاها فهو سنيد. فقال: دخيل ثم قال: لزيق ثم قال: سنيد. والمعنى واحد والكلام على ما تراه أحسن، ولو قال لزيق، قم أعاده لسمج.

هذا، أدام الله عزك، بعد أن تفرّق بين من تكتب إليه، "فإن رأيت، وبين من تكتب إليه" فرأيك. وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء، فتفرق بين من تكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة، وبين من تكتب إليه بتركها إجلالاً وإعظاما، وبين من تكبت إليه: أنا أفعل كذا، وبين من تكتب إليه: نحن نفعل كذا، فأنا من كلام الإخوان والأشباه، ونحن من كلام الملوك. وتكتب في أول الكتاب سلامٌ عليك، وفي آخره والسلام عليك، لأنَّ الشيء إذا ابتدأت بذكره كان نكرةً، فإذا أعدته صار معرفة، كما تقول: مرَّ بنا رجلٌ فإذا رجع قلت: رجع الرّجل.

وكان الناس فيما مضى يستعملون في أوّل فصول الرسائل أما بعد. وقد تركها اليوم جماعةٌ من الكتّاب، فلا يكادون يستعملونها في شيء من كتبهم، وأظنّهم ألّموا بقول ابن القرية وسأله الحجاج عما ينكره من خطابته، فقال: إنك تكثّر الردّ، وتشير باليد، وتستعين بأمّا بعد. فتحاموه لهذه الجهة مع أنهم رووا في التفسير أن قول الله تعالى: "وآتيناه الحكمةَ وفصل الخطاب" هو قوله أما بعد، فإن استعملته اتباعاً للأسلاف، ورغبة فيما جاء فيه من التأويل فهو حسن، وإن تركته توخّياً لمطابقة أهل عصرك، وكراهةً للخروج عمّا أصّلوه لم يكن ضائراً.

وينبغي أن يكون الدعاءُ على حسب ما توجبه الحال بينك وبين من تكتبُ إليه وعلى القدر المكتوب فيه. وقد كتب بعضهم إلى حبّة له: عصمنا الله وإيّاك مما يكره. فكتبت إليه: يا غليظ الطّبع، لو استجيبت لك دعوتك لم نلتق أبداً.

واعلم أنّ الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السّجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيدٌ، وكثر ما يقع ذلك في السّجع، وقل ما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر.

وينبغي أن تتجنَّب إعادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد إذا كتبت مثل قول القائل: منه له عليه. أو عليه فيه. أو به له منه. وأخفها له عليه، فسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل ما بين الحرفين،

مثل أن تقول: أقمت به شهيداً عليه. ولا أعرف أحداً كان يتتبّع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبي، فإنه ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها حتى تخطّى إلى هذا النوع فقال:

ويسعدني في غمرةٍ بعد غمرةٍ   سبوحٌ له منها عليها شواهدُ

فأتى من الاستكراه بما لا يطارُ غرابُه فتدبّر ما قلناه، وارتسمه تظفر ببغيتك منه إن شاء الله.

الباب الرابع

البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك

أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشّعر، وجمعيها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب.

وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية، فإذا كان المعنى سبيّاً، ورصف الكلام رديّاً لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة. وإذا كان المعنى وسطا، ورصف الكلام جيّداً كان أحسن موقعاً، وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا، وإن اختلّ نظمه فضمّت الحبّة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمتهُ العين وإن كان فائقاً ثميناً.

وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديمُ والتأخيرُ، والحذف والزيادةُ إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمى المعنى، وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلِها، وتضاف إلى لفقِها.

وسوء الرّصفِ تقديمُ ما ينبغي تأخيرهُ منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها.

وقال العتابي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّراً، أو أخَّرت منها مقدّما أفسدتَ الصورة وغيّرتْ المعنى، كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يدٌ إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية.

وقد أحسن في هذا التمثيل وأعلم به على أنَّ الذي ينبغي في صيغة الكلام وضعُ كلّ شيءٍ منه في موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم.

فمن سوء النّظم المعاظلة، وقد مدح عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه زهيراً لمجانبتها. فقال: كان لا يعاظل بين الكلام، وأصل هذه الكلمة من قولهم: تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى، وعاظل الرجل المرأة إذا ركبها، فمن المعاظلة قول الفرزدق:

تعالَ فإنْ عاهدتنِي لا تخونني ... تكنْ مثلَ من يا ذئبُ يصطحبَانِ

وقوله:

هو السّيف الذي نصر ابن أروَى ... به عثمانَ مروانُ المصابَا

وقوله للوليد بن عبد الملك:

إلى ملك ما أمُّهُ من محاربٍ ... أبوه ولا كانتْ كليب تصاهِرُهْ

وقوله يمدح هشام بن إسماعيل:

وما مثلُه في الناسِ إلاّ مملّكاً ... أبو أمّه حيٌّ أبوه يقاربُهْ

وقوله:

الشمسُ طالعة ليستْ بكاسفةٍ ... تبكي عليكَ نجومَ اللّيلِ والقمَرا

وقوله:

ما من ندى رجلٍ أحقّ بما أتى ... من مكرماتِ عظائمِ الأخطارِ

من راحتينِ يزيد يقدحُ زندَهُ ... كفّاهُما وأشدّ عقد إزارِ

وقوله:

إذا جئتهُ أعطاكَ عفواً ولم يكنْ ... على ماله حال الردى مثل سائلِهْ

إلى ملك لا تنصفُ الساقَ نعلُه ... أجلْ وإنْ كانت طوالاً محاملِه

وقال قدامة: لا أعرف المعاظلة إلا فاحش الاستعارة، مثل قول أوس:

وذات هدمٍ عارٍ نواشِرُها ... تصمتُ بالماءِ تولباً جدعَا

فسمى الصبي توليا، والتّولب: ولدُ الحمار.

وقول الآخر:

وما رقدَ الولدان حتى رأيتَهُ ... على البكرِ يمرِ به بساقٍ وحافرِ

فسّمى قدم الإنسان حافراً. وهذا غلطٌ من قدامة كبيرٌ، لأنَّ المعاظلة في أصلِ الكلام إنما هي ركوب الشيء بعضه بعضاً، وسمى الكلام به إذا لم ينضد نضداً مستوياً، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض، وتداخلت أجزاؤه، تشبيهاً بتعاظل الكلاب والجراد، على ما ذكرناه، وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلامٍ في كلام، وإنما هو بعدٌ في الاستعارة.

والدليل على ما قلنا أنك لا ترى في شعر زهير شيئاً من هذا الجنس، ويوجد في أكثر شعر الفحول نحو ما نفاه عنه عمر رضى الله عنه وحد، فما وجد منه في شعر النابغة قوله:

يثرنَ الثَّرَى حتى يباشرن برده إذا الشمس مجّتْ ريقها بالكلاكِل

معناه: يثرنَ الثّرى حتى يباشرن برده بالكلاكِل إذا الشمس مجّت ريقها. وهذا مستجهنٌ جدّاً، لأنَّ المعنى تعمّى فيه.

وقول الشماخ:

تخامصُ عن برد الوشاحِ إذا مشتْ تخامص حافي الخيلِ في الأمعزِ الوجِي

معناه تخامص الحافي الوجى في الأمعز.

وقول لبيد:

وشمولٍ قهوةٍ باكرتُها في التّباشير مع الصُّبْح الأوَلْ

أي في التباشير الأول مع الصّبح.

وكقول ذي الرمة:

كأنَّ أصواتَ منْ إيغالهنَّ بنا أواخر الميس أصواتُ الفراريج

يريد كأن أصوات آخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن.

وقوله أيضاً:

نضا البرد عنه وهو من ذو جنُونِه أجاريّ تصهالٍ وصوتَ صلاصلِ

كأنه من تخليطه كلامُ مجنونٍ أو هجرُ مبرسم يريد: وهو من جنونه ذو أجارّي.

وكقول أبي حية النميري:

كما خط الكتاب بكفّ يوماً يهوديٍّ يقاربُ أو يزيلُ

يريد: كما خط الكتابُ بكف يهوديّ يوما يقارب أو يزيل.

وقول الآخر:

همَا أخوا في الحربِ من لا أخاً لهُ إذا خاف يوماً نبوةً فدعَاهُما

يريد: أخوا من لا أخ له في الحرب.

وليس للمحدث أن يجعل هذه الأبيات حجةً، ويبنى عليها، فإنه لا يعذر في شيء منها، لاجتماع الناس اليوم على مجانبة أمثالها، واستجادة ما يصحّ من الكلام ويستبين، واسترذال ما يشكل ويستبهم.

فمن الكلام المستوى النظم، الملتئم الرّصف قولُ بعض العرب:

أيَا شجرَ الخابورِ مالكَ مورقاً كأنَّكَ لم تحزن على ابنِ طريفِ

فتىً لا يحبُّ الزَّادَ إلاّ من التّقَى ... ولا المالَ إلاَّ من قناً وسيوفِ

ولا الخيل إلا كل جرداء شطبَةٍ ... وأجرد شطبٍ في العنان خنوفِ

كأنك لم تشهدْ طعاناً ولم تقمْ ... مقاماً على الأعداءِ غير خفيف

فلا تجزعا يا بني طريفٍ فإنَّني ... أرى الموتَ حلاَّلاً بكلِّ شريف

والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته، وسهولته واستوائه، وقلة ضروراته، ومن ذلك قول بعض المحدثين:

وقوفكَ تحتَ ظلالِ السيوفِ ... أقر الخلافة في دَارها

كأنك مطَّلع في القلُوب ... إذا ما تناجتْ بأسرَارِها

فكرَّاتُ طرفِك مردُودة ... إليكَ بغامض أخبَارِها

وفي راحتيكَ الرَّدَى والنَّدَى ... وكلتاهُما طوعُ ممتارِهَا

وأقضيةُ اللهِ محتومَةٌ ... وأنت منفِّذُ أقدارِها

ولا تكاد القصيدة تستوى أبياتها في حسن التأليف، ولا بدّ أن تتخالف، فمن ذلك قول عبيد بن الأبرص:

وقدْ إلا لمّتِي شيبٌ فودَّعنِي ... منْه الغوانِي وداعَ الصّارمِ القالِي

وقد أسلِّي همومي حين تحضرُنِي ... بجسرةٍ كعلاةِ القينِ شملالِ

زيّافةٍ بقتودِ الرَّحل ناجيةٍ ... تفرى الهجير بتبغيلٍ وإرقالِ

وفيها:

تحتى مسوَّمةٌ جرداءٌ عجلزةٌ ... كالسَّهمِ أرسلهُ من كفّه الغالِي

والشّيبُ شينٌ لمن أرسَى بساحتِهِ ... للهِ درُّ سوادِ اللمَّة الخالِي

فهذا نظم حسن وتأليف مختار.

وفيها ما هو ردئ لا خر فيه، وهو قوله:

بانَ الشّبابُ فآلى لا يلمُّ بنا ... واحتلَّ بي من مشيبٍ كل محلالِ

وقوله:

فبت ألعبُها طوراً وتلعبُني ... ثم انصرفتُ وهي منى على بالِ

قوله: واحتل بي من مشيب كلّ محلال بغيضٌ خارج عن طريقة الاستعمال وأبغض منه قوله: وهي مني على بال.

وفيها:

وكبش ملمومة بادٍ نواجذُها　　　شهباء ذات سرابيلٍ وأبطالِ

السرابيل: الدروع، فلو وضع السيوف موضع الدروع لكان أجود.

وفيها:

أوجرتُ جفرتهُ خرصاً فمالَ به　　　كما انثنى خضدٌ من ناعمِ الضاّل

النصف الثاني أكثر ماءً من النصف الأول.

وفيها:

وقهوةٍ كرضابِ المسك طالَ بها　　　في دنِّها كرُّ حولٍ بعدَ أحوالِ

هذا البيت متوسط.

باكرتُها قبلَ أن يبدُو الصّباحُ لنَا　　　في بيتِ منهمرِ الكفّينِ مفضالِ

النصف الثاني أجودُ من النصف الأول.

وقوله:

أما إذا دعيتْ نزال فإنهم　　　يجثون للركبات في الأبدَانِ

هذا ردئ الرّصف.

وبعده:

فخلدت بعدَهم ولستُ بخالد　　　والدهرُ ذو غيرٍ وذو ألوانِ

متوسط.

وبعده:

إلاَّ لأعلم ما جهلتُ بعقبِهم　　　وتذكرى ما فاتَ أيّ أوانِ

مختلّ النظم، ومعناه لست بخالد إلا لأعلم ما جهلت، وتذكري ما فات، أيّ أوانٍ كان.

وقول انمر بن تولب:

لعمرِي لقد أنكرتُ نفسي ورابني　　　مع الشّيب أبدالي التي أتبدلُ

فضولٌ أراهَا في أديميَ بعدَمَا　　　يكون كفاف اللّحم أو هو أفضلُ

بطيءٌ عن الدَّاعي، فلستُ بآخذٍ سلاحي إليه مثلَ ما كنتُ أفعلُ
كأنّ محطّاً في يدي حارثيَّةٍ ضباعٍ علتْ مني به الجلدَ من علُ
تدارك ما قبلَ الشبابِ وبعده حوادثُ أيَّامٍ تمرُّ وأغفلُ
يودُّ الفتى طولَ السّلامة والغنى فكيف ترى طول السلامةِ تفعلُ
يردُّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحّةٍ ينوءُ إذا رام القيامَ ويحملُ

فهذه الأبيات جيدة السبك حسنة الرصف.

وفيها:

فلا الجارة الدُّنيا لها تلحينَّها ولا الضيف فيها إن أناخَ محوَّلُ

فالنّصف الأول مختلٌّ، لأنه خالف فيه وجه الاستعمال، ووجه أن يقول: فهي لا تلحى الجارة الدنيا، أي القريبة.

وكذلك قوله:

إذا هتكتْ أطناب بيتٍ وأهله بمعطنها لم يوردوا الماء قيّلوا

هذا مضطربٌ لتناوله المعنى من بعيد. ووجهُ الكلام أن يقول: إذا دنت إبلُنا من حيّ ولم ترد إبلهم الماء قيلوا من إبلنا. والقيل: شرب نصف النهار.

وأشدُّ اضطراباً منه قوله:

وما قمعنا فيه الوطاب وحولنا بيوتٌ علينا كلها فوه مقبلُ

ووجهُ الكلام: أن يقول: لسنا نحقن اللبن فنجعل الأقماع في الوطاب، لأنّ حولنا بيوت أفواههم مقبلةٌ علينا، يرجون خيرنا، فاضطرب نظمُ هذه الأبيات لعدوٍ لها عن وجه الاستعمال.

ومثله:

رأتْ أمّنا كيصا يلفّف وطبَه إلى الأُنس البادينَ فهو مزمّل
فقالت فلان قد أغاثَ عيالَه وأودَى عيالٌ آخرون فهزّلُوا
ألم يكُ ولدانٌ أعانوا ومجلسٌ قريب فيجرى إذ يكفّ ويجملُ

الكيص: الذي ينزل وحده. والوطب: وعاء اللبن. والأنس البادون: أهله لأنه يرده إليهم، فمنهم من يتذمم فيسقى لبنه ومنهم من يرده كيصا مثل فعل الذي ينزل وحده. مزمل: مبرد.

فهذه الأبيات سمجة الرّصف، لأنّ الفصيح إذا أراد أن يعبّر عن هذه المعاني، و لم يسامح نفسه عبّر عنها بخلاف ذلك.

وكان القوم لا ينتقد عليهم، فكانوا يسامحون أنفسهم في الإساءة.

فأما مثال الحسن الرّصف من الرسائل فكما كتب بعضهم: ولولا أنَّ أجود الكلام ما يدلّ قليله على كثيره، وتغني جملته عن تفصيله، لو سّعتُ نطاق القول فيما انطوى عليه من خلوص المودّة، وصفاء المحبة، فجال مجال الطّرف في ميدانه، وتصرّف تصرّف الرّوض في افتنانه، لكن البلاغة بالإيجاز أبلغ من البيان بالإطناب.

ومن تمام حسنِ الرصف أن يخرج الكلام مخرجاً يكون له فيه طلاوةٌ وماءٌ، وربما كان الكلام مستقيم الألفاظ، صحيح المعاني، ولا يكون له رونق ولا رواء، ولذلك قال الأصمعي لشعر لبيد: كأنه طيلسان طبراني، أي هو محكم الأصل ولا رونق له.

والكلام إذا خرج في غير تكلّف وكد وشدّة تفكر وتعمّل كان سلساً سهلاً، وكان له ماء ورواء ورقراق، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه، وذلك مثل قول الحطيئة:

همُ القومُ الذين إذا ألمّت ... ومن الأيام مظلمة أضاءوا

وقوله:

لهم في بني الحاجل أيد كأنها ... تساقطُ ماءِ المزنِ في البلدِ القفرِ

وكقول أشجع:

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ ... نشرتْ عليه جمالَها الأيَّامُ

وإذا سيوفك صافحتْ هامَ العدَا ... طارتْ لهنَّ عن الفراخِ الهامُ

برقتْ سماؤك للعدوِّ فأمطرتْ ... هاماً لها ظلُّ السيوفُ غمام

رأى الإمام وعزمهُ وحسَامه ... جندٌ وراءَ المسلمينَ قيامُ

وكقول النمر:

خاطرْ بنفسك كيْ تصيبَ غنيمةً ... إنّ الجلوسَ مع العيالِ قبيحُ

فالمالُ فيه تجلَّةٌ ومهابةٌ ... والفقرُ فيه مذلة وقبُوح

وكقول الآخر:

نامت جدودهم وأسقط نجمُهم ... والنجمُ يسقط والجدودُ تنامُ

وكقول الآخر:

لعن الإله تعلّة بن مسافرٍ لعناً يشنُّ عليه من قدَّام

ففي هذه الأبيات مع جودتها رونق ليس في غيرها مما يجرى مجراها في صحة المعنى وصواب اللفظ.

ومن الكلام الصحيح المعنى واللفظ، القليل الحلاوة العديم الطلاوة قول الشاعر:

أرى رجالاً بأدنى الدّين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدّونِ

فاستغنِ بالله عن دنيا الملوكِ كما اس ستغنى الملوك بدنيَاهم عن الدِّينِ

ومن الشعر المستحسن الرونق قول دعبل:

وإنَّ امرءاً أمستْ مساقطُ رحله بأسوانَ لم يتركْ له الحرصُ معلمَا

حللتُ محلاًّ يقصرُ البرق دونَهُ ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشَّما

الباب الخامس

ذكر الإيجاز والإطناب

فصلان

الفصل الأول من الباب الخامس في ذكر الإيجاز

قال أصحاب الإيجاز: الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضلٌ داخل في باب الهذر والخطل، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة.
وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا.
وقال بعضهم: الزيادة في الحدّ نقصان. وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإنَّ له إفهاما، وللإطلالة استبهاما. وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خيرٌ من كثير غير شاف. وقال آخر: إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلّف، ولا خير في شيء يأتي به التكلّف. وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز. قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول لرجل: كفاك الله ما أهمّك. فقال: هذه البلاغة. وسمع آخر يقول: عصمك الله من المكاره. فقال: هذه البلاغة. وقوله صلى الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم.
وقيل لبعضهم: لم لا تطيل الشّعر؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل ذلك لآخر، فقال: لستُ أبيعه مذارعة.
وقيل للفرزدق: ما صيّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ فقال: لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول.
وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق.
وقال أبو سفيان لابن الزبعري: قصرت في شعرك؟ فقال: حسبك من الشّعر غرّة لائحة، وسمةٌ واضحة.
وقيل للنابغة الذبياني: ألا تطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر؟ فقال: من انتحل انتقر.
وقيل لبعض المحدثين: مالك لا تزيد على أربعة واثنين؟ قال: هنّ بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع،

وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ وأوجز.

وقيل لابن حازم: ألا تطيل القصائد؟ فقال:

أَبَى لِي أن أطيلَ الشعرَ قصدِي ... إلى المعنى وعلمِي بالصَّوابِ

وإيجازي بمختصرٍ قريبٍ ... حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ

فأبعثهنَّ أربعةً وستّاً ... مثقفةً بألفاظٍ عذابِ

خوالدَ ما حدَا ليلٌ نهاراً ... وما حسنَ الصبّا بأخي الشّبابِ

وهنّ إذا وسمتُ بهنَّ قوماً ... كأطواقِ الحمائم في الرّقابِ

وكنَّ إذا أقمتُ مسافراتٍ ... تهادَاها الرّواةُ مع الرّكابِ

وقال أمي المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه: ما رأيت بليغاً قطّ إلاّ وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة.

وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيبٌ غير أنك كثير الكلام. قال: أفتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل صواباً. قال: فالزيادة من الخير خيرٌ. وليس كما قال، لأنّ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سبباً للملال، فذلك هو الهذر والإسهاب والخطل، وهو معيب عند كل لبيب.

وقال بعضهم: البلاغة بالإيجاز أنجعُ من البيان بالإطناب. وقال: المكثار كحاطب الليل. وقيل لبعضهم: من أبلغ الناس؟ قال: من حلّى المعنى المزبز باللفظ الوجيز، وطبّق المفصل قبل التحزيز.

المزيز: الفاضل، والمزّ: الفضل. وقوله: "وطّبق المفصل قبل التّحزيز". مأخوذ من كلام معاوية رضى الله عنه وهو قوله لعمرو بن العاص لما أقبل أبو موسى: يا عمرو، إنه قد ضمّ إليك رجلٌ طويل اللسان، قصير الرأي والعرفان، فأقلل الحزّ، وطبّق المفصل، ولا تلقَه بكلّ رأيك. فقال عمرو: أكثر من الطعام، وما بطن قومٌ إلا فقدوا بعض عقولهم.

والإيجاز: القصر والحذف.

فالقصر تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني، وهو قول الله عزّ وجل: "ولكم في القصاص حياةٌ".

ويتبيّن فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم: "القتل أنفى للقتل. فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرّغبة والرّهبة لحكم الله به ولإيجازه في العبارة. فإنّ الذي هو نظير قولهم: "القتلُ أنفى للقتل" إنما هو "القصاص حياة" وهذا أقلّ حروفاً من ذاك، ولبعده من الكلفة بالتكرير، وهو

قولهم: "القتل أنفى للقتل". ولفظ القرآن برئ من ذلك، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحسّ، لأنَّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة.

ومن القصر أيضاً قوله تعالى: "إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض" لا يوازي هذا الكلام في الاختصار شيء. وقوله تعالى "يا أيّها الناسُ إنّما بغيكُم على أنفسكمْ". وقوله عزّ اسمه: "ولا يحيقُ المكرُ السيئُ إلا بأهله" وإنما كان سوء عاقبة المكر والبغي راجعاً عليهم وحائقاً بهم، فجعله للبغي والمكر اللّذين هما من فعلهم إيجازاً واختصاراً. وقوله سبحانه: "أفنضرب عنكم الذّكر صفحاً". وقوله تعالى: "ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم". وقوله تعالى: "فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّاً" تحيّر في فصاحته جميع البلغاء، ولا يجوز أن يوجد مثله في كلام البشر. وقوله تعالى: "ولقد راودته عن نفسه فاستعصم". وقوله تعالى: "يا أرض ابلعي ماءكِ ويا سماءُ أقلِعي" الآية. تتضمّن مع الإيجاز والفصاحة دلائل القدرة. وقوله تعالى: "ألا له الخلق والأمر" كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء. وروى أن ابن عمر رحمه الله قرأها، فقال: من بقي له شيء فليطلبه. وقوله تعالى: "واختلاف ألسنتكم وألوانكُم" اختلاف اللغات والمناظر والهيئات. وقوله تعالى في صفة خمر أهل الجنّة: "لا يصدّعون عنها ولا ينزفون" انتظم قوله سبحانه ولا ينزفون عدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب. وقوله تعالى: "أولئك لهم الأمن" دخل تحت الأمن جميع المحبوبات، لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً أصلاً من الفقر والموت وزوال النّعمة والجور، وغير ذلك من أصناف المكاره، فلا ترى كلمة أجمع من هذه.

وقوله عز وجل: "والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس" جمع أنواع التّجارات، وصنوف المرافق التي لا يبلغها العدّ والإحصاء. ومثله قوله سبحانه: "ليشهدوا منافع لهم" جمع منافع الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء، لما في قوله فاصدع من الدلالة على التأثير، كتأثير الصدع.

وقوله تعالى: "وكلّ أمرٍ مستقر" ثلاث كلمات اشتملت على عواقب الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: "وله ما سكن في الليل والنهار" وإنما ذكر الساكن ولم يذكر المتحرّك، لأنَّ سكون الأجسام الثقيلة مثل الأرض والسماء في الهواء من غير علاقة ودعامة أعجب وأدلّ على قدرة مسكنها.

وقوله عز وجل: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" فجمع جميع مكارم الأخلاق بأسرها، لأنّ في العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الرّحم، وصون اللسان عن الكذب، وغضّ الطّرف عن الحرمات، والتبرّؤ من كل قبيح، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئاً من المنكر، وفي الإعراض عن الجاهلين الصّبر والحلم وتنزيه النفس عن

مقابلة السفيه بما يوتغ الدين ويسقط القدرة.

وقوله تعالى: "أخرج منها ماؤها ومرعاها"، فدلّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للناس، من العشب والشجر والحطب واللّباس والنّار والملح والماء، لأنّ النار من العيدان والملح من الماء، والشاهد على أنّه أراد ذلك كلّه قوله تعالى: "متاعاً لكم ولأنعامكم".

وقوله تعالى: "تسقَى بماءٍ واحدٍ ونفضّ بعضها على بعضٍ في الأكل"، فانظر هل يمكن أحداً من أصناف المتكلمين إيراد هذه المعاني في مثل هذا القدر من الألفاظ.

وقوله عز وجل: "ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" جمع الأشياء كلها حتى لا يشذّ منها شيء على وجه.

وقوله تعالى: "وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين" جمع فيه من نعم الجنة ما لا تحصره الأفهام، ولا تبلغه الأوهام.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدِّمن". وقوله صلى الله عليه وسلم: "حبّك الشيء يعمِي ويصم". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ من البيان لسحراً". وقوله عليه الصلاة والسلام: "مما ينبتُ الربيعُ ما يقتل حبطاً أو يلمّ". وقوله صلى الله عليه وسلم: "الصحة والفراغ نعمتان". وقوله عليه الصلاة والسلام: "نيّة المؤمن خيرٌ من عمله". وقوله صلى الله عليه وسلم: "ترك الشرّ صدقة". وقوله صلى الله عليه وسلم: "الحمى في أصول النخل".

فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحّة ذلك فحلها وابنها بناء آخر، فإنّك تجدها تجئ في أضعاف هذه الألفاظ.

قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أعطاك الله خيراً فليبين عليك، وابدأ بمن تعول وارتضح من الفضل، ولا تلم على الكفاف، ولا تعجز عن نفسك".

وقوله صلى الله عليه وسلم: فليبن عليك أي فليظهر أثره عليك بالصدقة والمعروف، ودلّ على ذلك بقوله: "وابدأ بمن تعول، وارتضخ من الفضل"، أي اكسر من مالك وأعط، واسم الشيء الرضيخة. "ولا تعجز عن نفسك" أي لا تجمع لغيرك وتبخل عن نفسك، فلا تقدّم خيراً.

وقول أعرابي: اللهم هب لي حقك، وأرض عن خلقك.

وقال آخر: أولئك قومٌ جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم، فالخيرُ بهم زائد، والمعروف لهم شاهد، أي يقون أعراضهم بأموالهم.

وقيل لأعرابي يسوق مالاً كثيراً: لمن هذا المال؟ فقال: لله في يدي.

وقال أعرابي لرجل يمدحه: إنه ليعطي عطاء من يعلم أنّ الله مادته.

وقول آخر: أما بعد فعظ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك، واستحى من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك.

وقال آخر: إن شككت فاسأل قلبك عن قلبي.

ومما يدخل في هذا الباب المساواة، وهو أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله: كأنّ ألفاظه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض.

فما في القرآن من ذلك قوله عزّ وجل: "حورٌ مقصوراتٌ في الخيام". وقوله تعالى: "ودّوا لو تدهن فيدهنون" ومثله كثير.

ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرما". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إياك والمشارّة فإنها تميت الغرّة وتحي العرّة".

ومن ألفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه أكثر من ألفاظه، وإنما يكره تميزيها كراهة الإطالة.

ومن نثر الكتّاب قول بعضهم: سألت عن خبري وأنا في عافية لا عيب فيها إلا فقدك، ونعمة لا مزيد فيها إلا بك.

وقوله: علمتني نبوتك سلوتك، وأسلمني بأسى منك إلى الصّبر عنك. وقوله: فحفظ الله النعمة عليك وفيك، وتولّى إصلاحك والإصلاح لك، وأجزل من الخير حظّك والحظّ منك، ومنّ عليك وعلينا بك.

وقال آخر: يئست من صلاحك بي، وأخاف فسادي بك، وقد أطنب في ذم الحمار من شبّهك به.

ومن المنظوم قول طرفة:

ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ

وقول الآخر:

تهدى الأمورُ بأهلِ الرّأي ما صلحتْ ... فإن تأبّت فبالأشرار تنقادُ

وقول الآخر:

فأمّا الّذي يحصيهم فمكثّر ... وأمّا الذي يطريهم فمقلّلُ

وقول الآخر:

أهابُكِ إجلالاً وما بكِ قدرةٌ ... عليَّ ولكن ملءُ عينٍ حبيبُها

وما هجرتْكِ النّفسُ أنكِ عندها ... قليلٌ، ولكن قلَّ منكِ نصيبُها

وقول الآخر:

أصدّ بأيدي العيس عن قصد أهلِهَا وقلبِي إليها بالمودّة قاصدُ

وقول الآخر:

يقولُ أناسٌ لا يضيركَ فقدُها بلى كل ما شفّ النفوس يضيرها

وقال الآخر:

يطولُ اليومُ لا ألقاكَ فيه وحولٌ نلتَقِي فيه قصير

وقالوا :لا يضيرُكَ نأيُ شهرٍ فقلتُ لصاحبيّ: فمن يضير

قوله: لصاحبي يكاد يكون فضلاً.

وأما الحذف فعلى وجوه، منها أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له، كقوله الله تعالى: "واسأل القرية"، أي أهلها.

وقوله تعالى: "وأشربوا في قلبوهم العجل"، أي حبّه وقوله عز وجل: "الحجُّ أشهرٌ معلومات"، أي وقت الحج وقوله تعالى: "بل مكرُ الليلِ والنهار"، أي مكركم فيهما.

وقال المتنخل الهذلي:

يمشِّي بيننا حانوتُ خمرٍ من الخرس والصّراصرة القطاطِ

يعني صاحب حانوت فأقام الحانوت مقامه.

وقال الشاعر:

لهمْ مجلسٌ صهبُ السّبال أذلَّةٌ سواسيةٌ أحرارُها وعبيدُها

يعني أهل المجلس.

ومنها أن يوقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمر للآخر فعله، وهو قوله تعالى: "فأجمعوا أمركم وشركاءكم" معناه: وادعوا شركاءكم، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

وقال الشاعر:

تراه كأنَّ اللهَ يجدعُ أنفَه وعينيه إنْ مولاهُ ثابَ له وفرُ

أي ويفقأ عينيه.

وقول الآخر:

إذا ما الغانياتُ برزنَ يوماً وزجّجنَ الحواجبَ والعيونَا

العيون لا تزجّج، وإنما أراد وكحّلنَ العيون.

ومنها أن يأتي الكلامُ على أنّ له جوابا فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب، كقوله عزّ وجلّ: "ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبالُ أو قطّعتْ به الأرض" أو كلّمَ به الموتى بل للهِ الأمرُ جميعاً" أراد لكان هذا القرآن، فحذف.

وقوله تعالى: "ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه وأنّ الله رؤوفٌ رحيم"، أراد لعذّبكم.

وقال الشاعر:

فأقسمُ لو شيءٌ أتانا رسولُه سواكَ ولكن لم نجد لك مدفعَا

أي لرددناه.

وقوله تعالى: "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمّة قائمة"، فذكر أمةً واحدة و لم يذكر بعدها أخرى، وسواء يأتي من اثنين فما زاد.

وكذلك قوله تعالى: "أمّنْ هو قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً"، و لم يذكر خلافه، لأنَّ في قوله تعالى: "قل هل يستوِي الّذين يعلمون والذين لا يعلمون" دليلاً على ما أراد.

وقال الشاعر:

أراد فما أدرى أهمٌّ هممتُه وذوالهمّ قدماً خاشعٌ متضائلُ

و لم يأت بالآخر.

وربما حذفوا الكلمة والكلمتين، كقوله تعالى: "فأما الذين اسودّتْ وجوهُهم أكفرتُم". وقوله تعالى: "وقضى ربك ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه وبالوالدين إحسانا"، أي ووصّى بالوالدين إحسانا.

وقال النمر:

فإنَّ المنيّة من يخشَها فسوفَ تصادفَه أينما

أي أينما ذهب وقال ذو الرمة:

لعرفانها والعهدُ ناءٍ وقدْ بدا لذي نهية أن لا إلى أمّ سالمِ

المعنى أن لا سبيل إليها ولا إلى لقائها، فاكتفى بالإشارة إلى المعنى، لأنه قد عرف ما أراد، كما قال النمر بن تولب:

فلا وأبي الناس لا يعلمو ن لا الخير خير ولا الشر شر

أي ليسا بدائمين لأحد. والنهية: العقل، والجمع نهى.

وقوله تعالى: "في يوم عاصف"، أي في يوم ذي عاصف. وقوله تعالى: "وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء"، أي ولا من في السماء بمعجز.

ومثل قول الشنفري:

لا تدفنونِي إنّ دفنى محرَّمُ   عليكم ولكن خامرِي أمَّ عامرِ

أي ولكن دعوني للتي يقال لها: خامري أمّ عامر إذا صيدت، يعني الضبع.

ومنها القسم بلا جواب، كقوله تعالى: "ق والقرآن المجيد بل عجبوا"، معناه والله أعلم: ق والقرآن المجيد لتبعثنّ، والشاهد ما جاء بعده من ذكر البعث في قوله: "أئذا متنا وكنا ترابا".

ومن الحذف قوله تعالى: "إلاَّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغَ فاهُ"، أي كباسط كفّيه إلى الماء ليقبض عليه.

وقال الشاعر:

إني وإيّاكم وشوقاً إليكم   كقابض ماءٍ لم تسقْهُ أناملُه

ومن الحذفِ إسقاط لا من الكلام في قوله تعالى: "يبين الله لكم أن تضلّوا"، أي "لأن لا تضلّوا". وقوله تعالى: "أن تحبط أعمالكم"، أي لا تحبط أعمالكم.

وقال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرحُ قاعداً   ولو قطعوا رأسي لديك وأوصَالِي

أي لا أبرح قاعدا.

وقال آخر:

فلا وأبي دهمانَ زالتْ عزيزةً   على قومِها ما فتّل الزّند قادح

ومن الحذف أن تضمر غير مذكور، كقوله تعالى: "حتى توارت بالحجاب" يعني الشمس بدأت في المغيب. وقوله تعالى: "ما ترك على ظهرها من دابّةٍ" يعني على ظهر الأرض. وقوله تعالى: "فأثرن به نقعاً"، أي بالوادي. وقوله تعالى: "والنهار إذا جلاَّها" يعني الدنيا أو الأرض. "ولا يخاف عقباها"، يعني عقبى هذه الفعلة.

وقول لبيد:

حتى إذا ألقتْ يداً في كافرٍ   وأجنَّ عوراتِ الثُّغُور ظلامُها

يعني المس تبدا في المغيب.

وضربٌ منه آخر قوله تعالى: "واختار موسى قومه سبعين رجلا"، أي من قومه.

وقال العجاج:

تحت الذي اختار له الله الشّجر

أي من الشجر وضربٌ منه ما قال تعالى في أول سورة الرحمن: "فبأيّ آلاء ربِّكما تكذِّبان" وذكر قبل ذلك الإنسان، و لم يذكر الجانّ ثم ذكره.

ومثله قول المثقب:

فما أدري إذا يمّمتُ أرضاً   أريد الخير أيّهما يليني

أألخيرُ الذي أنا أبتغِيه   أم الشر الذي هو يبتغِيني

فكنى عن الشر قبل ذكره، ثم ذكره.

ومن الحذف قوله تعالى: "يشترون الضّلالة ويريدون أن تضلّوا السّبيل"، أراد يشترون الضلالة بالهدى. وقوله تعالى: "وتركنا عليه في الآخرين"، أي أبقينا له ذكراً حسناً في الباقين فحذف الذكر. ومن ذلك قوله تعالى: "فبعث الله غراباً يبحثُ في الأرضِ"، أي يبحث التّراب على غراب آخر ليواريَه، فيرى هو كيف يواري سوأة أخيه. وقوله تعالى: "فترى الّين في قلوهم مرضٌ يسارعون فيهم"، أي في مرضاهم.

ومن الحذف قول صعصعة وقد سئل عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فقال: لم يقل فيه مستزيد: لو أنه، ولا مستقر: إنه، جمع الحلم، والعلم، والسلم، والقرابة القريبة، والهجرة القديمة، والبصر بالأحكام، والبلاء العظيم في الإسلام.

وقال علي رضي الله عنه: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلّى أبو بكر، وثلث عمر، وخبطتنا فتنة فما شاء الله.

وقال القيسي: مازلت أمتطي النهار إليك، وأستدل لفضلك عليك، حتى إذا جنّني الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر أملي، والاجتهادُ عاذرٌ، وإذا بلغتك فقط.

فقوله: فقط من أحسن حذف وأجود إشارة.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا إبراهيم بن الزغل العبشمي، قال: حدثنا المبرد أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالداً، فقال: يا أخي، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك. فقال خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين، وولّي عهد المسلمين فقال: إنّ خيلي مرّت به فعبث ها وأصغرني

فيها. فقال: أنا أكفيك، فدخل على عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ الوليد ابن أمير المؤمنين مرّت به خيل ابن عمّه عبد الله بن يزيد، فعبث بها وأصغره فيها. وعبد الملك مطرقٌ، ثم رفع رأسه وقال: "إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة". فقال خالد: "وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنَا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا". فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلّمني، لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لحناً؟ فقال خالد: أفعلى الوليد تعوّل؟ فقال عبد الملك: إن كان الوليدُ يلحن فإن أخاه خالد. فقال له الوليد: اسكت، فوالله ما تعدّ في العير ولا في النّفير. فقال اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل عليه فقال: ويحك فمن للعير والنّفير غيري؟ جدّي أبو سفيان صاحب العير، وجدّي عتبة بن ربيعة صاحب النّفير، ولكن لو قلت غنيمات وحبيلات الطّائف ورحم الله عثمان قلنا صدقت.

وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم طرد الحكم بن أبي العاص فصار إلى الطائف يرعى غنيمة ويأوى إلى حبلة وهي الكرمة ورحم الله عثمان، أي لردّه إياه. فهذا حذفٌ بديع.

وكذلك قول عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإنّ أخاه سليمان. وقول خالد: إن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد، حذفٌ حسنٌ أيضاً. ومثل هذا كثيرٌ في كلامهم، ولا وجه لاستيعابه.

ومن الحذف الردئ قول الحارث بن حلزة:

والعيشُ خيرٌ في ظلا ... ل النوكِ ممّن عاشَ كدّا

وإنما أراد: والعيش الناعم خيرٌ في ظلال النوك من العيش الشاقّ في ظلال العقل، وليس يدلّ لحن كلامه على هذا، فهو من الإيجاز المقصر.

ومن الحذف الردئ أيضاً قول الآخر:

أعاذِل عاجلُ ما أشتهي ... أحبُّ من الأكثرِ الرائثِ

يعني عاجل ما أشتهي مع القلّة أحبّ إلّي من رائثه مع الكثرة.

ومثله قول عروة بن الورد:

عجبت لهم إذْ يقتلونَ نفوسَهم ... ومقتلُهم عندَ الوغَى كانَ أعذرَا

يعني إذ يقتلون نفوسهم في السلم.

ومثله من نثر الكتّاب ما كتب بعضهم: فإنّ المعروف إذا زجا كان أفضل منه إذا توافر وأبطأ. وتمام المعنى أن يقول: "إذا قل وزجا". فترك ما به يتمّ المعنى، وهو ذكر القلّة.

وكتب بعضهم: فما زال حتى أتلف ماله، وأهلك رجاله، وقد كان ذلك في الجهاد والإبلاء أحق بأهل الحزم وأولى. والوجه أن يقول: فإن إهلاك المال والرجال في الجهاد والإبلاء أفضل من فعل ذلك في

الموادعة.

ومثل هذا مقصر غير بالغ مبلغ ما تقدم في هذا الباب من الحذف الجيد.

وأقبح من هذا كله قول الآخر:

لا يرمضون إذا جرَّتْ مشافرُهم ... ولا ترى مثلهُم في الطَّعنِ ميَّالا

ويفشَلُونَ إذا نادى ربيئهم ... ألا اركبنَّ فقد آنستُ أبطالا

أراد: ولا يفشلون فتركه، فصار المعنى كأنَّه ذمّ.

وقول المخبل في الزّبرقان:

وأبوكَ بدرٌ كان ينتهسُ الحصَى ... وأبى الجواد ربيعةُ بن قبالِ

فقال الزبرقان: لا بأس، شيخان اشتركا في صنعة.

الفصل الثاني من الباب الخامس في ذكر الإطناب

قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفاء لا يقع إلاّ بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطةً بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامّة إلاّ بالاستقصاء، والإيجاز للخواصّ، والإطناب مشتركٌ فيه الخاصة والعامة، والغبي والفطن، والريض والمريّاض، ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا.

والقول القصد أنّ الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه، ولكلّ واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذل عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ.

كما روى عن جعفر بن يحيى أنه قال مع عجبه بالإيجاز: متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيّاً. ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيراً.

وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين أن يكتبا كتاباً في معنى واحد، فأطال أحدهما، واختصر الآخر، فقال للمختصر وقد نظر في كتابه: ما أرى موضع مزيد. وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان.

وقال غيره: البلاغة الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. ولا شكّ في أنّ الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة، وتفخيم النّعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنّهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب، ألا ترى أنّ كتاب

المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة: الحمد لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنعمته، وقضى ألاّ ينقطع المزيد من فضله، حتى ينقطع الشكر من خلقه، ثم إنّا كنا وعدوّنا على حالتين مختلفتين، نرى فيهم ما يسرّنا أكثر مما يسوءنا، ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم. فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم، ينصرنا الله ويخذلهم، ويمحّصنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله، فقطع دابر القوم الذي ظلموا والحمد لله ربّ العالمين.

وإنما حسن في موضعه مع الغرض الذي كان لكاتبه فيه، فأما إن كتب مثله في فتح يوازي ذلك الفتح في جلالة القدر وعلوّ الخطر، وقد تطلّعت أنفس الخاصة والعامة إليه وتصرّفت فيه ظنونهم، فيورد عليهم مثل هذا القدر من الكلام في أقبح صورة وأسمجها وأشوهها وأهجنها كان حقيقاً أن يتعجّب منه.

وكذلك لو كتب عن السلطان في العدل والتوبيخ وما تجب القلوب منه من التغيير والتفكير بمثل ما روى أن الوليد بن يزيد كتب إلى والي العراقين حين عتب عليه: إني أراك تقدّم في الطاعة رجلاً وتؤخّر أخرى، فاعتمد على أيتهما شئت، والسلام.

وبمثل ما كتب جعفر بن يحيى إلى عامل شكى: قد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإمّا عدلت، وإما اعتزلت.

ومثل هذا ما كتب به بعض الكتّاب إلى عامله على الخراج، وقد وقع عليه تحاملٌ على الرعيّة: إنّ الخراج عمود الملك، وما استغزر بمثل العدل، ولا ستترر بمثل الجور.

فهذا الكلام في غاية الجودة والوجازة، ولكن لا يصلح من مثل صاحبه وبالإضافة إلى حاله، فالإطناب بلاغة، والتطويل عيٌّ، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب. والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة.

وقال الخليل: يختصر الكتاب ليحفظ، ويبسط ليفهم. وقيل لأبي عمرو ابن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم، كانت تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها.

والإطناب إذا لم يكن منه بدٌّ إيجاز، وهو في المواعظ خاصّة محمود، كما أن الإيجاز في الإفهام محمود ممدوح.

والموعظة كقول الله تعالى: "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمنُ مكرَ اللهِ إلى القومُ الخاسرون". فتكرير ما كرّر من الألفاظ ها هنا في غاية حسن الموقع.

وقيل لبعضهم: متى يحتاج إلى الإكثار؟ قال: إذا عظم الخطب. وأنشد:

صموتٌ إذا ما الصّمتُ زيَّن أهلهُ   وفتّاق أبكارِ الكلامِ المحبّرِ

وقال آخر:

يرمونَ بالخطبِ الطّوالِ وتارةً   وحيَ الملاحظِ خشيةَ الرُّقباءِ

وقال بعضهم:

إذا ما ابتدى خاطباً لم يقلْ   له أطِلِ القولَ أو قصّرِ

طبيبٌ بداءِ فنونِ الكلا   مِ لم يعي يوماً ولم يهذِرِ

فإنْ هو أطنبَ في خطبةٍ   قضى للمطيلِ على المقصرِ

وإنْ هوَ أوجزَ في خطبةٍ   قضى للمقلِّ على المكثرِ

ووجدنا الناس إذا خطبوا في الصّلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشّعر بين السّماطين في مديح الملوك أطنبوا، والإطالة والإطناب في هذه المواضع إيجاز.

وقيل لقيس بن خارجة: ما عندك في حمالات داحس؟ قال: عندي قرا كلّ نازل، ورضا كلّ ساخط، وخطبة من لدن مطلع الشّمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتّواصل وأنهى عن التقاطع. فقيل لأبي يعقوب الخريمي: هلا اكتفى بقوله: "آمر فيها بالتواصل" عن قوله: "وأنهى عن التقاطع"؟ فقال: أو ما علمت أنّ الكناية والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف.

وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العربَ والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا.

فمما خاطب به أهل مكّة قوله سبحانه: "إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا، ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهُم الذُّبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعفَ الطالبُ والمطلوب". وقوله تعالى: "إذاً لذهبَ كلُّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض". وقوله تعالى: "أو ألقى السَّمع وهو شهيد"، في أشباه لهذا كثيرة.

وقل ما تجد قصةً لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكرّرة في مواضع معادة، لبعد فهمهم كان، وتأخّر معرفتهم.

وكلام الفصحاء إنما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسّط، ليستدلّ بالقصد على العالي، وليخرج السامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه وتتوفّر رغبته، فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه، حتى استعملوا التكرار ليتوكّد القول للسامع.

وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر منه شيءٌ كثير، فمن ذلك قوله تعالى: "كلاّ سوف تعلمون، ثم كلاّ

سوف تعلمون". وقوله تعالى: "فإنّ مع العسر يسراً إنّ مع العسرِ يسرا". فيكون للتوكيد كما يقول القائل: ارم ارم، واعجل اعجل. وقد قال الشاعر:

كم نعمةٍ كانتْ لكمْ   كمْ كمْ وكم كانتْ وكمْ

وقال آخر:

هلاَّ سألت جموع كندَ   ة يومَ ولّوا أينَ أينَا

وإنما جاءوا بالصّفة وأرادوا توكيدها فكرهوا إعادتها ثانية، فغيّروا منها حرفا، ثم أتبعوها الأولى، كقولهم: عطشان نطشان كرهوا أن يقولوا: عطشان عطشان، فأبدلوا من العين نونا. وكذلك قالوا: حسن بسن. وشيطان ليطان، في أشباه له كثيرة.

وقد كّرر الله عزّ وجل في سورة الرحمن قوله: "فبأيِّ آلاءِ ربّكما تكذّبان"، وذلك أنه عدَّد فيها نعماءه وأذكر عباده آلاءه، ونبّههم على قدرها، وقدرته عليها، ولطفه فيها، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها.

وقد جاء مثل ذلك عن أهل الجاهلي، قال مهلهل:

على أن ليسً عدلاً من كليبِ

فكرّرها في أكثر من عشرين بيتاً.

وهكذا قول الحارث بن عبّاد:

قرّبا مربط النعامة منّي

كرّرها أكثر من ذلك، هذا لّما كانت الحاجةُ إلى تكريرها ماسّة، والضرورة إليه داعية، لعظم الخطب، وشدّة موقع الفجيعة، فهذا يدلّك على أنّ الإطنابَ في موضعه عندهم مستحسن، كما أنَّ الإيجاز في مكانه مستحبّ.

ولا بدَّ للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من الإطناب يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين، ولا يعاب ذلك منه. وذلك مثل أن يكتب: عظمت نعمنا عليه، وتظاهر إحساننا لديه. فيكون الفصل الأخير داخلا في معناه في الفصل الأول، وهو مستحن لا يعيبه أحد.

ولما أحيط بمروان قال خادمه باسل: من أغفل القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفّي حتى يظهر أصابه مثل هذا.

وهذا كلام في غاية الحسن، وإن كان معنى الفصلين الأخيرين داخلا في الفصل الأول.

وهكذا قول الشاعر:

إن شرخَ الشّبابِ والشعر الأسْ ودِ ما لم يعاصَ كانَ جنُونا

فالشعر الأسود داخل في شرخ الشباب.

وكذلك قول أبي تمام:

ربّ خفضٍ تحتَ السرَى وغناءٍ من عناءٍ ونضرةٍ من شحوبِ

الغناء داخلٌ في الخفض، والعناءُ داخلٌ في السّرى فاعلم.

وممّا هو أجلّ من هذا كلّه قول الله عز وجل: "إنّ الله يأمر بالعدلِ والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي"، فالإحسان داخلٌ في العدل، وإيتاء ذي القربى داخلٌ في الإحسان، والفحشاء داخلٌ في المنكر، والبغي داخلٌ في الفحش.

وهذا يدلّ على أنّ أعظم مدار البلاغة على تحسين اللّفظ، لأنّ المعاني إذا دخل بعضها في بعض هذا الدخول، وكانت الألفاظ مختارة حسن الكلام، وإذا كانت مرتبة حسنة المعارض سيئة كان الكلام مردوداً. فاعتمد على ما مثّلته لك، وقس عليه إن شاء الله.

الباب السادس

حسن الأخذ وحل المنظوم

فصلان

الفصل الأول من الباب السادس في حسن الأخذ

ليس لأحد من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني ممّن تقدّمهم والصعبّ على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، وبزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بما ممّن سبق إليها، ولولا أنّ القائل يؤدّى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطقُ الطّفلُ بعد استماعه من البالغين.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه: لولا أن الكلام يعاد لنفد. وقال بعضهم: كل شيء ثنيته قصر إلاّ الكلام فإنّك إذا ثنيته طال. على أنّ المعاني مشتركة بين العقلاء، فربما وقع المعنى الجيّد للسوقيّ والنبطي والزّنجي، وإنما تتفاضلُ الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها. وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدّم من غير أن يلمَّ به، ولكن كما وقع للأوّل وقع للآخر. وهذا أمرٌ عرفته من نفسى، فلستُ أمتري فيه، وذلك أنّي عملت شيئاً في صفة النساء:

سفرنَ بدوراً وانتقبنَ أهلّةً

وظننتُ أني سبقتُ إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت، إلى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين، فكثر تعجّبي، وعزمتُ على ألا أحكم على المتأخّر بالسّرق من المتقدّم حكما حتماً.

وسمعت ما قيل: إنّ من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخا، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدّمه.

وقالوا: إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه، ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب.

على أنّ ابتكار المعنى والسّبق إليه ليس هو فضيلة يرجع إلى المعنى، وإنما هو فضيلةٌ ترجع إلى الذي ابتكره وسبق إليه، فالمعنى الجيّد جيّدٌ وإن كان مسبوقاً إليه، والوسط وسط، والردئ ردئ، وإن لم يكونا مسبوقاً إليهما.

وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد فيه عيبٌ إلاّ إذا أخذه بلفظه كلّه، أو أخذه فأفسده، وقصّر فيه عمّن تقدمه، وربما أخذ الشاعر القول المشهور و لم يبال، كما فعل النابغة فإنه أخذ قول وهب بن الحارث ابن زهرة:

تبدو كواكِبه والشمسُ طالعةِ   تجري على الكاسِ منه الصّابُ والمقرُ

وقال النابغة:

تبدُو كواكبُه والشمسُ طالعةِ   لا النّور نورٌ ولا الإظلام إظلامُ

وأخذ قول رجل من كندة في عمرو بن هند:

هو الشمس وافتْ يومَ دجنٍ فأفضلتْ   على كلِّ ضوءٍ والملوك كواكبُ

فقال:

بأنكَ شمسٌ والملوكُ كواكب   إذا طلعتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

وسنشبع القول في هذا الباب.

والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى يأخذه في سترة فيحكم له بالسّبق إليه أكثر من يمرّ به.

وأحد أسباب إخفاء السّرق أن يأخذ معنى من نظم فيورده في نثر، أو من نثرٍ فيورده في نظم، أو ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح، أو في مديح فينقله إلى وصف، إلا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرّز، والكامل المقدّم، فممّن أخفى دبيبه إلى المعنى وستره غاية السّتر أبو نواس في قوله:

أعطتكَ ريحانَهَا العقارُ   وحانَ من ليلكَ انسفارُ

إن كان قد أخذه من قول الأعشى، على ما حكوا، فقد أخفاه غاية الإخفاء، وقول الأعشى:

وسبيئةٍ ممَّا تعتِّقُ بابل   كدم الذبيح سلبتُها جربالهَا

سئل الأعشى عن سلبتها جريالها. فقال: شربتها حمراء، وبلها بيضاء. فبقي حسن لونها في بدني. ومعنى" أعطتك ريحانها العقار"، أي شربتُها فانتقل طيبها إليك.

وهكذا قوله:

لا ينزلُ الليلُ حيثُ حلّتْ   فدخرُ شرّابِها نهارُ

من قول قيس بن الخطيم:

قضى الله حين صورّهَا ال   خالق ألاّ تكنّها السّدفُ

وهذا المعنى منقولٌ من الغزل إلى صفة الخمر فهو خفيّ.

ومن هذا ما نقله من قول أوس بن حجر في صفة الفرس، فجعله في صفة امرأة:

فجرّدها صفراء لا الطّول عابَها ... ولا قصرٌ أزرَى بها فتعطّلا

وقول أبي نواس:

فوقَ القصيرةِ والطويلة فوقَها ... دونَ السمينِ ودونَهَا المهزُولُ

وإن كان أخذه من قول ابن الأحمر:

نفوتُ القصارَ والطّوالَ تفتنَهَا ... فمن يرها لم ينسَها ما تكلَّما

أو من قول ابن عجلان النهدي:

ومخملةٍ باللّحمِ من دون ثوبِها ... تطولُ القصارَ والطوال تطولُها

فقد أخذه بلفظه، وأحد هذين أخذه من قول أوس، والإحسان فيه له.

ومما أخذه ونقله من معنى إلى معنى قوله:

كميتٌ جسمُها معنا ... وريّاها على سفرِ

وممن أخفى الأخذ أبو تمام في قوله:

جمعتَ عرى أعمالها بعد فرقةٍ ... إليكَ كما ضمّ الأنابيبَ عاملُ

قالوا: هو من قول الحبال الربعي:

أولئك إخوانُ الصّفاءِ رزيتهمُ ... فما الكفُّ إلاَّ إصبعٌ ثمَّ إصبعُ

وهكذا قوله وقد نقله من معنى إلى آخر:

مكارمُ لجّتْ في علوٍّ كأنَّما ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكبِ

قالوا هو من قول الأخطل:

عروق لحقِّ السائلينَ كأنَّه ... بعقرِ التالي طالبٌ بذنوبِ

وهكذا قول بشار:

يا أطيبَ الناس ريقاً غير مختبرٍ ... إلاَّ شهادة أطراف المساويكِ

من قول سليك:

وتبسمُ عن ألمى اللّثاتِ مفلَّجٍ ... خليق الثنايا بالعذوبةِ والبردِ

ومن قول الآخر:

وما ذقتُه إلا بعيني تفرُّساً ... كما شيم في أعلى السّحابة بارقُ

ومما أخذه وزاد فيه عن الأول قوله:

أفناهم الصّبرُ إذ أبقاكمُ الجزعُ

من قول السموءل:

يقرِّبُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا ... وتكرَهُه آجالُهُمْ فتطولُ

أورده أبو تمام في نصف بيت واستوفى التطبيق.

ومن هذا الضرب قوله:

علّمني جودكَ السماح فَما ... أبقيتَ شيئاً لديَّ من صلتكْ

من قول ابن الخياط:

لمستُ بكفيِّ كفّه أبتغي الغنَى ... ولم أدرِ أنَّ الجودَ منْ كفّه يعدِي

فلا أنا منهُ ما أفاد ذوو الغنَى ... أفدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

وممن نقل المعنى من صفة إلى أخرى البحتري فإنه قال في المتوكل:

ولوْ أنّ مشتاقاً تكلَّفَ غيرما ... في وسعِهِ لسعَى إليكَ المنبرُ

أخذه من قولِ العرجى في صفة نساء:

لو كان حيّاً قبلهُنّ ظعائنا ... حيّاً الحطيمُ وجوههن وزمزمُ

إلاَّ أنه غير خاف.

وممن أخذ المعنى فزادَ على السابق إليه زيادةً حسنة أبو نواس في قوله:

يبكي فيذرِى الدّرّ من نرجسٍ ... ويلطمُ الوردَ بعنَّابِ

أخذه من قول الأسود بن يعفر:

يسعَى بها ذو تومتينِ كأنّما ... قنأتْ أناملُه منَ الفرصادِ

وأخذ بعض المتأخرين بيتَ أبي نواس، فزاد عليه زيادةً عجيبة، فقال:

وأسبلتْ لؤلؤاً من نرجسٍ فسقتْ ... ورداً وعضّتْ على العنّاب بالبردِ

فجاء بما لا يقدرُ أحدٌ أن يزيد عليه.

ومن ذلك أيضاً قوله وقد زاد فيه على الأوّل:

فتمشَّتْ في مفاصلهم ... كتمشّي البرءِ في السّقمِ

أخذه من قول مسلم:

تجرِي محبّتها في قلبِ عاشِقِها ... مجرى المعافاة في أعضاءِ منتكِس

وجميع ذلك مأخوذ من قول بعض ملوك اليمن:

منعَ البقاءَ تقلُّبُ الشّمسِ ... وطلوعُها من حيثُ لا تمسى

يجرِي على كبد السَّماء كما ... يجري حمامُ الموتِ في النّفسِ

ومن ذلك قول مسلم:

أحبّ الريحَ ما هبَّتْ شمالاً ... وأحسُدُها إذا هبَّتْ جنُوبا

راحٌ إذا ما الشيخُ والى بها ... خمساً تردَّى برداءِ الغلامْ

أحسن رصفاً من قول حسان رضى الله عنه:

إنّ شرخَ الشّبابِ والشّعر الأسْ ... ودَ ما لم يعاصَ كانَ جنونَا

وقول أبي تمام:

نقّلْ فؤادك حيثُ شئتَ من الهوَى ... ما الحبُّ إلاَّ للحبيبِ الأوّلِ

أبينُ وأدخل في الأمثال من قول كثير:

إذا ما أرادتْ خلَّةٌ أن تزيلنَا ... أبينَا وقلنَا الحاجبيَّةُ أوّلُ

وقد زاد أبو تمام أيضاً في قوله:

وأنجدتُم من بعدِ إتهامِ داركُم ... فيادمعُ أنجدني على ساكِني نجدِ

على الأعرابي في قوله:

ومستنجدٍ للحزنِ دمعاً كأنَّهُ ... على الخدِّ ممَّا ليسَ يرقأ حائرُ

بقوله: "أنجدني على ساكني نجد"، وقد زاد أيضاً في قوله:

وإنْ يبنِ حياطناً عليه فإنَّما ... أولئك عقّا لأنهُ معاقلُهْ

على زهير في قوله: والسيوف معاقله لما جاء به مت التّجنيس في قوله: عقّالاته، ومعاقله. على أنَّ قوله زهير في معناه لا يلحقه لاحق، وإنما زاد عليه أبو تمام في اللفظ.

وأخذ قول أبي تمام إبراهيم بن العباس، فقال: وأصبح ما كان يحرزهم يبرزهم، وما كان يعقلهم يقتلهم. ونقله إلى موضع آخر، فقال: واستنزلوه من معقل إلى عقال، وبدّلوه آجالا من آمال. وقوله: "آجالا من آمال" مأخوذ من قول مسلم:

موفٍ على مهجٍ في يوم ذي رهجٍ كأنَّهُ أجلٌ يسعَى إلى أملِ
ينالُ بالرّفقِ ما يعيا الرّجالُ بهِ كالموتِ مستعجلاً يأتِي على مهلِ

وقد أخذ أيضاً قول أبي دهبل:

ما زلتَ في العفو للذّنُوب وإط لاقِ لعانٍ بجرمِه غلقِ
حتَّى تمنّى البراةُ أنَّهمُ عندك أسرى في القدّ والحلقِ

فجاء به في بيت واحد وهو قوله:

وتكفّل الأيتامَ عن آبائهمْ حتّى وددنا أنّنا أيتامُ

وسبق أيضاً من تقدمه في قوله حتى صار لا يلحقه فيه أحدٌ بعده:

وركبٍ كأطرافِ الأسنَّةِ عرَّسُوا على مثلِها واللّيل تسطو غياهبُه
لأمرٍ عليهم أنْ تيمَّ صدوره وليس عليهم أن تتمَّ عواقبهْ

سبقاً بيناً بهذه المعاني، وإنما أخذ البيت الأول من قول البعيث:

أطافتْ بركبٍ كالأسنّةِ هجَّد بخاشعةِ الأصواءِ غيرِ صحونُها

والبيت الثاني من بعض الأعراب:

غلامُ وغىً تقحّمَها فأبلَى فخان بلاءهُ الزّمنُ الخؤونُ
وكان على الفتى الإقدامُ فيها وليس عليه ما جنتِ المنونُ

وبين القولين بونٌ بعيد.

وزاد أيضاً في قوله:

إذا شبَّ ناراً أقعدتْ كلَّ قائمٍ وقامَ لها من خوفهِ كلُّ قاعدِ

على الآخر في قوله:

أتاني وأهلِي بالمدينةِ وقعة لآلِ تميمٍ أقعدتْ كلَّ قائم

فقول أبي تمام: "وقام لها من خوفه كلّ قاعد" زيادة حسنة.

وكذلك قوله في ابني عبد الله بن طاهر:

نجمانِ شاءَ اللهُ ألاّ يطلعَا إلاَّ ارتداد الطّرفِ حتّى يأفلا
إنَّ الفجيعةَ بالرّياضِ نواضراً لأجلُّ منها بالرَّياضِ ذوابلا
لهفي على تلك المخابل فيهما لو أمهلتْ حتّى تكونَ شمائلا

لو ينسآنِ لكانَ هذا غارباً   للمكرماتِ وكان هذا كاهلا

إنَّ الهلالَ إذا رأيتَ نموَّهُ   أيقنتَ أنْ سيكونُ بدراً كامِلا

أحسنُ وأجود مما أخذ منه هذه المعاني وهو قول الفرزدق:

وجفنُ سلاحٍ قدْ رزيت فلم أنحْ   عليه ولم أتعبْ عليه البوَاكِيَا

وفي جوفِه من دارمٍ ذو حفيظةٍ   لو أنَّ المنايا أنسأتْهُ لياليا

لا يقع بيتُ الفرزدق مع أبيات أبي تمام موقعا.

وقد أجاد أيضاً في قوله:

وقد علمَ القرنُ المساميكَ أنّه   سيغرقُ في البحرِ الذي أنتَ حائضُ

وزاد فيه على من أخذه منه وهو لقيط بن يعمر:

إني أخافُ عليها الأزلمَ الجذعَا

بيت أبي تمام أكثر ماءً وأبين معنى.

وأخذ قول الفرزدق:

وما أمرتني النَّفسُ في رحلةٍ لها   إلى أحدٍ إلاَّ إليكَ ضميرُها

فشرحه فقال:

وما طوّفتُ في الآفاقِ إلاَّ   ومن جدواكَ راحلتي وزادي

مقيمُ الظَّنِّ عندكَ والأماني   وإنْ قلقتْ ركابي في البلادِ

وإلى بيت الفرزدق يشيرُ القائل:

مدحتكَ جهدِي بالّذي أنتَ أهلُه   فقصّرَ عمّا فيكَ من صالحٍ جهدِي

فما كلُّ ما فيه من الخيرِ قلتُه   ولا كلُّ ما فيهِ يقولُ الَّذي بعدِي

وكنتُ إذا هيأتُ مدحاً لماجدٍ   أتاني الَّذي فيه بأدنى الَّذي عندِي

ومن هاهنا أخذ أبو نواس قوله:

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ   فأنتَ مما نثنى وفوقَ الَّذي نثنى

وإن جرتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ   لغيركَ إنساناً فأنتَ الَّذي نعني

ويشير إلى قول الخنساء:

وما بلغَ المهدونَ في القولِ مدحةً وإن أطنبُوا إلاَّ الّذي فيك أفضلُ

وقال البحتري:

فمنْ لؤلؤٍ تجلوهُ عندَ ابتسامِهَا ومن لؤلؤٍ عند الحديثِ تساقطُهْ

أحسن لفظاً وسبكا من قول أبي حية:

إذا هنَّ ساقطنَ الحديثَ كأنَّهُ سقاطُ حصى المرجانِ من سلكِ ناظمِ

وبيت البحتري أيضاً أتمّ معنى، لأنه تضمّن ما لم يتضمّنه بيت أبي حية من تشبيه الثّغر بالدّر.

وقد زاد أيضاً في قوله:

وفرسانِ هيجاء تجيشُ صدورَها بأحقادِها حتى يضيقَ ذروعُها

تقتّل من وترٍ أعزَّ نفوسِها عليها بأيدٍ ما تكادُ تطيعُها

إذا احتربت يوماً ففاظتْ نفوسُها تذكَّرتِ القربَى فغاضتْ دموعُها

شواجر أرماح تقطع بينها شواجر أرحام ملوم قطوعها

على من قال:

ونبكي حين نقتُلُكم عليكم ونقتُلُكم كأنَّا لا نُبالِي

وقريبٌ منه قول مهلهل:

لقدْ قتلتُ بني بكرٍ بربِّهِم حتى بكيتُ وما يبكى لهم أحدُ

وبيتا البحتري أجودُ من بيتهما بغير خلاف، ومن قول فليح بن زيد الفهري أيضاً:

أتبكين من قتلى وأنت قتلتني بحبّك قتلاً بيّناً ليسَ يشكلُ

فأنتِ كذبّاح العصافير دائباً وعيناهُ من وجدٍ عليهنَّ تهمُلُ

وبيته:

كلّ عانٍ يترجَّى فكه ولذاتِ الخالِ عانٍ ما يفكُّ

أحسن رصفاً من قول زهير وهو الأصل:

وكلُّ محبٍّ أحدثَ النَّأيُ عنده سلوَّ فؤادٍ غيرَ حبِّك ما يسلُو

وهكذا قوله:

قومٌ إذا لبسوا الدّرُوعَ لموقفٍ لبستْهُم الأحسابُ فيه دروُعا

أتم وأجود من قول الأول:

ليسوا الدروعَ على القلو ب مظاهرينَ لدفعِ ذلكْ

وقال أعرابي:

إنَّ النّدَى حيثُ ترى الضّغاطا

فأخذه بشّار وشرحه وبيّنه، فقال:

يسقطُ الطّيرُ حيثُ ينتثر ال حبُّ وتغشى منازلُ الكرماءِ

ومثله قول الآخر:

يزدحمُ الناسُ على بابه والمنهلُ العذبُ كثيرُ الزّحامْ

وأخبرني أبو أحمد قال: أخبرني الصولي، قال: سمعت من ينشد المبرد لسلم الخاسر:

سقتني بعينيْهَا الهوى وسقيتُها فدبَّ دبيبَ الخمرِ في كلِّ مفصلِ

فقال له المبرد: قد حسّنه أبو نواس حيث يقول:

ويدخلُ حبُّها في كلِّ قلب مداخلَ لا يغلغلُها المدامُ

وقول البحتري: وغابر حبٍّ غارَ بي ثمَّ أنجدًا أجود من قول من تقدّمه، وهو الأصل:

أغار الهوى يا عبد قيس وأنجدَا

وأخذ أيضاً أبو تمام خبر الشماخ من أحيحة بن الجلاح لما أنشده الشماخ:

إذا تنعتني وحملتِ رحلِي عرابةَ فاشرقِي بدمِ الوتين

فقال له أحيحة: بئست المجازاةُ جازيتها فنقل أبو تمام هذا الخبر، فقال:

لستُ كشمّاخ المذمّم في سوء مكافاته ومجترمهْ

أشرَقها من دم الوتين لقدْ ضلَّ كريم الأخلاق عن شيمهْ

ذلك حكمٌ قضى بفيصله أحيحةُ بن الجلاحِ في أطُمِهْ

وأخبرنا أبو أحمد قال: قال أبو العيناء: سمعت أبا نواس يقول: واللّه ما أحسن الشماخ حيث يقول:

إذا بلَّغتني وحملتِ رحلِي عرابةَ فاشرَقي بدم الوتين

هلاّ قال كما قال الفرزدق:

علامَ تلفّتينَ وأنتِ تحتي وخيرُ الناس كلّهم أمَامي

متى تردِي الرّصافةَ تستريحي من التّهجيرِ والدبَرِ الدَّوامي

وكان قول الشماخ عيباً عندي، فلما سمعت قول الفرزدق تبعته، فقلت:

وإذا المطيُّ بنا بلغنَ محمداً فظهورهنَّ على الرِّجال حرامُ
قرّبننَا من خير من وطئَ الحصَى فلهَا علينا حرمةٌ وذمامِ

وقلت:

أقولُ لناقتي إذْ بلَّغتني لقد أصبحت عندي بالثَّمين

فلم أجعلك للغربان نحلاً ولا قلتُ اشرَقي بدمِ الوتينِ
حرمتِ على الأزمَّة والولايا وأعلاقِ الرّحالةِ والوضينِ

وتبع الشماخ ذو الرمة فقال:

إذا ابنَ أبي موسى بلالاً بلغته فقام بفأسٍ بين وصليك جازرُ

وسمع أبو تمام قول علي بن أبي طالب رضى الله عنه للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك قضاء الله وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك أمر الله وأنت موزور، فإنّك إن لم تسل احتساباً سلوتَ كما تسلو البهائم، فحكاه حكاية حسنة في قوله:

وقال عليّ في التَّعازي لأشعثٍ وخافَ عليهِ بعضَ تلكَ المآثمِ
أتصبرُ للبلوَى رجاءً وحسبةً فتؤجرَ أمْ تسلُو سلوَّ البهائمِ
خلقنَا رجالاً للتجلُّدِ والأسَى وتلكَ الغواني للبكا والمآتمِ

والبيت الأخير من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مصعب: وإنما التسليم والسّلوة لحزماء الرّجال، وإنّ الهلع والجزع لربّات الحجال.

وسمع قول زياد لأبي الأسود: لولا أنك ضعيفٌ لاستعملتك. فقال أبو الأسود: إن كنتَ تريدني للصراع فإني لا أصلح له، وإلا فغير شديد أن آمر وأنهى، فقال أبو تمام:

تعجَّبُ أن رأتْ جسمي نحيفاً كأن المجد يدركُ بالصّراعِ

وزاد أبو تمام أيضاً بقوله:

أطالَ يدي على الأيّامِ حتَّى جزيتُ صروفَها صاعاً بصاعِ

علي أبي طالب في قوله:

فإن يقتَلا أو يمكن اللهُ منهمُا نكلْ لهما صاعاً بصاعِ المكايِلِ

بيت أبي تمام أصفى وأنصع.

وكذلك قوله:

من النَّكباتِ النّاكباتِ عن الهوى ... فمحبُوبها يمشي ومكروهُها يعدُو

أحسن رصفاً مما أخذه منه. وهو الذي أنشدنيه أبو أحمد، قال: أنشدنا ابن دريد قال: أنشدنا الرياشي عن المعمري حفص بن عمر لبعض المسجونين:

وتعجبنا الرؤيا فجلُّ حديثنا، ... إذا نحنُ أصبحنا، الحديثُ عن الرؤْيا

فإنْ حسنتْ م تأتِ عجلى وأبطأتْ ... وإن قبحت لم تحتبس وأنت عجلى

وأخبرني أبو أحمد، قال أخبرني الصولي، قال حدّثني أبو بكر هرون بن عبد الله المهلبي، قال: كنا في حلقة دعبل، فجرى ذكرُ أبي تمام، فقال دعبل: كان يتتبّع معانيّ فيأخذها، فقال له رجل في مجلسه: ما من ذلك أعزّك الله؟ فقال: قلت:

وإن امرأ أسدَى إليَّ بشافعٍ ... إليهِ ويرجُو الشُّكرَ منّى لأحمقُ

شفيعك فاشكرْ في الحوائج إنّه ... يصونكَ عن مكرُوهِهَا وهو يخلُقُ

وقال هو، يمدح يعقوب بن أبي ربعي:

إنَّ الأميرَ بلاكَ في أحوالِهِ ... فرآك أهزعَه غداةَ نضالِه

فمتى أقوم بحقّ شكرِكَ إذ جنتْ ... بالغيب كفّك لي ثمارَ نوالِهِ

فلقيتُ بين يديكَ حلوَ عطائِه ... ولقيتَ بينَ يديَّ مرَّ سؤالِه

وإذا امرؤ أسدَى إليكَ صنيعه ... من جاهِه فكأنَّهَا من مالِهِ

فقال الرجلُ: أحسن والله فقال دعبل: كذبتَ قبّحك الله قال: لئن كان سبق بهذا المعنى فتبعته لما أحسنت، وإن كان أخذه منك لقد أجاد، فصار أولى به منك فغضب دعبل وقام.

وسمع بشارٌ قول المجنون:

ألا إنّما ليلَى عصا خيزرانَةٍ ... إذا غمزُوها بالأكفِّ تلينُ

فقال: والله لو جعلها عصا من زبد أو مخ لما أحسن، ألا قال كما قلت:

وحوراءِ المدامعِ من معدّ ... كأنَّ حديثهَا قطعُ الجمانِ

إذا قامتْ لسبْحتِهَا تثنَّتْ ... كأنَّ عظامَهَا من خيزُرَانِ

ولما قال بشّار:

من راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجتِه　　　وفازَ بالطِّيّباتِ الفانكُ اللّهجُ

تبعه سلم الخاسر، فقال:

من راقبَ النّاسَ ماتَ غمّاً　　　وفازَ باللّذّةِ الجسورُ

فلما سمع بشار هذا البيت قال: ذهب ابن الفاعلة ببيتي.

ومن حسن الاتباع أيضاً قول إبراهيم بن العباس حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيئ من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المسئ للحق رهبة. أخذه من قول عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه أخبرنا به أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الجوهري، قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري، قال: أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير قال: قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: يجب على الوالي أن يتعهّد أموره، ويتفقّد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإنْ ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل.

وسمع بعض الكتّاب قول نصيب:

فعاجُوا فأثنَوا بالّذي أنتَ أهلُهُ　　　ولو سكتُوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

فكتب: ولو أمسكَ لساني عن شكركَ لنطق على أثرك.

وفي فصل آخر:

ولو جحدتكَ إحسانَك لأكذبتني　　　آثارُهُ، ونمّت على شواهده .

وقريبٌ منه قولهم: شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال، أخذه ابن الرومي فشرحه في قوله:

حالَ انسدادُ فمي عمّا يريبكم　　　لكن فمُ الحالِ منّي غيرُ مسدودِ

حالٌ تصيحُ بما أوليتَ معلنة　　　وكلُّ ما تدَّعيهِ غيرُ مردودِ

كلى هجاءٌ وقتلِي لا يحلُّ لكمْ　　　فما يداريكم منى سوى الجُودِ

وقريب منه أيضاً قول الشاعر:

أأقاتلُ الحجَّاجَ عن سلطانِه　　　بيدٍ تقرُّ بأنّها مولاتُهُ

ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءَه　　　في الصّفِّ واحتجَّتْ له فعلاتُهُ

أخذه أبو تمام فقال:

أألبس هجرَ القولِ من لو هجوتُه　　　إذاً لهجاني عنه معروفُه عندِي

وممن أحسنَ الاتباعَ أيضاً أحمد بن يوسف وقد سمع قول علي رضى الله عنه: لا تكوننَّ كمن يعجز عن شكرِ ما أوتي، ويلتمس الزيادة فيما بقي فكتب: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برّك في وقت فراغك.

وأخذه أخذاً ظاهراً أحمد بن صبيح فقال: في شكر ما تقدّم من إحسان الأمير شاغلٌ عن استبطاء ما تأخّرَ منه.

وأخذه سعيد بن حميد فقال: لستُ مستقلاً لشكر ما مضى من بلائك، فاستبطئ درك ما أؤمّلُ من مزيدك.

من هذا أيضاً قول أبي نواس:

لا تسدبنَّ إليَّ عارفةً   حتَّى أقومَ بشكرِ ما سلفَا

وأخبرني أبو أحمد، قال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش، قال، قال أبو تمام لابن أبي داود لما غضب عليه: أنت الناس كلّهم، ولا طاقة لي بغضب جميع الناس. فقال ابن أبي دواد: ما أحسن هذا من أين أخذته؟ قال: من قوله أبي نواس:

وليس لله بمستنكرٍ   أنْ يجمعَ العالم في واحدِ

ومن سمع هذا الكلام يظنه مسروقاً من قول جرير:

إذا غضبتْ عليَّ بنو تميمٍ   حسبتُ النَّاسَ كلَّهمُ غضَابا

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الأخفش، قال: أخبرنا المبرد عن الجاحظ قال، سمع قليب المعتزلي أبياتاً للعتبى، وهي:

أفلتْ بطالتُه وراجعَهُ   حلمٌ وأعقبهُ الهوَى ندمَا

ألقَى عليهِ الدّهرُ كلكلَهُ   وأعارهُ الإقتارَ والعدما

فإذا ألمَّ به أخَو ثقةٍ   غضَّ الجفونَ ومجمجَ الكلمَا

فقال لبعض الملوك يستعطفه على رجل من أهله: جعلني الله فداءك، ليس هو اليوم كما كان، إنه وحياتك أفلت بطالته، أي والله، وراجعه حلمه، وأعقبه وحقّك الهوى ندما، أنحى الدهر والله عليه بكلكله، فهو اليوم إذا رأى أخا ثقةٍ غضَّ بصرهن ومجمج كلامه.

وبهذا يعرف أن حلَّ المنظوم، ونظم المحلول أسهل من ابتدائهما، لأنَّ المعاني إذا حلت منظوما أو نظمت منثوراً حاضرةٌ بين يديك تزيد فيها شيئاً فينحلُّ، أو تنقص منها شيئاً فينتظم، وإذا أردتَ ابتداء الكلام وجدت المعاني غائبةً عنك فتحتاج إلى فكرٍ يحضركها.

والمحلول من الشعر على أربعة أضرب، فضرب منها يكون بإدخال لفظة بين ألفاظه. وضرب ينحلّ بتأخير لفظة منه وتقديم أخرى فيحسن محلوله ويستقيم. وضرب منه ينحلّ على هذا الوجه ولا يحسن ولا يستقيم. وضربٌ تكسو ما تحلّه من المعاني ألفاظاً من عندك وهذا أرفع درجاتك.

فأما الضربُ الأول فمثاله ما تقدَّ من صدر كلام قليب المعتزلى وأما الضرب الثاني فمثاله ما ذكره بعض الكتاب من قول البحتري:

نطلبُ الأكثر في الدنيا وقدْ   نبلغ الحاجةَ فيها بالأقلّ

ثم قال: فإذا نثرت ذلك و لم تزد في ألفاظه شيئاً قلت: نطلب في الدنيا الأكثر، وقد نبلغ منها الحاجة بالأقل.

وقوله:

أطلْ جفوةَ الدُّنيَا وتهوين شأنِهَا   فما الغافلُ المغرورُ فيها بعاقلِ
يرجِّى الخلودَ معشرٌ ضلَّ سعيهُم   ودونَ الذي يبتغون غولُ الغوائل
إذا ما حريزُ القومِ باتَ وما لَهُ   من اللهِ واقٍ فهوَ بادي المقاتلِ

فإذا ما نثرتَ ذلك من غير أن تزيد في ألفاظه شيئاً قلت: أطل تهوين شأن الدنيا وجفوتها، فما المغرور الغافل فيها بعاقل، ويرجو معشر ضلّ رأيهم الخلود، وغول الغوائل دون ما يرجون، وإذا بات حريز القوم ماله واق من الله فهو بادي المقاتل.

وهذا المعنى مأخوذٌ من قول التغلبي:

لعمركَ ما يدرِي الفتى كيفَ يتَّقى   إذا هوَ لم يجعل لهُ اللهَ واقيَا

وأما الضرب الثالث فهو أن توضعَ ألفاظُ البيت في مواضع، ولا يحسن وضعُها في غيرها، فيختلّ إذا نثر بتأخير لفظ وتقديم آخر، فتحتاج في نثره إلى النقصان منه والزيادة فيه، كقول البحتري:

يسرُّ بعمرانِ الدّيار مضلَّلٌ   وعمرانُها مستأنفٌ من خرابهَا
ولم أرتضِ الدُّنيا أوانَ مجيئها   فكيف أرتضائيها أوانَ ذهابهَا

فإذا نثر على الوجه قيل: يسر مضلّل بعمران الدنيا، ومن خرابها عمرانها مستأنف، و لم أرتض أوان مجيئها الدنيا، فكيف أوان ذهابها أرتضائيها. فهذا نثرٌ فاسد، فإذا غيرتَ بعض ألفاظه حسن وهو أن تقول: يسرّ المضلّل بعمران الديار، وإنما تستأنف عمرانها من خرابها، وما ارتضيت الدنيا أوان مجيئها، فكيف أرتضيها أوان ذهابها؟ ونحن نقول: إنّ من النظم ما لا يمكن حلّه أصلا بتأخير لفظة وتقديم أخرى منه حتى يلحق به التغيير والزيادة والنقصان مثل قول الشاعر:

لسانُ الفتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه		فلم يبقَ إلا صورةُ اللّحمِ والدَّمِ

فالمصراع الأول يمكن أن تؤخّر ألفاظه وتقدّم، فيصير نثراً مستقيماً، وهو أن تقول: فؤاد الفتى نصفٌ ولسانه نصف. ولا يمكن في المصراع الثاني ذلك حتى تزيد فيه أو تنقص منه، فتقول: لسان الفتى نصفٌ وفؤاده نصف، وصورته من اللحم والدم فضلٌ لا غناء بها دونهما ولا معوّل عليها إلا معهما. وزيادة الألفاظ التي تحصل فيه ليست بضائرة، لأنّ بسط الألفاظ في أنواع المنثور سائغ، ألا ترى أنها تحتاج إلى الازدواج، ومن الازدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنى واحد، وليس ذلك بقبيح إلاّ إذا اتّفق لفظاهما.

ويسوغ هذا في الشعر أيضاً كقول البحتري:

بودِّي لو يهوى العذولُ ويعشق		فيعلم أسباب الهوى كيف تعلقُ

فيهوى، ويعشق سواءٌ في المعنى وهو حسن، إلاّ أنّ أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز.

ومعنى قوله: "فلم يبق إلا صورة اللّحم والدم". داخل في قوله: "لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده". والمصراع الثاني إنما هو تذييلٌ للمصراع الأول، فإذا أردت أن تحلّه حلاًّ مقتصراً بغير لفظه قلت: الإنسان شطران: لسان وجنان.

ومما لا يمكن حلّه بتقديم لفظة منه وتأخير أخرى أيضاً قول أبي نواس:

ألا يا بنَ الذينَ فنُوا وبادُوا		أمَا واللهِ ما ذهبُوا لتبقَى

فتحل المصراع الأول فتقول: ألا يا بن الذين ماتوا ومضوا، فيحسن. وتقول في المصراع الثاني: لتبقى أما والله ما ماتوا. أو لتبقى ما ماتوا ومضوا، أما والله، فلا يكون ذلك شيئاً، فتحتاج في نثره إلى تغييره وإبدال ألفاظه، فتقول: ألا يا بن الذين ماتوا ومضوا وظعنوا فناء، أما والله ما ظعنوا لتقيم، ولا راموا إلاّ لتريم، ولا ماتوا لتحيا، ولا فنوا لتبقى.

وفي هذه الألفاظ طولٌ، وليس بضائر على ما خبّرتك، فإن أردت اختصاره قلت: أما والله إنّ الموت لم يصبك في أبيك إلاّ ليصيبك فيك.

والضرب الرابع أن تكسو ما تحلّه من المنظوم ألفاظاً من عندك، وهذا أرفع درجاتك.

ثم نرجع إلى السرقات: قال بعضهم للربيع بن خثيم، وقد رأى اجتهاده في العبادة: أتعبت نفسك، قتلت نفسك. فقال: راحتها أطلب. فقال الشاعر:

سأطلبُ بعد الدَّارِ عنكم، لتقربُوا		وتسكبُ عيناايَ الدُّموعَ لتجمُدا

وقال غيره:

تقول سليمَى لو أقمتَ بأرضنَا ... ولم تدرِ أنِّي للمقامِ أطوّفُ

ومثل ذلك أن بعضهم رأى أعرابياً مقبلاً إلى مكة ليصوم فيها شهر رمضان والحرُّ شديد، فقال له: أتجمع على نفسك الصوم وحرّ تهامة؟ فقال: من الحرّ أفرّ وقيل لروح بن قبيصة بن المهلب، وهو واقفٌ في الشمس على باب الخليفة: لقد طال وقوفك في الشمس فقال: الظلّ أريد، فقال أبو تمام:

أآلفةَ النّحيبِ كم افتراقٍ ... أظلَّ فكانَ داعيةَ اجتماعِ

وليستْ فرحةُ الأوباتِ إلاَّ ... لموقوفٍ على ترَحِ الوداعِ

وقال امرؤ القيس:

فبعضَ اللَّوم عاذلتي فإنّي ... ستكفيني التّجاربُ وانتسابي

يقول: لا أنتسب إلا إلى ميت.

وقال لبيد:

فإنْ لم تجدْ من دونِ عدنانَ والداً ... ودونَ معدٍّ فلترعكَ العواذلُ

فأخذه الحسن البصري، فقال نثراً: إنّ امرءاً لم يعد بينه وبين آدم عليه السلام إلا أباً ميتاً لمعرق له في الموت، فأخذه أبو نواس، فقال:

وما الناسُ إلاّ هالكٌ وابن هالكٍ ... وذو نسبٍ في الهالكينَ عريقُ

وقال الله عز وجل: "يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم هم العدو"، فأخذه الشاعر فقال وقصّر عنه:

مازلتَ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهم ... خيلاً تكرّ عليهمُ ورجالا

وكذا قصَّرتِ الخنساء في قولها:

ولولا كثرةُ الباكِين حولي ... على إخوانِهم لقتلتُ نفسِي

وما يبكونَ مثلَ أخي ولكنْ ... أعزِّى النَّفسَ عنهُ بالتَّأسِّي

عن قول الله تعالى: "ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتُم أنكم في العذاب مشتركون".

ومن خفّي السرق أن أبا مسلم قال لجلسائه: أي الأعراض الأم؟ فقالوا وأكثروا. فقال: ألأمُها عرضٌ لم يرتع فيه حمدٌ ولا ذم، فأخذه المراغي، فقال:

هجوتُ زهيراً ثم إني مدحتُه ... ومازالتِ الإشرافُ تهجَى وتمدحُ

وأخذ عليُّ بن الجهمِ قول الفرزدق:

ما الباهليُّ بصادقٍ لكَ وعدهُ ... ومتى تعدكَ الباهليّةُ تصدقُ

فقال:

الرُّحَّجيُّونَ لا يوفونَ ما وعدُوا ... والرُّحَّجيَّاتُ لا يخلفنَ ميعادَا

وسمع بعضهم قول العرب: إذا فارق القمر الثريا تمد ولّي الشتاء. فنظمه فقال:

إذا ما فارقَ القمرُ الثريّا ... لثالثةٍ فقدْ ذهبَ الشتاء

وسمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم حيثما كانوا"، فقلت:

يسعى بذمَّتهم أدناهُم وهُم ... يدٌ على منْ سواهم حيثُما كانوا

وهذا يدلك على صحَّة ما تقدَّم.

وسمع بعض الكتاب قول أبي تمام:

فإنْ يجد علةً نغمُّ بها ... حتى ترانَا نعادُ من مرضهْ

فكتب: من نزل منزلتي من طاعتك ومشاركتك كان حقيقاً أن يهنَّأ بالنعمة تحدث عنه، ويعزَّى على النائبة تلمُّ بك. فنقل العيادة إلى المصيبة والتعزية.

وقال بعضهم: الكتابة نقض الشعر.

وقيل للعتابي: بم قدرت على البلاغة؟ فقال: بحلّ معقود الكلام.

وأحسن أبو تمام في قوله:

إليكَ هتكنَا جنحَ ليلٍ كأنَّمَا ... قد اكتحلتْ منه البلادُ بإثمدِ

وزاد فيه على أبي نواس، ومنه أخذ، وهو قوله:

أبنْ لي كيفَ صرتَ إلى حريمي ... وجنحُ الليلِ مكتحلٌ بقارِ

لأنَّ الاكتحالَ يكونُ بالإثمد، ولا يكون بالقار.

وممن أخفى الأخذ ابن أبي عيينة في قوله:

ما كنتَ إلاَّ كلحمِ ميتٍ ... دعا إلى أكلهِ اضطرارُ

أخذه من قول الأول:

وإنَّ بقومٍ سوَّدوكَ لفاقةً ... إلى سيِّدٍ لو يظفرون بسيّدِ

ذكر ذلك عن المأمون.

ومما زاد فيه المتأخِّرُ على المتقدّم فحسن معرضه، وسهل مطلعه قول ابن المعتز:

ولاحَ ضوءُ هلالٍ كادَ يفضحنَا مثلَ القلامةِ إذ قدَّتْ من الظُّفُرِ

وقال الأول:

كأنَّ ابن ليلتهِ جانِحاً فسيطٌ لدَى الأفق من خنصِرِ

الفسيط: قلامة الظفر.

وما يعرف للمتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخّر وطلب الشركة فيه معه إلا بيت عنترة:

وترى الذُّبابَ بها يغنِّي وحدَهُ هزجاً كفعلِ الشَّاربِ المترَنِّم

غرِداً يحكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ قدحَ المكبِّ على الزِّنادِ الأجذَمِ

فإنه ما نوزع في هذا المعنى على جودته. وقد رامه بعض المجيدين فافتضح.

وأخذ البحتري قول الشماخ:

وقرَّبتُ مبراةً كأنَّ ضلُوعَها من الماسخيَّاتِ القسيّ الموتَّرَا

مبراة من البرة، وهي الحلقة تجعل في أنف الناقة فزاد عليه، فقال:

كالقسيِّ المعطَّفَات بل ال أسْهم مبريّةً بلِ الأوتارِ

وهذا ترتيب مصيب من أجل أنه بدأ بالأغلظ، ثم انحطَّ إلى الأدقّ، وقد عيب ترتيب أبي تمام في قوله:

أو كالخلوق أو كالملاب

فبدأ بالأنفس ثم انحطَّ إلى الأخسِّ، كما تقول، هو مثل النَّجم، بل القمر، بل الشمس، فترتفع من الشيء إلى ما هو أعلى منه، وإذا قلت: هو مثل الشمس، بل القمر، بل النجم، لم يحسن.

وقال عروة بن الورد:

تقولُ سليمَى لو أقمتَ بأرضنا ولم تدرِ أنّى للمقامِ أطوِّفُ

أخذه أبو تمام وزاد عليه فقال:

ربَّ خفضٍ تحتَ السُّرَى وغناءٍ من عناءٍ ونضرةٍ من شحوبِ

وقال إبراهيم بن العباس للفضل بن سهل:

لفضلِ بن سهلٍ يدٌ تقاصرَ عنْها المثلْ

فبسطتُها للغنَى وسطوتُهَا للأجلْ
وباطنُهَا للنَّدَى وظاهرُها للقبَلْ

فاتَّبعه ابن الرومي فأحسن الاتّباع، فقال:

أصبحتُ بين خصاصةٍ وتجمّل والحرُّ بينهما يموتُ هزيلا
فامددْ إليَّ يداً تعوَّد بطنُها بذلَ النَّوالِ وظهرُها التّقبيلا

وقال بشّار:

الدَّهرُ طلاَّعٌ بأحداثهِ ورسلُهُ فيها المقاديرُ
محجوبَة تنفذ أحكامها ليس لنا عنْ ذاكَ تأخيرُ

فاتَّبعه ابن الرومي وأحسن الاتِّباع أيضاً، فقال:

يظلُّ عن الحربِ العوانِ بمعزلٍ وآثارُهُ فيا وإنْ غابَ شهَّدُ
كما احتجب المقدارُ والحكمُ حكمُه على الخلقِ طرّاً ليس عنه معرّدُ

إلا أنّ قول بشار أكثرُ ماءً وطلاوة.

ومما لم يسئ الاتّباع فيه قولُه أيضاً:

سكنت سكُوناً كان رهناً بوثبةٍ عماسٍ، كذاك اللّيثُ للوثبِ يلبدُ

وإنما أخذَه من قول النابغة:

وقلتُ يا قوم إنَّ اللّيثَ منقبضٌ على براثِنِه للوثبَةِ الضَّارى

وكذلك قوله:

كأنَّ أباه حينَ سمّاه صاعداً رأى كيفَ يرقى في المعالي ويصعدُ

أخذه من قول البحتري:

سماه أسرتُه العلاء، وإنما قصدوا بذلك أنْ يتمَّ غلاهُ

وزاد أبو تمام أيضاً على الأفوه، والنابغة، أبي نواس، ومسلم، في معنى تداولوه، وهو قول الأفوه:

وترى الطّيرَ على آثارِنا رأيَ عينٍ ثقةً أن ستُمار

وقول النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلَّقَ فوقهُم عصائبُ طيرٍ تهتَدي بعصائبِ
جوانح قد أيقنَّ أنَّ قبيله إذا ما التقَى الجمعانِ أوّلُ غالبِ

وقول أبي نواس:

تتأبَّى الطَّير غدوتَه ... ثقةً بالشِّبع من جزرِهْ

وقول مسلم:

قد عوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وثقنَ بها ... فهنَّ يتبعنهُ في كلِّ مرتحلِ

فقال أبو تمام:

أقامتْ مع الرَّاياتِ حتى كأنّها ... من الجيشِ إلاَّ أنّها لم تقاتلِ

فقوله أقمت مع الرايات زيادة وزاد عليه بعض المحدثين، فقال:

يطمع الطّيرَ فيهم طولُ أكلِهم ... حتى تَكاد على أحيائِهم تقعُ

وقال أبو تمام:

همَّةٌ تنطحُ النجومَ وجدٌّ ... آلفٌ للحضيض فهو حضيضُ

أخذه البحتري فحسّنه وهو قوله:

متحيِّرٌ يغدُو بعزمٍ قائمٍ ... في كلِّ نائبةٍ وجدٍّ قاعدِ

ومما أخذه أيضاً من أبي تمام فقسّمه تقسيما حسناً قوله:

ملكٌ له في كلِّ يومِ كريهةٍ ... إقدام عزٍّ واعتّزامُ مجرِّبِ

هو من قول أبي تمام:

ومجرِّبونَ سقاهمُ من بأسه ... فإذا لُقوا فكأنهم أغمارُ

وقال أبو العتاهية:

كم نعمةٍ لا يستقلُّ بشكرِها ... لله في طيِّ المكارهِ كامنَهْ

أخذه أبو تمام، فقال:

قد ينعمُ اللهُ بالبلوَي وإن عظمَتْ ... ويبتَلى اللهُ بعضَ القومِ بالنِّعمِ

فزاد عليه لأنه أتى بضدٌّ المعنى.

وقال أبو تمام:

رأيتُ رجائي فيكَ وحدك همَّةً ... ولكنَّه في سائر الناسِ مطمَعُ

فأخذه البحتري فاختصره، فقال:

ثنى أملي فاحتازه عنْ معاشرٍ ... يبيتُونَ والآمالُ فيهم مطامعُ

وأخذه ابن الرومي، فقال:

به صدَّقَ اللهُ الأمانِي حديثها وقدْ مرَّ دهرٌ والأماني وساوِسُ

وقال أبو تمام:

رافعٌ كفَّه لسبرى فما أح سبُهُ جائني لغيرِ اللّطامِ

أخذه البحتريّ فزاد عليه في حسنِ اللفظ والسّبك، فقال:

ووعدٌ ليس يعرفُ من عبوس بأوجههمْ أوعدٌ أم وعيدُ

وقال الحنيف بن السّجف:

وفرقتُ بين ابنى هنيم بطعنةٍ لها عاندٌ يكسُو السَّليبَ إزارَها

يعني بالعاند: الدم، فأخذه البحتري فزاد عليه في اللفظ، وقال:

سلبوا وأشرقتٍ الدماءُ عليهم محمرَّةً فكأنهم لم يسلبُوا

على أن محمرة حشو.

وقال أبو تمام:

كأنَّما خامرهُ أولقٌ أو خالطتْ هامته الخندَريسْ

وقال البحتري:

وتخال ريعان الشّبابِ يروعُهُ من حدَّةٍ أو نشوةٍ أو أفكلِ

فزاد عليه.

وقال أبو تمام:

أنضرَتْ أيكتَي عطاياكَ حتى عادَ غصني ساقاً وكان قضيبا

فقال البحتري وزاد:

حتى يعودَ الذؤيبُ ليثاً ضيغماً والغصنَ ساقاً والقرارة نيقا

ومثل هذا كثير وفيما أوردتْ كفايةٌ إن شاء الله.

الفصل الثاني من الباب السادس في قبح الأخذ

وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظه كلّه أو أكثره، أو تخرجه في معرض مستهجن، والمعنى إنما يحسن بالكسوة: أخبرنا بعض أصحابنا قال: قيل للشعبي، إنّا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك فقال: إني أجده عارياً فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفاً، أي من غير أن أزيد في معناه شيئاً.

فما أخذ بلفظه ومعناه وادَّعى لآخذه أو ادّعى له أنه لم يأخذه، ولكن وقع له كما وقع للأول، كما سئل ابن عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظٍ واحد ومعنى. فقال: عقول رجالٍ توافت على ألسنتها، وذلك قول طرفة:

وقوفاً بها صحبِي عليَّ مطيَّهُمْ   يقولونَ: لا تهلكْ أسىً وتجلَّدِ

وهو قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيَّهم   يقولون: لا تهلك أسىً وتجمَّلِ

فغيّر طرفة القافية.

وقال الحرث بن وعلة:

الآن لمَّا ابيضَّ مسربتي   وعضضتُ من نابي على جذمِ

وقال غسان السليطي:

الآن لما ابيضَّ مسربتي   وعضضتُ من نابي أجذامِي

وقال البعيث:

أترجو كليبٌ أن يجئ حديثُها   بخيرٍ وقد أعيَا كليباً قديمُها

وقال الفرزدق:

أترجُو ربيعٌ أنْ تجئَ صغارُها   بخيرٍ وقدْ أعيا ربيعاً كبارُها

ومثل هذا كثيرٌ في أشعارهم جداً.

والأخذ إذا كان كذلك كان معيباً وإن ادعى أن الآخرَ لم يسمعْ قول الأول، بل وقع لهذا كما وقع لذاك، فإنّ صحة ذلك لا يعلمها إلاّ الله عز وجل، والعيبُ لازمٌ للآخر.

روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه:

نشطّ غداً دارُ جيراننا

فقال ابن عباس:

وللدّارُ بعدَ غدٍ أبعدُ

فقال عمر: والله ما قلتُ إلاّ كذلك.

وإذا كان القوم في قبيلةٍ واحدة، وفي أرضٍ واحدة، فإنّ خواطرهم تقعُ متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة، وأنشدت الصاحب إسماعيل ابن عباد:

كانت سراة الناسِ تحتَ أظلّه

فسبقني وقال:

فغدت سراةُ الناسِ فوق سراته

وكذلك كنت قلت.

فعلى هذا جائز ما يدّعى لهم، والظاهر ما قلناه، فهذا ضرب.

والضرب الآخر من الأخذ المستهجن أن يأخذ المعنى فيفسده أو يعوصه، أو يخرجه في معرضٍ قبيح وكسوة مسترذلة، وذلك مثل قول أبي كريمة:

قفاه وجهٌ، ثم وجهُ الذي   قفاه وجهٌ يشبِهُ البدْرا

وإنَّما أخذ هذا من قول أبي نواس:

بأبي أنتَ من مليحٍ بديع   بذّ حسنَ الوجوهِ حسنُ قَفاكا

وأحسن ابن الرومي فيه فقال:

ما ساءَني إعراَضه   عنّي ولكن سرَّني

سالفَتاه عوضٌ   منْ كلِّ شيءٍ حسن

وإليه أشار عبد الصمد بن المعذّل في قوله:

لمّا رأيت البدرَ في   أفق السّماء وقد تعلَّى

ورأيتُ قرنَ الشّمسِ في   أفقِ الغروب وقد تدلَّى

شبَّهتُ ذاكَ وهذه   وأرى شبيههمَا أجلاَّ

وجهُ الحبيبِ إذا بدَا   وقفا الحبيبِ إذا تولَّى

وأخذه أبو نواس من قول النابغة للنعمان بن المنذر: أيفاخركَ ابن جفنة واللات، لأمسك خيرٌ من يومه، ولقذالك أحسنُ من وجهه، وليساركَ أسمح من يمينه، ولعبيدك أكثر من قومه، ولنفسك أكبر من جنده، وليومك أشرف من دهره، ولوعدك أنجز من رفده، ولهزلك أصوب من جدّه، ولكرسيّك أرفع من سريره، ولفترك أبسطُ من شبره، ولأمك خيرٌ من أبيه.

والنابغة أحذق الجماعة، لأنه ذكر القذال، وهؤلاء قالوا: القفا، ولا يستحسن أن يخاطب الرجل فيقال له: قفاك حاله كذا وكذا.

ومن ذلك قول الحسن بن وهب، وقد سمع قولى أعرابي اجتمع مع عشيق له في بعض الليالي: اجتمعت معها في ظلمة الليل، وكان البدر يرينيها، فلما غاب أرتنيه، فقال:

ارانيَ البدرُ سنَّتَها عشاءً — فلما أزمعَ البدرُ الأفولا
أرتنيه بسنَّتِها فكانتْ — من البدرِ المنوِّرِ لي بديلاَ

فأطال الكلام، وجعل المعنى في بيتين، وكرّر السّنة والبدر.

وقال البحتري فأربى على الأعرابيّ وزاد عليه:

أضرَّتْ بضوءِ البدرِ والبدرُ طالعٌ — وقامتْ مقام البدرِ لما تغيّبا

وسمع بعضهم قول محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً — عليَّ له في مثلها يجبُ الشّكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلاَّ بفضله — وإن طالتِ الأيامُ واتَّصلَ العمرُ
إذا مسَّ بالسَّرَّاء عمَّ سرورها — وإن مسَّ بالضَّرَّاء أعقبها الأجرُ
وما منهما إلاّ لهُ فيه نعمةٌ — تضيق بها الأوهامُ والبرُّ والبحرُ

فقال وأساء:

الحمدُ لله إنَّ اللهَ ذو نعمٍ — لم يحصها عدداً بالشكر من حمدا
شكرِي لهُ عملٌ فيه عليّ لهُ — شكرٌ يكون لشكر قبلهُ مددا

فهذا مثال قبح الأخذ، فاعلمه.

وأخذ ابن طباطبا قول علي رضى الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسنُه، فقال:

فيا لائمي دعني أغال بقيمتي — فقيمةُ كلِّ الناس ما يحسنونَهُ

فأخذه بلفظه، وأخرجه بغيضاً متكلّفاً والجيد قول الآخر:

فقيمة كل امرئ علمه

فهذا وإن كان أخذه ببعض لفظه فإن كلا في بيته أحسنُ موقعاً منه في بيت ابن طباطبا.

وقال قرواش بن حوط:

دونوتُ له بأبيض مشرفّيٍ ... كما يدنُو المصافحُ للعناقِ

أخذه أبو تمام فقصّر عنه، وقال:

حنَّ إلى الموتِ حتى ظنَّ جاهلُه ... بأنَّهُ حنَّ مشتاقا إلى وطنِ

وأحسن تقسيمه البحتري، فقال:

تسرَّعَ حتى قال من شهدَ الوغَى ... لقاءُ أعادٍ أم لقاءُ حبائبِ

وقال ذو الرمة:

وليلٍ كجلبابِ العروسِ ادَّرعتهُ ... بأربعةٍ والشَّخصُ في العينِ واحدُ

أحمُّ علافيٌّ وأبيضُ صارمٌ ... وأعيسُ مهريٌّ وأروعُ ماجدُ

أخذه أبو تمام فقصَّر وقال:

البيدُ والعيسُ والليلُ التّمامُ معاً ... ثلاثةٌ أبداً يقرنَّ في قرنِ

وبيت البحتري في معناه أجود من هذا، إلا أنه لا يلحق بيت ذي الرمة:

اطلبَا ثالثاً سواىَ فإنّي ... رابعُ العيسى والدُّجَى والبيدِ

ومما قصَّر فيه البحتري:

قومٌ ترى أرماحهُمْ يومَ الوغَى ... مشغوفة بمواطنِ الكتمَانِ

أخذه من قول عمرو بن معد يكرب:

والضاربينَ بكلِّ أبيضَ مرهفٍ ... والطّاعنين مجامعَ الأضغانِ

قوله: "مجامع الأضغان أجود من قوله: مواطن الكتمان، لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم، فإذا وقع الطّعن في وضع الضغن فذلك غاية المراد.

ومما قصر فيه قوله:

من غادةٍ منعتْ وتمنعُ نيلَهَا ... فلو أنَّها بذلتْ لنا لم تبذُلِ

أخذه من قول عبد الصمد بن المعذّل:

ظبيٌ كأنَّ بخصرهِ   من دقَّةٍ ظمأً وجوعاً
ومن البليّةِ أنَّني   علّقتُ ممنوعاً منوعَا

بيت عبد الصمد أبينُ معنى مع شدةِ الاختصار. وبيت البحتري العويص لا يقام إعرابه إلا بعد نظر طويل.

وقال جابر بن السليك الهمداني:

أرمي بها اللّيلَ قدَّامي فيغشم بي   إذ الكواكبُ مثلُ الأعين الحولِ

أخذه البحتري فقصّر في النظم عنه فقال:

وخدانِ القلاصِ حولاً إذا قا   بلنَ حولاً من أنجمِ الأسحارِ

الأول أسلس.

وقال أبو تمام:

فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ   ه لا المجدُ في كفٍّ امرئ والدَّرَاهمُ

وقال البحتري فقصّر:

ليفرْ وفرُك الموفِى وإنْ أع   وزَ أن يجمعَ النَّدَى ووفورُه

وأخذ أبو تمام قول الشاعر:

فقلتُ لهم لا تعذلوني وانظروا   إلى النَّازعِ المقصورِ كيف يكونُ

فقال وقصر:

هرمتَ بعديَ والربعُ الذي أفلتْ   منهُ بدورك معذورٌ على الهرَم

متكلف ردئ الاستعارة.

وقد يتفق المبتدئ للمعنى والآخذ منه في الإساءة، قال ابن أذينة:

كأنما عائبُها دائباً   زيَّنَها عندي بتزيينِ

فأتى بعبارة غر مرضية ونسجٍ غير حسن، وأخذه أبو نواس فقال:

كأنما أثنوا ولم يعلمُوا   عليكَ عندي بالَّذي عابُوا

فأتى أيضاً برصفٍ مرذول ونظمٍ مردود.

وقد يستوى الآخذ والمأخوذ منه في الإجادة، في التعبير عن المعنى الواحد. قال أعرابي:

فتمَّ عليها المسكُ والليلُ عاكفُ

وقال البحتري:

وحالونَ كتمانَ الترحُّل في الدجى فنمَّ بهنَّ المسكُ حتى تضوَّعا

وقال أيضاً:

فكان العبير بها واشياً وجرسُ الحلى عليها رقيبا

وقال النابغة:

فإنَّكَ كاللَّيلِ الذي هو مدرِكي وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنكَ واسعُ

وقال أبو نواس:

لا ينزلُ الليلُ حيث حلّتْ فدهرُ شرَّابهَا نهارُ

فأحسنا جميعاً في العبارة، وللنابغة قصبة السبق.

ومثل ذلك قول لبيد:

ولا بدَّ يوماً أن تردَّ الودائع

وقال بشار:

وردَّ عليَّ الصِّبا ما استعارا

وقال الفرزدق:

تفاريقُ شيبٍ في الشَّبابِ لوامعٌ وما حسنُ ليلٍ ليسَ فيه نجومُ

وقال أبو نواس:

كأنَّ بقايا ما عفا من حبابها تفاريقُ شيبٍ في سوادِ عذارِ

البيتان متساويان في حسن الرصف، وإن كان أبو نواس أساء في أخذه لفظ الفرزدق، وفي قول الفرزدق أيضاً زيادةٌ، وهي: "وما حسنُ ليلٍ ليس فيه نجومُ".

وأنشد أبو أحمد، قال: أنشدنا أبو بكر عن عبد الرحمن عن عمه:

حرامٌ على أرماحِنا طعنُ مدبرٍ وتندقُّ قدماً في الصُّدورِ صدورُها

مسلمةٌ أعجازُ خيليَ في الوغَى ومكلومةٌ لبَّاتُها ونحورُهَا

أخذه أبو تمام، فقال:

أناسٌ إذا ما استحكم الرَّوعُ كسّرُوا صدور العوالي في صدور الكتائب

فأحسنا جميعاً.

ومثله قول الآخر:

يلقى السيوفَ بوجهِه وبنحرِه ... ويقيمُ هامتَه مقامَ المغفرِ

ويقول للطّرفِ اصطبر لشبَا القنَا ... فهدمتُ ركنَ المجدِ إنْ لم تعقرِ

ومثله قول بكر بن النطاح:

يتلقَّى النَّدى بوجه حيّ ... وصدورَ القنَا بوجهٍ وقاحِ

وهذا كلّه مأخوذٌ من قول كعب بن زهير:

لا يقع الطّعنُ إلاَّ في نحورهم ... وما لهمْ عن حياض الموتْ تهليلُ

وهو دون جميع ما تقدّم.

وقد أتيتُ في هذا الباب على كفاية، ولا أعلم أحداً ممن صنّف في سرق الشعر فمثل بين قول المبتدي وقول التّالي، وبين فضل الأول على الآخر، والآخر على الأوّل، غيري، وإنما كانت العلماء قبلي ينبّهون على مواضع السّرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فإني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد، وزاغ عن الإيثار، وبالله التوفيق.

تم الجزء الأول من كتاب الصناعتين، ويتلوه في الجزء الثاني الباب السابع في التشبيه. والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسبنا ونعم الوكيل

الباب السابع

التشبيه

فصلان

الفصل الأول من الباب السابع

في حد التشبيه وما يستحسن من منثور الكلام ومنظومه

التشبيه: الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه. وذلك قولك: زيد شديد كالأسد، فهذا القول الصواب في العرف وداخلٌ في محمود المبالغة، وإن لم يكن زيد في شدّته كالأسد على الحقيقة، على أنه قد روى أن إنساناً قال لبعض الشعراء: زعمت أنك لا تكذب في شعرك، وقد قلت:

ولأنت أجرأ من أسامة

أو يجوزُ أن يكون رجلٌ أشجع من أسد فقال: قد يكون ذلك، فإنّا قد رأينا مجزأة بن ثور فتح مدينةً و لم تر الأسد فعل ذلك، فهذا قول.

ويصحّ تشبيه الشيء بالشيء جملة، وإن شابهه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس، ومثل البدر، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوّهما ولا عظمهما، وإنما شبّهه بهما لمعنىً يجمعهما وإياه وهو الحسن. وعلى هذا قول الله عز وجلّ: "وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام"، إنما شبّه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو.

والتشبيه على ثلاثة أوجه: فواحدٌ منها تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون، مثل تشبيه الليلة بالليلة، والماء بالماء، والغراب بالغراب، والحرّة بالحرّة. والآخر تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل، كتشبيه الجوهر بالجوهر، والسواد بالسواد. والثالث تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، كتشبيه البيان بالسّحر، والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقة المسلك. وتشبيه الشدة بالموت، والمعنى الذي يجمعهما كراهية الحال وصعوبة الأمر.

وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه: أحدها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما يقع عليه، وهو قول الله عزّ وجل: "والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبُه الظّمآن ماءً". فأخرج ما لا يحسّ إلى ما يحسّ، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم من شدّة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قال: يحسبه الرأي ماء لم يقع موقع قوله: الظمآن، لأنّ الظمآن أشدّ فاقةً إليه، وأعظم حرصاً عليه.

وهكذا قوله تعالى: "مثل الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف". والمعنى الجامع بينهما بعد التّلاقي، وعدم الانتفاع.

وكذلك قوله عزّ وجل: "فمثله كمثل الكلبِ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"، أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه من لهث الكلب. والمعنى أن الكلب لا يطيعك في ترك اللهث على حال، وكذلك الكافر لا يجيبك إلى الإيمان في رفق ولا عنف.

وهكذا قوله تعالى: "والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفّيهِ إلى الماءِ ليبلغَ فاهُ وما هوَ ببالغهِ". والمعنى الذي يجمع بينهما الحاجةُ إلى المنفعة، والحسرة لما يفوتُ من درك الحاجة.

والوجه الآخر إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، كقوله تعالى: "وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّةٌ"، والمعنى الجامع بين المشبّه والمشبّه به الانتفاع بالصورة.

ومن هذا قوله تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السّماء ... إلى قوله: كأنْ لم تغنَ بالأمس"، هو بيان ما جرت به العادة إلى ما لم تجر به. والمعنى الذي يجمع الأمرين الزينة والبهجة، ثم الهلاك، وفيه العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تذكّر.

ومنه قوله تعالى: "إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمرّ، تنزع الناسَ كأنهم أعجاز نخل منقعر"، فاجتمع الأمران في قلع الريح لهما وإهلاكهما والتخوُّف من تعجيل العقوبة.

ومن هذا قوله تعالى: "فكانت وردةً كالدهانِ" والجامع للمعنيين الحمرة ولين الجوهر، وفيه الدّلالة على عظم الشّأن، ونفوذ السلطان.

ومنه قوله تعالى: "اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ... إلى قوله عزّ وجل: ثم يكونُ حطاما"، والجامع بين الأمرين الإعجابُ، ثم سرعةُ الانقلاب، وفيه الاحتقارُ للدّنيا والتّحذير من الاغترار بها.

والوجه الثالث: إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرفُ بها، فمن هذا قوله عزّ وجل: "وجنةٍ عرضُها السّموات والأرض"، قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها، والجامع بين الأمرين العظم، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصّفة.

ومثله قوله سبحانه: "كمثل الحمار يحمل أسفارا"، والجامع بين الأمرين الجهل بالمحمول، والفائدة فيه الترغيب في تحفّظ العلوم، وتركُ الاتكال على الرّواية دون الدّراية.

ومنه قوله تعالى: "كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوية"، والجامع بين الأمرين خلوّ الأجساد من الأرواح، والفائدة الحثّ على احتقار ما يؤول به الحال.

وهكذا قوله سبحانه: "كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً"، فالجامع بين الأمرين ضعف المعتمد، والفائدة التحذير من حمل النفس على التغرير بالعمل على غير أس.

والوجه الرابع: إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوةٌ فيها، كقوله عزّ وجلّ: "ولهُ الجوارِ المنشآتُ في البحرِ كالأعلام"، والجامع بين الأمرين العظم، والفائدة البيانُ عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء. وعلى هذا الوجه يجري أكثر تشبيهات القرآن، وهي الغاية في الجودة، والنهاية في الحسن.

وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر، وهو ردئ، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدّقة، وهو مثل قول الشاعر:

وكنت أعزّ عزّاً من قنوعٍ | يعوّضهُ صفُوحٌ من ملولِ
فصرتُ أذلّ من معنىً دقيقٍ | به فقرٌ إلى فهمٍ جليلِ

وكقول الآخر:

وندمانٍ سقيتُ الرَّاحَ صرفاً | وأفقُ اللّيلِ مرتفع السُّجُوفِ
صفتْ وصفتْ زجاجتُها عليها | كمعنىً دقّ في ذهنٍ لطيف

فأخرج ما تقع عليه الحاسّة إلى ما لا تقع عليه، وما يعرف بالعيان إلى ما يعرف بالفكر، ومثله كثيرٌ في أشعارهم.

وأما الطريقة المسلوكة في التشبيه، والنّهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين فتشبيه الجواد بالبحر والمطر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس والقمر، والسهم الماضي بالسيف، والعالي الرّتبة بالنّجم، والحليم الرزين بالجبل، والحيّ بالبكر، والفائت بالحلم، ثم تشبيه اللئيم بالكلب، والجبان بالصّفرد، والطائش بالفراش، والذّليل بالنّقد والنّعل والفقع والوتد، والقاسي بالحديد والصّخر، والبليد بالجماد، وشهر قومٌ بخصالٍ محمودة، فصاروا فيها أعلاماً فجروا مجرى ما قدّمناه، كالسموءل في الوفاء، وحاتم في السخاء، والأحنف في الحلم، وسحبان في البلاغة، وقسّ في الخطابة، ولقمان في الحكمة. وشهر آخرون بأضداد هذه الخصال، فشبّه بهم في حال الذم كباقل في العيّ، وهبنّقة في الحمق، والكسعيّ في النّدامة، والمتروف ضرطا في الجبن، ومارد في البخل.

والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، و لم يستغن أحدٌ منهم عنه.

وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلّ جيل ما يستدلُّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلّ لسان. فمن ذلك ما قال صاحب كليلة ودمنة: الدنيا كالماء الملح كلما ازددت منه شربا ازددت عطشا.

وقال صحبةُ الأشرار تورث الشرّ كالريح إذا مرّت على المنتن حملت نتنا، وإذا مرّت على الطيب حملت طيبا. وقال من لا يشكر له كان كمن نثر بذره في السّباخ، ومن أشار على معجب كان كمن سارّ الأصم. وقد نظمت هذا المعنى. فقلت:

ألا إنّما النعمى تجازى بمثلِها ... إذا كان مسدَاها إلى ما جدٍ حرٍّ

فأمّا إذا كانت إلى غيرِ ماجدٍ ... فقدْ ذهبت في غر أجرٍ ولا شكرِ

إذا المرءُ ألقَى في السّباخِ بذورهُ ... أضاعَ فلم ترجع بزرع ولا بذرِ

وقال: لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه كالمسك يخبأ ويستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح. أخذه الصاحب فكتب: فأنت أدام الله عزّك وإن طويت عنّا خبرك، وجعلت وطنك وطرك، فأنباؤك تأتينا، كما وشى بالمسك ريّاه، ونمّ على الصباح محيّاه.

وقال أيضاً: الرجلُ ذو المروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضا، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنيا كالكلب يهون على الناس وإن عسّى وطوّف.

وقال: المودّةُ بين الصالحين سريعٌ اتصالها بطئ انقطاعها كآنية الذهب التي هي بطيئة الإنكسار هيّنة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريعٌ انقطاعُها بطئٌ اتصالها كآنية الفخّار يكسرها أدنى شيء، ولا وصل لها.

وقال: لا يرّد بأس العدوّ القويّ بمثل التذلّل له، كما أنّ العشبَ إنما يسلمُ من الريح العاصف بلينه لها وانثنائه معها.

وقال: لا يحبّ للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف عنه، كالشيء المنتن كلما أثير ازداد نتنا.

وقال أيضاً: من صنع معروفاً لعاجل الجزاء فهو كملقى الحبّ للطير لا لينفعَها بل ليصيدها به.

وقال أيضاً: المالُ إذا كان له مدد يجتمع منه و لم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه، كالماء إذا اجتمع في موضع و لم يكن له طريقٌ إلى النفوذ تفجّر من جوانبه فضاع.

وقال أيضاً: الأدب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الأحمق سكراً، كالنهار يزيد البصير بصراً ويزيد الخفّاش سوء بصر.

وقد أحسن في هذا المعنى جعفر بن محمد رضى الله عنهما، فقال: الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد ريّاً ازداد مرارة.

وقال صاحب كليلة ودمنة: الدنيا كدودة القزّ لا تزداد بالإبريسم على نفسها لفّاً إلاّ ازدادت من الخروج بعداً.

وقال: إذا عثر الكريم لم ينتعش إلا بكريم، كالفيل إذا توحل لم يقلعه إلا الفيلة.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

وإذا الكريمُ كبتْ به أيامُه　　　لم ينتعش إلاّ بعطفِ كريم

وقال صاحب كليلة أيضاً: يبقى الصالح من الرّجال صالحا حتى يصاحب فاسداً، فإذا صاحبه فصد، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر، فإذا خالطته ملحت.

وقال بعض الحكماء: الدنيا كالمنجل استواؤها في اعوجاجها.

والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام يجرى على وجوه: منها تشبيه الشيء بالشيء صورة، مثل قول الله عز وجل: "والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم". أخذه ابن الرومي، فقال في ذم الدهر:

تأتي على القمر السّاري نوائبه　　　حتى يرَى ناحلاً في شخص عزْجُون

وأين يقع هذا من لفظ القرآن.

ومن ذلك قول امرئ القيس:

كأنّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً　　　لدى وكرِها العنّاب والحشقُ البالِي

وقوله أيضاً:

كأنَّ عيونَ الوحش حول خبائنَا　　　وأرحلنَا الجزعُ الذي لم يثقَّبِ

وقول عدي بن الرقاع:

تزجِى أغنَّ كأنَّ إبرةً روقهِ　　　قلمٌ أصابَ من الدَّواةِ مدادَها

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لوناً وحسناً، كقول الله عزّ وجل: "كأنّهنَّ الياقوتُ والمرجان". وقوله تعالى: "كأنّهنّ بيضٌ مكنون". وكقول حميد ابن ثور:

والليل قد ظهرَتْ نحيزَتُه　　　والشمسَ في صفراءَ كالورَسِ

وكقول الآخر:

قومٌ رباط الخيلِ وسطَ بيوتِهم وأسنَّةٌ زرقٌ يخلنَ نجومَا

ومنها تشبيهه به لوناً وسبوغاً، كقول امرئ القيس:

ومشدودةَ السَّكّ موضونةً تضاءلُ في الطّيِّ كالمبردِ

يفيضُ على المرءِ أردانُها كفيضِ الأتيِّ على الجدْجدِ

شبّه الدّرع بالأتّي في بياضها وسبوغِها، لأنها تعمُّ الجسد كما يعمّ الأتيّ الجدجد إذا تفجّر فيه، والأتى: السيل.

ومنها تشبيه به لوناً وصورة، كقول النابغة:

تجلُو بقامتي حمامةِ أيكةٍ برداً أسفَّ لثاتُه بالإثمدِ

كالأقحوانِ غداةَ غبّ سمائِه جفَّتْ أعاليِه وأسفله ندِى

شبَّه الثَّغر بالأقحوان لوناً وصورة، لأنَّ ورق الأقحوان صورتُه كصورة الثّغر سوداء، وإذا كان الثّغر نقيّاً كان في لونه سواء.

وكقول امرئ القيس:

جمعت ردينيّاً كأنَّ سنانه سنَا لهبٍ لم تتَّصلْ بدخانِ

ومما يتضمَّن معنى اللون وحده قولُ الأعشى:

وسبيئةٍ ممّا تعتّقُ بابلٌ كدمِ الذَّبيحِ سلبتُها جريالَها

وقول الشماخ:

إذا ما الليل كان الصبح فيه أشق كمفرقِ الرَّأس الدَّهين

وقول زهير:

وقد صار لونُ اللّيل مثلَ الأرندجِ

وقول امرئ القيس:

وليلٍ كموجِ البحرِ مرخٍ سدُولَه عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلى

وفي هذا معنى الهول أيضاً.

وقول كعب بن زهير:

وليلةِ مشتاقٍ كأنَّ نجومَها تفرَّقنَ منها في طيالسةٍ خضرِ

وقول ذي الرمة:

وليلٍ كجلباب العروسِ أًرَعَتُه		بأربعةٍ والشّخصُ في العين واحدُ

وقوله أيضاً:

وقدْ لاحَ للسّاري الذي كمّلَ السُّرَى		على أخريات اللّيلِ فتقٌ مشهَّرُ

كلونِ الحصانِ الأنبطِ البطنِ قائماً		تمايلَ عنهُ الجلُّ واللّونُ أشقرُ

ومنها تشبيهه به حركة، وهو قول عنترة:

غرداً يحكُّ ذراعَه بذراعهِ		قدحَ المكبِّ على الزّنادِ الأجّذم

وقول الأعشى:

غرَّاءٌ فرعاء مصقولٌ عوارضُهَا		تمشِي الهوينا كما يمشِي الوجى الوجلُ

وقول الآخر:

كأنَّ مشيتَها من بيتِ جارتِها		مرَّ السّحابةِ لا ريثٌ ولا عجلُ

وقول الآخر:

كأنّ أنوفَ الطّيرِ في عرصاتِهَا		خراطيمُ أقلامٍ تخطُّ وتعجم

ومنها تشبيهه به معنى، كقول النابغة:

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ		إذا طلعتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

وقوله:

فإنكَ كاللّيلِ الّذي هوَ مدركي		وإنْ خلتُ أنَّ المنتأى عنكَ واسعٌ

وكقول الآخر:

وكالسَّيفِ إنْ لاينتَه لان متنه		وحدَّاه إن خاشنتَهُ خشنانِ

وقول مسلم بن الوليد:

وإنّي وإسماعيلَ يومَ وداعهِ		لكالغمدِ يومَ الرَّوعِ فارقَه النّصلُ

وقوله:

فإنْ أغشَ قوماً بعدهُ أو أزرهُم		فكالوحشِ يدنيهَا من الآنس المحالُ

وقول الآخر:

والدَّهر يقرعُني طوراً وأقرعُه		كأنه جبلٌ يهوِى إلى جبلِ

وقول الآخر:

كم من فؤادٍ كأنَّه جبلٌ　　　أزالَه عن مقرّه النّظرُ

وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه، وهو كقول امرئ القيس:

له أيطلا ظبيٍ وساقَا نعامةٍ　　　وإرخاءٌ سرحانٍ وتقريب تتفُل

هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام، لأنّ الفرس لا يكون له أيطلا ظبي ولا ساقا نعامة ولا غيره مما ذكره، وإنما المعنى له أيطلان كأيلطي ظبيٍ وساقان كساقي نعامة. وهذا من بديع التشبيه، لأنه شبّه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد، وكذلك قول المرقش:

النَّشرُ مسكٌ والوجوه دنا　　　نير وأطراف الأكفِّ عنمْ

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد.

وضربٌ منه آخر، ومنه قول امرئ القيس:

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها　　　سموَّ حبابِ الماءِ حالا على حالِ

فحذف حرف التشبيه.

ثم نورد هاهنا شيئاً من غرائب التشبيهات وبدائعها، ليكون مادة لمن يريدُ العمل برسمنا في هذا الكتاب، فمن بديع التشبيه قول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطّيرَ رطباً ويابساً　　　لدى وكرهَا العنّابُ والحشفُ البَالِي

فشبَّه شيئين بشيئين مفصلا: الرطب بالعناب، واليابس بالحشف، فجاء في غاية الجودة.

ومثله قول بشار:

كأنّ مثار النَّقعِ فوق رءوسنا　　　وأسيافنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ

فشبَّه ظلمة الليل بمثار النَّقعْ، والسيوف بالكواكب.

وبيتُ امرئ القيس أجود، لأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً أشبهُ بالعنَّابِ والحشف من السيوف بالكواكب.

ومثل قول النمري:

ليلٌ من النَّقعِ لا شمسٌ ولا قمرَ　　　إلاّ جبينُك والمذروبةُ الشّرَّعُ

وقول العتابي:

مدّتْ سنابكُها من فوق أرؤسِهمْ　　　ليلاً كواكبُه البيض المباتيرُ

ومن بديع التشبيه قول الآخر:

تشرتْ إليَّ غدائراً من شعرِها حذرَ الكواشح والعدوّ الموبق

فكأنَّني وكأنَّهَا وكأنَّهُ صبحانِ باتا تحت ليلٍ مطبق

شبّه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء مفصّلة.

وقال البحتري:

تبسُّمٌ وقطوبٌ في ندىً ووغىً كالغيثِ والبرقِ تحتَ العارضِ البردِ

وأتمّ ما في هذا قول الوأواء:

وأسبلتْ لؤلؤاً من نرجسٍ فسقتْ ورداً وعضَّتْ على العنَّابِ بالبردِ

فشبّه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد: الدمع اللؤلؤ، والعين بالنرجس، والخدّ بالورد، والأنامل بالعنّاب، لما فيهنّ من الخضاب، والثّغر بالبرد. ولا أعرف لهذا البيت ثانيا في أشعارهم.

وقول البحتري:

كالسّيفِ في إخذامِه والعيث في إرهامِه واللَّيثِ في إقدامِه

فشبّه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء.

وقلت في مثله:

كالسَّيفِ في غمراتِه والبدرِ في ظلماتِه والغيثِ في أزمَاتِه

وقال البحتري:

شقائق يحملنَ النَّدَى فكأنّه دموعُ التَّصابي في خدُودِ الخرائد

فشبّه شيئين بشيئين.

ومثله قول أبي نواس:

يا قمراً أبصرتُ في مأتَم يندبُ شجواً بينَ أترابِ

يبكى فيلقى الدُّرَّ من نرجسٍ ويلطمُ الوردَ بعنَّابِ

أخذه بعض المتأخرين فقلبه هجاء فقال:

يا قردةً أبصرتُ في مأتم تندب شجواً بتخاليطِ

تبكى فتلقى البعرَ من كوَّةٍ وتلطمُ الشَّوكَ ببلوطِ

وشبهت الهلال تشبيهاً يتضمن صفته من لدن هو هلال إلى أن يكمل، فقلت:

وكؤوس إذا دجا الليل دارت تحت سقف مرصع باللجين

وكأن الهلال مرآة تبر ينجلي كل ليلة إصبعين

ومن بديع التشبيه قول سلمة بن عباس:

كأن بني ذالان إذ جاء جمعهم فراريج يلقى بينهن سويق

هذا لدقة أصواقم وعجلة كلامهم، وقوله:

حديث بني قرط إذا ما لقيتهم كنزو الدبا في العرفج المتقارب

وقال بعض المدثين وهو ابن نباتة في فرس أبلق أغر:

وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه فخاض في أحشائه

وقال آخر:

ليل يجر من الصباح ذلاذلا

ومن مليح التشبيه وبديعه قول ابن المعتز:

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشي في الدجى بسراج

وقوله في صفة فرس:

ومحجل غير اليمين كأنه متبختر يمشي بكم مسبل

وقال أعرابي:

بغزو كولغ الذئب غاد ورائح وسير كصدر السيف لا يتعرج

وقول لبن الرقاع:

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وقول الطرماح:

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد

وقول ذى الرمة في الحرباء:

ودوية جرداء جداء خيمت بها هبوات الصيف من كل جانب

كأن يدى حربائها متململاً يدا مذنب يستغفر الله تائب

وقوله فيها:

وقد جعل الحرباء يصفر لونه وتخضر من حر الهجير غباغبه

ويسبح بالكفين حتى كأنه أخو فجرة عالى به الجذع صالبه

أخذه البحتري فقال:

فتراه مطرداً على أعواده | مثل اطراد كواكب الجوزاء
مستشرفاً للشمس منتصباً لها | في أخريات الجذع كالحرباء

وقال ذو الرمة:

يصلى بها الحرباء للشمس مائلاً | على الجذل إلا أنه لا يكبر
إذا حول الظل العشى رأيته | حنيفا وفي قرن الضحى يتنصر

الحرباء: دويبة كالعظاية تأتي شجرة تعرف بالتنضبة فتمسك بيديها غصنين منها، وتقابل بوجهها الشمس، فكيفما دارت الشمس دارت معها، فإذا غربت الشمس نزلت فرعت.. والحرباء، فارسية معربة، وإنما هي خُربا، أي حافظ الشمس، والشمس تسمى بالفارسية خُر، وقد ملح ابن الرومي في ذكرها حيث يقول في قينة:

ما بالها قدْ حسنتْ ورقيبُها | أبداً قبيحٌ، قبِّح الرقباءُ
ما ذاك إلا أنها شمس الضحى | أبداً يكون رقيبها الحرباءُ

وقال ابن الرومي أيضاً في مصلوب:

كم بأرض الشآم غادرتَ منهم | غائراً موفياً على أهل نجدِ
يلعبُ الدَّستبندَ فرداً وإنْ | كان له شاغلُ عن الدَّستبندِ

وقال ابن المعتز:

وقد علا فوقَ الهلالِ كرته | كهامةِ الأسودِ شابتْ لحيتهُ

وقال:

ورأسه كمثل فرقٍ قد مطرْ | وصدغه كالصّولجان المنكسرْ

ومن بديع التشبيه قول الآخر:

بيضاء تسحبُ من قيام فرعَها | وتغيبُ فيه وهو جثلٌ أسحمُ
فكانها فيه نهار ساطع | وكأنه ليلٌ عليها مظلمُ

ومن بديعة قول مسلم:

أجدَّكِ ما تدرينَ أنْ ربَّ ليلةٍ | كأنَّ دجاها من قرونِك تنشرُ

وقول الفرزدق:

والشيبُ ينهض في الشّباب كأنه ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهارُ

وقلت:

شمس هوتْ وهلالُ الشهر يتبُعها كأنها سافرٌ قدّام منتقبِ
تبدو الثريا وأمرُ الليل مجتمعٌ كأنها عقربٌ مقطوعةُ الذَّنبِ

وقلت:

تلوحُ الثريا والظلامُ مقطِّبٌ فيضحك منها عن أغرَّ مفلَّجِ
تسير وراءً والهلالُ أمامَها كما أومأتْ كفٌّ إلى نصف دملجِ

وقال عبد الله بن المعتز:

أهلاً وسهلا بالناي والعودِ وكأس ساقٍ كالغصن مقدُودِ
قد انقضت دولة الصيام وقدْ بشّرَ سقمُ الهلالِ بالعيدِ

وقال آخر:

تبدو الثريا كفاغرٍ شرهٍ يفتحُ فاه لأكل عنقودِ

قال أبو الحرث: جميز فلان كالمشجب من حيث لقيته لا فقال أبو العبر:

لو كنتَ من شيء خلافك لم تكنْ لتكونَ إلاّ يشجباً في مشجبِ
يا ليتَ لي من جلد وجهك رقعة فأقدَّ منها حافراً للأشهبِ

وقال بعض الحكماء: العقل كالسيف والنظر كالمسنّ. ونظر عبادة إلى سوداء تبكى، فقال: كأنها تنّورُ شنان يكف، فنظمته وقلت:

سوداء تذرفُ دمعها مثل الأتونِ إذا وكفْ

وقال ابن المعتز:

وكأنَّ عقربَ صدغِه وقفتْ لما دنتْ من نار وجنتهِ

وقلت:

كأنَّ نهوض النجم الأفق أخضرٌ تبلجُ ثغرٍ تحت خضرةِ شاربِ

وقال أوس بن حجر:

حتى تلفَّ بدورِكمْ وقصورِكم جمعٌ كناصية الحصان الأشقَرِ

وقلت:

بكرنا إليه والظلامُ كأنه غرابٌ على عرفِ الصباح يرنّق

وقلت:

إذا التوى الصدْغُ فوق وجنته رأيتَ تفاحةً بها عضَّهْ

وقلت:

والغيم يأخذه ريح فتنفشُه كالقطنِ يندف في زرقِ الدبابيجِ

وقلت:

وقهوة من يد المغنوج صافيةٍ كأنها عصرتْ من خدّ مغنوجِ

وقلت:

قم بنا نذعر الهمومَ بكأسٍ والثريَّا لمفرقِ الليل تاجُ

وقد انجرّت المجرَّة فيه كسبيبٍ يمدّه نسَّاجُ

وقلت:

وكأنَّ النجومَ والليلُ داجٍ نقشُ عاجٍ يلوحُ في سقفِ ساجِ

وقلت:

كأن السّميريّات فيه عقارب تجئ على زرق الزجاج وتذهب

وقلت:

فأذريت دمعا بالدماء مصبَّغاً كما يتواهى عقدُ عقدٍ منسّقِ

وقد باشر الليل الصباحَ كأنه بقية كحلٍ في حماليقِ أزرقِ

وهذا الجنس كثير، وفيما أوردته كفاية إن شاء الله.

الفصل الثاني

في البيان عن قبح التشبيه وعيوبه

والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه في أول الباب، من إخراج الظاهر فيه إلى الخافي، والمكشوف إلى المستور، والكبير إلى الصغير، كما قال النابغة:

تحدِي بهم أدم كأنَّ رحَالها علق أريق على متونِ صوارِ

وقال لبيد:

فحمةً ذفراءَ ترتَى بالعُرى قردُمانيّاً وتركا كالبصلْ

وقال خفاف بن ندبة:

أبقى لها التعداء عن عتداتها ومتونِها كخيوطة الكتانِ

العتدات: القوائم، والمتون: الظهور، يقول: دقت حتى صارت متونها وقوائمها كالخيوط، وهذا بعيد جداً.

ومثل هذا محمود غير معيب عند أصحاب الغلو ومن يقول بفضله.

وإذا شبه أيضاً صغيراً بكبير وليس بينهما مقاربة فهو معيب أيضاً، كقول ساعدة ابن جؤبة:

كسَاها رطيبَ الريش فاعتدلتْ لها قداحٌ كأعناق الظباء الفوارِقِ

شبه السهام بأعناق الظباء وليس بينهما شبه. ولو وصفها بالدقة لكان أولى.

ومن معيب التشبيه قول بشر:

وجرّ الرامساتُ بها ذويلا كأن شمالها بعد الدّبور

رماد بين أظآرٍ ثلاثٍ كما وشم النواشرُ وبالنؤور

فشبَّه الشّمال والدبور بالرّماد.

ومن خطأ التشبيه قول الجعدي:

كأن حجاج مقلتها قليبٌ

والحجاج: العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب وليس هذا مما يغور، وإنما تغور العين. ومن التشبيه الكريه المتكلف قول زهير:

فزلَّ عنها ووافى رأس مرقبةٍ كمنصبِ العترِ دمَّى رأسَه النُّسُك

ومن التشبيه الردئ اللفظ قول أوس بن حجر:

كأن هِرّاً جنيباً تحت غرضتِها والتف ديكٌ برجليها وخنزيرٌ

وأعجب من هذا قول بشار:

وبعض الجود خنزير

ومن بعيد التشبيه قول أعرابي:

وما زلتَ ترجو نيلَ سلمى وودها وتبعد حتى أبيض منك المسايح

ملا حاجبيك الشيبُ حتى كأنه ظباء جرت، منها سنيحٌ وبارحُ

فشبَّه شعرات بيضاً في حاجبيه بظباء سوانح وبوارح. وقال أبو تمام:

كأنني حين جردت الرجاءَ له   عضبٌ صببت به ماءً على الزمن

ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا.

وكتب آخر إلى أخ له يعتذر من ترك زيارته: قد طلعت في إحدى أنثيي بثرة، فعظمت حتى كأنها الرمانة الصغيرة.

وقال عليّ الأسواري: فلما رأيته اصفرّ وجهي حتى صار كأنه لون الكشُّوث.

وقال له محمد بن الجهم: كم آخذ من الدواء الذي جئت به؟ قال: مقدار بعرة. فجاء بلفظ قذر، ولم يبن عن المراد، لأن البعر يختلف في الكبر والصغر، ولا يعرف أبعرة ظبي أراد أو بعرة شاة أم بعرة جمل.

ومن التشبيه المتنافر قول الجماني يصف ليلاً:

كأنما الطرف يرمى في جوانِبه   عن العمى وكأن النجم قنديل

اجتماع العمى والقنديل في غاية التنافر.

ومن ردئ التشبيه قول ابن المعتز:

أرى ليلاً من الشعر   على شمس من الناسِ

الجمع بين الليل والناس ردئ. وقد وقع ها هنا بارداً.

الباب الثامن

ذكر السجع والازدواج

لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغٍ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه. كقول الله تعالى: "الحمدُ لله الَّذي خلق السّموات والأرض وجعل الظمات والنور". وقوله عز وجل: "أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم". وقوله تعالى: "ولستُم بآخذيه إلاَّ أن تغمضوا فيه". وقوله تعالى: "يا أيها الناس اعبدوا ربَّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم". إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ما زوج بينه بالفواصل فهو كثير. مثل قوله تعالى: "فإذا فرغت فانصب، وإلى بك فارغب". وقوله سبحانه: "فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر". وقوله عز وجل: "والعصر إنَّ الإنسان لفي خسرٍ". وقوله جل ذكره: "وأنَّه هو أضحك وأبكى وأنَّه هو أمات وأحيا"، وهذا من المطابقة التي لا تجد في كلام الخلق مثلها حسناً ولا شدة اختصار، على كثرة المطابقة في الكلام. وكذلك جميع ما في القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمّن الطّلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق. ألا ترى قوله عز اسمه: "والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطنَ به جمعاً". قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى، من مثل قول الكاهن: والسماء والأرض، والقرض والفرض، والغمر والبرض. ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف. ولهذا ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل، قال له: أندى من لا شرب ولا أكل، ولا صاح، فاستهلّ، فمثل ذلك يطل: أسجعاً كسجع الكهان لأن التكلف في سجعهم فاش، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال: أسجعاً ، ثم سكت، وكيف يذمه ويكرهه، وإذا سلم من التكلّف، وبرئ من التعسّف لم يكن في جميع صفوف الكلام أحسن منه.

وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام، فمن ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسط، قال حدثنا محمد بن خالد بن عبد الله أبو شهاب عن عوف عن زرارة ابن أوفى عن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة انجفلَ الناسُ قبله، فقيل: قدم رسول الله، فجئت في الناس لأنظر إليه.

فلما تبينتُ وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء تكلم به أن قال: أيّها الناسُ، أفشوا السّلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلّوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".
وكان صلى الله عليه وسلم ربما غيّر الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها، كقوله صلى الله عليه وسلم: "أعيذه من الهامّة، والسّامّة، وكل عين لامّة". وغنما أراد ملمّة. وقوله عليه السلام: ارجعنَ مأزورات، غير مأجورات. وإنما أراد موزورات، من الوزر. فقال: مأزورات، لمكان مأجورات، قصداً للتوازن وصحة التسجيع.
فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلّف والخلو من التعسف. وقد اعتمد في موضع تجنب السجع وهو معرّض له، وكلامه كان يطالبه. فقال: "وما يدريك أنه شهيد، لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا ينفعه". ولو قال: بما لا يغنيه، لكان سجعا. والحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قوله: "ينفعه" كان أليق بالمقام فعدل إليه.

والسجع على وجوه: فمنها أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه. وهو كقول الأعرابي: سنة جردت، وحال جهدت، وأيد جمدت، فرحم الله من رحم، فأقرض من لا يظلم. فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان، والفواصل على حرف واحد. ومثله قول آخر من الأعراب، وقد قيل له: من بقى من إخوانك؟ فقال: كلب نابح، وحمار رامح، وأخ فاضح. وقال أعرابي لرجل سأل لئيماً: نزلت بواد غير ممطور، وفناء غير معمور، ورجل غير مسرور، فأقم بندم، أو ارتحل بعدم. ودعا أعرابي، فقال: اللهم هب لي حقّك، وأرض عني خلقك. وقال آخر: شهادات الأحوال، أعدل من شهادات الرجال. ودعا أعرابي، فقال: أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذّلّ إلى لك. وقال أعرابي ذهب بابنه السيل: اللهم إن كنت قد أبليت، فإنك طالما عافيت. وقيل لأعرابي: ما خير العنب؟ قال: ما أخضرّ عوده، وطال عموده، وعظم عنقوده. وقال أعرابي: باكرنا وسميّ، ثم خلفه وليّ فالأرض كأنها وشى منشور، عليه لؤلؤ منثور، ثم أتتنا غيوم جراد، بمناجل حصاد، فاحترثت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القويّ الأكول، بالضعيف المأكول.
فهذه الفصول متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض، بل في القليل منها، وقليل ذلك مغتفر لا يعتدّ به. فمن ذلك قوله: "فسبحان من يهلك القويّ الأكول" فيه زيادة على ما بعده وهو حسن.
ومنها أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة، فيكون الكلام سجعاً في سجع، وهو مثل قول البصير: حتى عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا. فالتعريض والتمريض سجع، والتصريح والتصحيح سجع آخر، فهو سجع في سجع، وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه

السجع. ومثل قول الصاحب: لكنه عمد للشوق فأجرى جياده عرّاً وقرحا، وأورى زناده قدحا فقدحا. وقوله: هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك. وقوله: وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تخلية نفسه، وينجز وعد الثقة في فك حبسه، فهذان الوجهان من أعلى مراتب الازدواج والسجع.

والذي هو دونهما: أن تكون الأجزاء متعادلة، وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم تكون من جنس واحد، كقول بعض الكتّاب: إذا كنت لا تؤتى من نقص كرم، وكنت لا أوتى من ضعف سبب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدول عن اغتفار زلل، أو فتوراً عن لمّ شعث، أو قصوراً عن إصلاح خلل. فهذا الكلام جيّد التوازن ولو كان بدل ضعف سبب كلمة آخرها ميم ليكون مضاهياً لقوله: "نقص كرم لكان أجود، وكذلك القول فيما بعده.

والذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب ولا بدّ منه هو الازدواج، فإن أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد، أو ثلاث، أو أربع لا يتجاوز ذلك كان أحسن، فإن جاوز ذلك نسب إلى التكلف. وإن أمكن أيضاً أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل، وإن لم يكن ذلك فينبغي أن يكون الجزء الأخير أطول، على أنه قد جاء في كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر، حتى جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه شيء كثير. كقوله للأنصار يفضّلهم على من سواهم: "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطّمع". وقوله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم". وكقول أعرابي: فلان صحيح النسب، مستحكم السبب، من أي أقطاره أتيته أتى إليك بحسن مقال، وكرم فعال. وقال آخر من الأعراب: اللهم اجعل خير عملي ما ولى أجلى.

وينبغي أيضاً أن تكون الفواصل على زنة واحدة، وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد، فيقع التعادل والتوازن، كقول بعضهم: اصبر على حرّ اللقاء، ومضض النزال، وشدة المصاع، ومداومة المراس. فلو قال: على حرّ الحرب، ومضض المنازلة، لبطل رونق التوازن، وذهب حسن التعادل.

ومن عيوب الازدواج التجميعي، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني، مثل ما ذكر قدامة: أن كاتباً كتب: وصل كتابك فوصل به ما يستعبد الحرّ، وإن كان قديم العبودية، ويستغرق الشكر، وإن كان سالف ودك لم يبق منه شيئاً، فالعبودية بعيدة عن مشاكلة منه.

ومن عيوبه التطويل، وهو أن تجئ بالجزء الأول طويلا، فتحتاج إلى إطالة الثاني ضرورة، مثل ما ذكر قدامة: أن كاتباً كتب في تعزية: إذا كان للمحزون في لقاء مثله أكبر الراحة في العاجل ... فأطال هذا الجزء وعلم أن الجزء الثاني ينبغي أن يكون طويلاً مثل الأول وأطول، فقال: وكان الحزن راتباً إذا رجع

إلى الحقائق وغير زائل. فأتى باستكراه، وتكلّف عجيب.

وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما في منظوم، وسجعاً في سجع. وهذا مثل قول امرئ القيس:

سليم الشّظى عبل الشّوى شنج النَّسا

وقوله:

وأوتاده ماذية وعماده ردينية فيها أسنة قعضبِ

وقوله:

فتورُ القيام قطيعُ الكم يفتر عن ذي غروب خصِر

وسمى أهل الصنعة هذا النوع من الشعر المرصّع، وستراه في موضعه مشروحاً مستقصى إن شاء الله تعالى.

الباب التاسع

شرح البديع

وهو خمسة وثلاثون فصلا

الفصل الأول في الاستعارة والمجاز، الفصل الثاني في التطبيق، الفصل الثالث في التجنيس، الفصل الرابع في المقابلة، والفصل الخامسة في صحة التّقسيم، الفصل السادس في صحة التفسير، الفصل السابع في الإشارة، الفصل الثامن في الأرداف والتوابع، الفصل التاسع في المماثلة، الفصل العاشر في الغلوّ، الفصل الحادي عشر في المبالغة، الفصل الثاني عشر في الكناية والتعريض، الفصل الثالث عشر في العكس والتبديل، الفصل الرابع عشر في التذييل، الفصل الخامس عشر في الترصيع، الفصل السادس عشر في الإيغال، الفصل السابع عشر في التّرشيح، الفصل الثامن عشر في رد الأعجاز على الصدور، الفصل التاسع عشر في التكميل والتتميم، الفصل العشرون في الالتفات، الفصل الحادي والعشرون في الاعتراض، الفصل الثاني والعشرون في الرجوع، الفصل الثالث والعشرون في تجاهل العارف، الفصل الرابع والعشرون في الاستطراد، الفصل الخامس والعشرون جمع المؤتاف والمختلف، الفصل السادس والعشرون في السلب والإيجاب، الفصل السابع والعشرون في الاستثناء، الفصل الثامن والعشرون في المذهب الكلامى، الفصل التاسع والعشرون في التشطير، الفصل الثلاثون في المحاورة، الفصل الحادي والثلاثون في الاستشهاد والاحتجاج، الفصل الثاني والثلاثون في التعطف، الفصل الثالث والثلاثون في المضاعف، الفصل الرابع والثلاثون في التطريز، الفصل الخامس والثلاثون في التطلف.

فهذه أنواع البديع التي ادّعى من لا رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخّم أمر المحدثين، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة.

وقد شرحت في هذا الكتاب فنونه، وأوضحت طرقه، وردت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع: التشطير، المحاورة، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف. وشذبت على ذلك فضل تشذيب، وهذبته زيادة تهذيب، وبالله أستعين على ما يزلف لديه، ويستدعى الإحسان من عنده. وهو تعالى وليه ومموليه إن شاء الله.

الفصل الأول

في الاستعارة والمجاز

الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضّمن ما لا تتضمنه الحقيقة، من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا.

والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة أن قول الله تعالى: "يوم يكشف عن ساق" أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الأمر، وإن كان المعنيان واحداً، ألا ترى أنك تقول لمن تحتاج إلى الجد في أمره: شمّر عن ساقك فيه، واشدد حيازيمك له، فيكون هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك: جدّ في أمرك، وقول دريد بن الصمة:

كميشُ الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقه   صبورٌ على العزّاء طلاَّعُ أنجدِ

وقال الهذليّ:

وكنتُ إذا جارى دعا لمضوفةٍ   أشمِّر حتى ينصفَ الساقَ مئزرِي

ومن ذلك قوله تعالى: "ولا يظلمون نقيراً"، "ولا يظلمون فتيلا"، وهذا أبلغ من قوله سبحانه: "ولا يظلمون شيئاً"، وإن كان في قوله: ولا يظلمون شيئاً أنفى لقليل الظلم وكثيره في الظاهر. وكذا قوله تعالى: "ما يملكون من قطمير" أبلغ من قوله تعالى: "ما يملكون شيئاً"، وإن كان هذا أنفى لجميع ما يملك في الظاهر. وتقول العرب: ما رزأته زبالا. والزّبال: ما تحمله النحلة بفيها، يريدون ما نقصته شيئاً. وقال النابغة:

يجمع الجيشَ ذا الألوفِ ويعدو   ثمَّ لا يرزأ العدوَّ فتيلا

ولو قلت أيضاً: ما يلمك شيئاً البتّة، وما يظلمون شيئاً لما عمل عمل قولك: ما يملكون قطميرا. ولا يظلمون نقيرا، وإن كان في الأول ما يؤكده من قولك: البتة، وأصلا. كذا حكاه لي أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان. وليس يقتضى هذا أنهم يظلمون دون النّقير، أو يملكون دون القطمير، بل هو نفيٌ لجميع الملك والظلم، لا يشك في ذلك من يسمعه.

وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة، ومن غير هذا النوع قوله تعالى: "سنفرغ لكمْ أيها الثّقلان" معناه سنقصد، لأنّ القصد لا يكون إلا مع الفراغ ها هنا معنى ليس في القصد وهو التوعد والتهديد. ألا ترى قولك: سأفرغ لك، يتضمن من الإيعاد ما لا

يتضّمنه قولك: سأقصد لك. وهكذا قوله تعالى: "وأفئدهم هواء"، أي لا تعي شيئاً، لأن المكان إذا كان خالياً فهو هواء حتى يشغله شيء. وقولك: هذا أوجز من قولك: لا تعى شيئاً، فلإيجازه فضل الحقيقة.

وكذلك قوله تعالى: "أعثرنا عليهم"، معناه أطلعنا عليهم. والاستعارة أبلغ، لأهما تتضمن غفلة القوم عنهم حتى اطلعوا عليهم، وأصله أن من عثر بشيء وهو غافل نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير عثرت مكان التبيين والإظهار. ومنه قول الناس: ما عرت من فلان على سوء قط، أي ما ظهرت على ذلك منه.

ومنه قوله عز اسمه: "أو منْ كانَ ميتاً فأحييناهُ وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمنْ مثله في الظّلمات ليس بخارج منها"، فاستعمل النور مكان الهدى، لأنه أبين، والظلمة مكان الكفر لأهما أشهر. وكذلك قوله تعالى: "ووضعنا عنكَ وزركَ الذي أنقضَ ظهركَ"، وأصلُ الوزر ما حمله الإنسان على ظهره. ومن ذلك قوله عز وجل: "ولكنّا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها" أي أحمالا من حليهم، فذكر الحمل وأراد الإثم لما في وضع الحمل عن الظهر من فضل الاستراحة، وحسن ذكر إنقاض الظهر وهو صوته لذكر الحمل، لأن حامل الحمل الثقيل جدير بإنقاض الظهر، والأوزار أيضاً: السلاح. ومنه قوله تعالى: "حتّى تضع الحربُ أوزارها". وقال الشاعر:

وأعددتُ للحرب أوزارها ... رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

وقوله تعالى: "ولستم بآخذيه إلاَّ أن تغمضوا فيه"، أي ترخصوا. والاستعارة أبلغ، لأن قولك: أغمض عن الشيء أدعى إلى ترك الاستقصاء فيه من قولك: رخص فيه. وكذلك قوله تعالى: "هنَّ لباسٌ لكمْ وأنتمْ لباسٌ لهنّ" معناه فإنه يماس المرأة وزوجها يماسّها. والاستعارة أبلغ، لأهما أدل على اللصوق وشدة المماسة. ويحتمل أن يقال: إهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامّان فيكون كل واحد منهما للآخر بمترلة اللباس، فيجعل ذلك تشبيهاً بغير أداة التشبيه.

ولا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة، كقول امرئ القيس:

وقد أغتدى والطيرُ في وكنَاتها ... بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات، والاستعارة أبلغ، لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف، لأنك تشاهد ما في القيد من المنع، فلست تشك فيه.

وكذلك قولهم: هذا ميزان القياس، حقيقته تعديل القياس، والاستعارة أبلغ، لأن الميزان يصورّ لك التعديل حتى تعاينه، وللعيان فضل على ما سواه. وكذلك: العروض ميزان الشعر، حقيقته تقويمه.

ولا بد أيضاً من معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه، والمعنى المشترك بين قيد الأوابد ومانع الأوابد هو الحبس وعدم الإفلات، وبين ميزان القياس وتعديله حصول الاستقامة وارتفاع الحيف والميل إلى أحد

الجانبين، وهكذا جميع الاستعارات والمجازات.

ومن ذلك قوله تعالى: "وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناهُ هباءً منثوراً" حقيقته عمدنا، وقدما أبلغ، لأنه دلّ فيه على ما كان من إمهاله لهم، حتى كأنه كان غائباً عنهم، ثم قدم فاطلع منهم على غير ما ينبغي فجازاهم بحسبه، والمعنى الجامع بينهما العدل في شدة النكير، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل. وأما قوله: "هباء منثوراً" فحقيقته أبطلناه حتى لم يحصل منه شيء، والاستعارة أبلغ، لأنه إخراج ما لا يرى إلى ما يرى.

والشاهد أيضاً على أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة أن قوله تعالى: "إنا لمّا طغى الماءُ حملناكمْ في الجارية" حقيقته علا وطما، والاستعارة أبلغ، لأن فيها دلالة القهر، وذلك أن الطغيان علوّ فيه غلبة وقهر. وكذلك قوله تعالى: "بريح صرصرٍ عاتية" حقيقته شديدة، والاستعارة أبلغ، لأن العتو شدّة فيها تمرد. وقوله تعالى: "سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكادُ تميّز من الغيظ" حقيقة الشهيق هاهنا الصوت الفظيع، وهما لفظتان، والشهيق لفظة واحدة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان. وتميّز: حقيقتُه تنشق من غير تباين، والاستعارة أبلغ، لأن التميز في الشيء هو أن يكون كلّ نوعٍ منه مبايناً لغيره وصائراً على حدته، وهو أبلغ من الانشقاق، لأن الانشقاق قد يحصل في الشيء من غير تباين، والغيظ حقيقته شدة الغليان، وإنما ذكر الغيظ، لأن مقدار شدته على النفس مدرك محسوس، ولأن الانتقام منا يقع على قدره، ففيه بيان عجيب وزجر شديد لا تقوم مقامه الحقيقة البتة.

وقوله تعالى: "ولمّا سكت عن موسى الغضب" معناه ذهب، وسكت أبلغ، لأن فيه دليلاً على موقع العودة في الغضب إذا تؤمل الحال، ونظر فيما يعود به عبادة العجل من الضرر في الدين، كما أن الساكت يتوقّع كلامه.

وقوله تعالى: "ذرني ومن خلقتُ وحيداً". وحقيقته ذر بأسي وعذابي، إلا أن الأول أبلغ في التهدد، كما تقول إذا أردت المبالغة والإيعاد: ذرني وإياه، ولو قال: ذر ضربي له وإنكاري عليه لم يسدّ ذلك المسد، ولعله لم يكن حسناً مقبولا. وقوله عز وجل: "فمحونا آية اللّيلِ معناه كشفنا الظلمة، والأول أبلغ، لأنك إذا قلت: محوت الشيء فقد بينت أنك لم تبق له أثراً، وإذا قلت: كشفت الشيء مثل الستر وغيره لم تبن أنك أذهبته حتى لم تبق له أثراً. وقوله سبحانه: "وجعلنا آية النّهارِ مبصرةً" حقيقته مضيئة، والاستعارة أبلغ، لأنها تكشف عن وجه المنفعة، وتظهر موقع النعمة في الإبصار.

وقوله تعالى: "واشتغل الرأس شيباً" حقيقته كثر الشيب في الرأس وظهر، والاستعارة أبلغ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه، ولأنه لا يتلافى انتشاره في الرأس، كما

لا يتلافى اشتعال النار. وقوله تعالى: "بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه"، حقيقته بل نورد الحقّ على الباطل فيذهبه. والقذف أبلغ من الإيراد، لأن فيه بيان شدة الوقع وفي شدة الوقع بيان القهر، وفي القهر ها هنا بيان إزالة الباطل على جهة الحجة، لا على جهة الشك والارتياب، والدمغ أشد من الإذهاب، لأن في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس في الإذهاب. وقوله تعالى: "عذاب يوم عقيم" وقوله عز اسمه: "إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم" فالعقيم التي لا تجئ بولد، والولد من أعظم النعم، وأجسم الخيرات، ولهذا قالت العرب: شوهاء ولودٌ، خير من حسناء عقيم. فلما كان ذلك اليوم لم يأت بمنفعة حين جاء، و لم يبق خيراً حين مر سمى عقيما. ويمكن أن يقال: إنما سمى عقيما لأنه لم يبق أحداً من القوم، كما أن العقيم لا يخلف نسلا، وسمى الريح، عقيما لأنها لم تأت بمطر ينتفع به ويبقى له أثر من نبات وغيره، كما أنّ العقيم من النساء لا تأتي بولد يرجى.

وفضل الاستعارة على الحقيقة في هذا أنّ حال العقيم في هذا أظهر قبحاً من مال الريح التي لا تأتي بمطر، لأن العقيم كانت عند العرب أكره وأشنع من ريح لا تأتي بمطر، ولأن العادة في أكثر الرياح ألا تأتي بمطر، وليست العادة في النساء أن يكون أكثرهن عقيما.

وقوله تعالى: "وآيةٌ لهم الّليل نسلخ منه النهار"، وهذا الوصف إنما هو على ما يتلوح للعين لا على حقيقة المعنى، لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه لغروب الشمس وإضاءته لطلوعها، وليسا على الحقيقة شيئين يسلخ أحدهما من الآخر، إلا أنهما في رأي العين كأنهما ذلك، والسلخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض، فلما كانت هوادي الصبح عند طلوعه كالملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ، فكان أفصح من قوله: يخرج، لأن السلخ أدل على الالتحام المتوهّم فيهما من الإخراج.

وقوله تعالى: "فأنشرنا به بلدةً ميتا"، من قولهم: أنشر الله الموتى فنشروا، وحقيقته أظهرنا به النبات، إلا أن إحياء الميت أعجب، فعبر عن إظهار النبات به فصار أحسن من الحقيقة.

وقوله تعالى: "وتودّون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم"، يعني الحرب، فنّبه على ما له تخاف الحرب، وهو شوكة السلاح وهي حدّه، فصار أحسن من الحقيقة لإنبائه عن نفس المحذور. ألا ترى أن قولك لصاحبك: لأوردنّك على حدّ السيف، أشدّ موقعا من قولك له: لأحاربنّك.

وقوله تعالى: "وإذا مسّه فذو دعاء عريض"، أي كثير. والاستعارة أبلغ، لأن معنى العرض في مثل هذا الموضع التمام. قال كثيّر:

أنت ابن فرعي قريشٍ لو تقايسها في المجد صار إليك العرضُ والطولُ

أي صار إليك المجد بتمامه، وقد يكون كثير غير تام.

وقوله تعالى: "والصّبحِ إذا تنفّس"، حقيقته إذا انتشر، وتنفس أبلغ لما فيه من بيان الرّوح عن النفس عن إضاءة الصّبح لأن الليل كرباً وللصبح تفرّجا قال الطرماح:

على أنّ للعينينِ في الصّبح راحةً بطرحهما طرفيهما كلَّ مطرحِ

والراحة التي يجدها الإنسان عند التنفس محسوسة.

وقوله تعالى: "مستهمُ البأساءُ والضّرّاءُ وزلزلوا"، حقيقته أزعجوا، والزلزلة أبلغ، لأنها أشد من الإزعاج ومن كل لفظة يعبر بها عنه أيضاً.

وقوله تعالى: "أفرغ علينا صبراً"، حقيقته صبّرنا، والاستعارة أبلغ، لأن الإفراغ يدل على العموم معناه ارزقنا صبراً يعمّ جميعنا كإفراغك الماء على الشيء فيعمّه.

وقوله سبحانه: "ضربتْ عليهمُ الذّلّةُ"، حقيقته حصلت، إلا أن للضرب تبييناً ليس للحصول، وقالوا: ضرب على فلان البعث، أي أوجب وأثبت عليه، والشيء يثبت بالعرب ولا يثبت بالحصول، والضرب أيضاً ينبئ عن الإذلال والنقص، وفي ذلك الزّجر وشدة النقير عن حالهم.

وقوله تعالى: "فنبذوه وراءَ ظهورهم"، حقيقته غفلوا عنه، والاستعارة أبلغ، لأن فيه إخراج ما لا يرى إلى ما يرى، ولأن ما حصر وراء ظهر الإنسان فهو أحرى بالغفلة عنه مما حصل قدامه.

وقوله تعالى: "أنزل علينا مائدة من السّماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا"، حقيقته ذات سرور، والاستعارة أبلغ، لأن العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند الصّغير والكبير، فتضمن من معنى السرور ما لا تتضمّنه الحقيقة.

وكذلك قوله عز اسمه: "وإذا رأيت الّذين يخوضون في آياتنا". وقوله تعالى: "فدلاّهما بغرور"، أخرج ما لا يرى من تنقّصهم بآيات القرآن إلى الخوض الذي يرى. وعبّر عن فعل إبليس الذي لا يشاهد بالتدلّي من العلوّ إلى سفل وهو مشاهد. ولما كانوا يتكلمون في آيات القرآن، وينتقصونها بغير بصيرة شبّه ذلك بالخوض، لأن الخائض بطأ على غير بصيرة.

وكذلك قوله تعالى: "ويبغونها عوجاً"، حقيقته خطأ، لأن الأعوجاج مشاهد والخطأ غير مشاهد. وكذلك قوله سبحانه: "أو آوى إلى ركنٍ شديد"، أي إلى معين، والاستعارة أبلغ، لأن الركن مشاهد، والمعين لا يشاهد من حيث أنه معين.

وكذلك قوله تعالى: "ولا تجعل يدكَ مغلولة إلى عنقك"، حقيقته لا تكوننّ ممسكا، والاستعارة أبلغ، لأن الغل مشاهد والإمساك غير مشاهد، فصور له قبح صورة المغلول ليستدل به على قبح الإمساك.

وقوله تعالى: "ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر"، حقيقته لنرينّهم، والاستعارة أبلغ، لأن حسّ الذائق لإدراك ما يذوقه قوى، وللذوق فضل على غيره من الحواسّ. ألا ترى أنّ الإنسان إذا رأى شيئاً و لم يعرفه شمّه فإن عرفه وإلا ذاقه، لما يعلم أن للذوق فضلاً في تبين الأشياء.

وقوله تعالى: "فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً"، حقيقته منعناهم بآذانهم، من غير صمم يبطل آلة السمع، كالضرب على الكتاب يمنع من قراءته ولا يبطله، والاستعارةُ أبلغ، لإيجازه وإخراج ما لا يرى إلى ما يرى.

وقوله عز اسمه: "وإذا غربت تقرضهُم ذاتَ الشّمال" ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح من هذا، وحقيقة القرض ها هنا أن الشمس تمسّهم وقتاً يسيراً ثم تغيب عنهم، والاستعارة أبلغ، لأن القرض أقل في اللفظ من كل ما يستعمل بدله من الألفاظ، وهو دال على سرعة الارتجاع، والفائدة أن الشمس لو طاولتهم بحرّها لصهرتهم، وإنما كانت تمسّهم قليلاً بقدر ما يصلح الهواء الذي هم فيه، لأن الشمس إذا لم تقع في مكان أصلاً فسد.

فهذه جملة مما في كتاب الله عز وجل من الاستعارة، ولا وجه لاستقصاء جميعه، لأن الكتاب يخرج عن حده.

وأما ما جاء في كلام العرب منه، فمثل قولهم: هذا رأس الأمر ووجهه، وهذا الأمر في جنب غيره يسير، ويقولون: هذا جناح الحرب وقلبها. وهؤلاء رؤوس القوم وجماجمهم وعيونهم. وفلان ظهر فلان، ولسان قومه ونابهم وعضدهم وهذا كلام له ظهر وبطن. وفي العرب بالجماجم، والقبائل والأفخاذ، والبطون، وخرج علينا عنق من الناس. وله عندي يد بيضاء، وهذه سرّة الوادي، وبابل عين الأقاليم، وهذا أنف الجبل، وبطن الوادي، ويسمون النبات نوءاً. قال:

وجف أنواءُ السّحاب المرتزق

أي جفّ البقل، ويقولون للمطر: سماء. قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قومٍ ... رعيناهُ وإن كانوا غضابا

ويقولون: ضحكت الأرض، إذا أنبتت، لأنها تبدى عن حسن النبات كما يفتر الضاحك عن الثغر، ويقال: ضحكت الطلعة. والنور يضاحك الشمس. قال الأعشى:

يضاحك الشمسَ منها كوكب شرقُ ... مؤزّر بعميم النبتِ مكتهلُ

ويوقولن: ضحك السحاب بالبرق، وحنّ بالرعد، وبكى بالقطر. ويقولون: لقيت من فلان عرق القربة، أي شدة ومشقة. وأصل هذا أنّ حامل القربة يتعب من نقلها حتى يعرق. ويقولون أيضاً: لقيت منه عرق الجبين، والعرب تقول: بأرض فلان شجر قد صاح، وذلك إذا أطال فتبين للناظر بطوله، ودل على نفسه، لأنّ الصائح يدل على نفسه. ويقولون: هذا شجر واعد، إذا أقبل بماء ونضرة، كأنه يعد بالثمر، قال سويد بن أبي كاهل:

لعاعٌ تهاداه الدكادك واعدُ

ومثله قوله الشاعر:

يريد الرمحُ صدر أبي براءٍ ويرغبُ عن دماءِ بني عقيل

ومثله قوله تعالى: "جداراً يريدُ أن ينقضَّ".

وأنشد الفراء:

إنَّ دهراً يلفّ شملي بسلْمى لزمانٌ يهمُّ بالإحسانِ

ومما في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضى الله عنهم، ونثر الأعراب، وفصول الكتاب من الاستعارة قوله صلى الله عليه وسلم: "الخيل معقود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة".

وقال طفيل:

وللخيل أيامٌ فمن يصطبرْ لها ويعرفْ لها أيامَها الخيرَ تعقبِ

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كلّما سمع هيعةُ طار إليها". وقوله صلى الله عليه وسلم: "أكثروا من ذكر هادم اللذات". وقال عليه الصلاة والسلام: "البلاء موكّل بالمنطق". ورأى عليّاً مع فاطمة رضى الله عنهما في بيت فردّ عليهما الباب وقال: "جدع الحلال أنفَ الغيرة".

وقال عليّ رضى الله عنه: السفر ميزان القوم. وقوله: فأما وقد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئ وما يختار. وقوله لابن عباس رضى الله عنه: أرغب راغبهم، واحلل عقدة الخوف عنهم. وقوله: العلم قفلٌ ومفتاحه المسألة. وقوله: الحلم والأناة توأمان،نتيجتهما علوّ الهمة. وقوله لبعض الخوارج: والله ما عرفته حتى فغر الباطل فمه، فنجمت نجوم قرن الماعزة. وقال في بعض خطبه يصف الدنيا: إن امرأ لم يكن منها في فرحة، إلا أعقبته بعدها ترحة، و لم يلق من سرّائها بطناً، إلا منحته من ضرّائها ظهراً، و لم تظله فيها غيابه رخاء، إلا هبّت عليه مزنة بلاء، و لم يسم منها في جناح أمن، إلا أصبح منها على قوادم خوف.

وقال أبو بكر رضى الله عنه: إن الملك إذا ملك زهده الله في ماله، ورغبه فيما في يدي غيره، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل، ويسخط الكثير، جذل الظاهر، حزين الباطن. فإذا وجبت نفسه،

ونضب عمره، وضحا ظلّه، حاسبه الله عز وجل فأشد حسابه، وأقل عفوه.

وكتب خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى مرازبة فارس: الحمد لله الذي فضّ خدمتكم وفرّق كلمتكم. وقالت عائشة رضى الله عنها: كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة. وقال الحجاج: دلوني على رجل سمين الأمانة، أعجف الخيانة. وقال عبد الله بن وهب الراسبي لصحابه: لا خير في الرأي الفطير، والكلام العضيب، فلما بايعوه، قال: دعوا الرأي يغبُّ فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه. وقيل لأعرابي: إنك لحسن الكدنة، قال: ذاك عنوان نعمة الله عندي. وقال أكثم بن صيفي: الحلم دعامة العقل. وسئل عن البلاغة فقال: دنوّ المأخذ، وقرع الحجة، وقليل من كثير. وقال خالد بن صفوان لرجل: رحم الله أباك، فإنه كان يقرى العين جمالا، والأذن بيانا. وقيل لأعرابية: أين بلغت قدرك، قالت: حين قام خطيبها. وقيل لأعرابية: كم أهلك؟ قالت: أب وأم وثلاثة أولاد، أنا سبيل عيشهم. وقيل لرؤبة: كيف تركت ما وراءك؟ قال: التراب يابس، والمال عابس. وقال المنصور لبعضهم: بلغني أنك بخيل، فقال: ما أجمد في حق، ولا أذوب في باطل. وقال إبراهيم الموصلي: قلت للعباس بن الحسن: إني لأحبك قال: رائد ذاك عندي. وقال بعضهم: الاستطالة لسان الجهالة. وقال يحيى بن خالد: الشكر كفء النعمة. وقال أعرابي: خرجت ي ليلة حندس، ألقت على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنا نتعارف إلا بالآذان. وقال أعرابي لآخر: يسار النفس خير من يسار المال، ورب شبعان من النّعم، غرثان من الكرم. وغزت نميراً حنيفة فاتبعتهم نمير، فأتوا عليهم، فقيل لرجل: كيف كان القوم؟ فقال: أتبعوهم والله رفدا حقبوا كل جماليّة خيفائة، فما زالوا يحصفون آثار المطي بحوافر الخيل، فلما لقوهم جعلوا المرّان أرشية الموت، فاستقوا بها أرواحهم. وقال آخر: فلان أملس، ليس فيه مستقر لخير، ولا لشر. وقال أحمد بن يوسف وقد شتمه رجل بين يدي المأمون: رأيته يستملى ما يلقاني به من عينيك. وقيل لأعرابي: أي الطعام أطيب؟ قال: الجوع أبصر. ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان يفتح من الرأي أبوابا منسدة، ويغسل من العار وجوها مسودّة. ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله إذا عرضت له زينة الدنيا هجّنتها زينة الحمد عنده، وإن للصنائع لغارة على أمواله كغارة سيوفه على أعدائه. ومدح أعرابي قوماً فقال: أولئك غرر تضئ من ظلم الأمور المشكلة، قد صغت آذان المجد إليهم. وقال أعرابي يمدح رجلاً: إنه ليعطى عطاء من يعلم أن الله مادته. ومدح أعرابي رجلاً، فقال: لسانه أحلى من الشهد، وقلبه سجن للحقد. ومدح أعرابي رجلاً فقال: إن أسأت إليه أحسن، وكأنه المسيء، إن أجرمت إليه غفر، وكأنه المجرم، اشترى بالمعروف عرضه من الأذى، فهو وإن كانت له الدنيا بأسرها فوهبها، رأى بعد ذلك عليه حقوقاً، لا يستعذب الخنا، ولا يستحسن غير الوفا.

وذم أعرابي رجلاً فقال: يقطع نهاره بالمنى، ويتوسد ذراع الهمّ إذا أمسى. وذم أعرابي رجلاً فقال: إن فلاناً ليقدم على الذنوب إقدام رجل قدم فيها نذراً، أو يرى أنّ في إتيانها عذرا. وقال أعرابي لرجل: لا تدنس شعرك بعرض فلان، فإنه سمين المال، مهزول المعروف، قصير عمر المنى، طويل حيات الفقر. وسأل أعرابي فقيل له: عليك بالصيارف، فقال: هناك قرارة اللؤم. وذكر أعرابي قوماً فقال: أولئك قوم قد سلخت أقفاؤهم بالهجاء، ودبغت جلودهم باللؤم، فلباسهم في الدنيا الملامة، وزادهم في الآخرة الندامة. وذمّ أعرابي قوما فقال: هم أقل دنواً إلى أعدائهم، وأكثر تجرّما على أصدقائهم، يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء. وذمّ أعرابي رجلاً فقال: ذاك رجل تعدو إليه مواكب الضلالة، ويرجع من عنده ببدر الآثام، معدم مما يحب، مثر مما يكره.

وقال أعرابي: ما أشدّ جولة الهوى وفطام النفس عن الصّبا، ولقد تصدعت نفسي للعاشقين، لوم العاذلين قرطة في آذانهم، ولو عات الحب نيران في أبدانهم. وقال أعرابي: ما رأيت دمعة ترقرق في عين، وتجري على خد، أحسن من عبرة أمطرتها عينها، فأعشب لها قلبي. وقال أعرابي وذكر قوماً زهاداً فاز قومٌ أدّبتهم الحكمة، وأحكمتهم التجارب، ولم تغررهم السّلامة المنطوية على الهلكة، ورحل عنهم التسويف الذي قطع به الناسُ مسافة آجالهم، فأحسنوا المقال، وشفعوه بالفعال، تركوا النعيم ليتنعموا، لهم عبرات متدافعة، لا تراهم إلا في وجه عند الله وجيها. ووصف أعرابي والياً فقال: كان إذا ولّى طابق من جفونه، وأرسل العيون على عيونه، فهو شاهد معهم، غائب عنهم، فالمحسن آمن، والمسيء خالف. ووصف أعرابي داراً فقال: هي والله معتصرة الدموع، جرّت بها الرياح أذيالها، وحلّت بها السحاب أثقالها. وذكر أعرابي رجلاً فقال: كان الفهم منه ذا أذنين، والجواب منه ذا لسانين، لم أر أحداً كان أرتق لخلل الرأي منه، كان والله بعيد مسافة الرأي، يرمي بطرفه حيث أشار الكرم، يتحسّى مرارة الإخوان، ويسيغهم العذب. ووصف أعرابي قومه فقال: كانوا والله إذا اصطفوا تحت القتام سفرت بينهم السهام، بوقوف الحمام، وإذا تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا أفواهها، فكم من يوم عارم قد أحسنوا أدبه، وحرب عبوس قد ضاحكتها أسنتهم، وخطب شين، قد ذللوا مناكبه، إنما كانوا كالبحر الذي لا ينكش غماره، ولا ينهنه تيّاره. وقيل لأعرابي: يزعم فلان أنه كساك ثوبا، فقال: إن المعروف إذا أمرَّ كدّر، وإذا محض امرّ، ومن ضاق قلبه اتسع لسانه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: كلامه منقوض آثار القطا، وهو من ذا رثّ عقال المودة، مسودّ وجه الصداقة، ولئن كان لبنى الآدميين سباخ إنه لمن سباخ بني آدم.

وقيل لأعرابي: لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقال معاوية: العيال أرضة المال. وقال خالد بن صفوان: إياكم ومجانيق الضعفاء. وقال: لا تضع معروفك عند فاجر، ولا أحمق، ولا لئيم، فإن الفاجر يرى ذلك ضعفاً، والأحمق لا يعرف ما أوتى إليه فيشكره على مقدار عقله، واللئيم سبخة لا ينبت شيئاً ولا يثمر، ولكن إذا رأيت الثرى فازرع المعروف تحصد الشكر، وأنا الضامن.

وأهدت امرأة من العجم إلى هوىً لها في يوم نوروز ورداً وكتبت إليه: هذا اليوم أحدُ فتيان الدهر وشاب أقسامه، والقصف فيه عروس، والورد في البرد كالدر في النّحر، وقد بعثت إليك منه مهراً ليومك، فزوّج السرور من النفس، والطرب من القلب، ولا تستقل براً، فإنا لا نستكثر على قبوله شكراً.

وقال آخر في رجل: ماذا تثير الخبرة من دفائن كرمه. وقال أعرابي لخصمه: أما والله لئن هملجت إلى الباطل، إنك عن الحق لقطوف، ولئن أبطأت عنه لتسرعن إليه، فالعلم أنه إن لم يعد لك الحق عد لك الباطل، والآخرة من ورائك. وقال آخر: الخط مركب البيان. وقال آخر: القلم لسان اليد. وسمعت بعض الأطباء يقول: الماء مطية الطعام.

وقال الحسن بن وهب لكاتبه: لا ترق ماء معروفي بالمن، فإن اعتدادك بالعرف يعقل لسان الشكر.

وأمثال هذا كثير في منثور الكلام وفيما أوردته كفاية إن شاء الله.

فأما الاستعارة من أشعار المتقدمين فمثل قول امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر مرخٍ سدولَه ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلِي

فقلت له لما تمطّى بصلبِه ... وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ

وقال زهير:

صحا القلبُ عن ليلى وأقصر باطله ... وعرّى أفراسُ الصبّا ورواحُلهْ

وقول امرئ القيس:

فبات عليه سرجُه ولجامه ... وباتَ بعيني قائما غير مرسلِ

أي كن أراه وأحفظه، وعلى هذا مجاز قوله عز وجل: "تجري بأعيننَا". وقال زهير:

إذا سدَّتْ به لهواتُ ثغرٍ ... يشار إليه جانبُه سقيمُ

وقال النابغة:

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همهِ ... تضاعفَ فيه الحزنُ من كلِّ جانبِ

وفي هذا البيت ماء وطلاوة ليس مثله في بيت زهير. وقال عنترة:

جادتْ عليه كلُّ بكرٍ حرَّةٍ ... فتركنَ كلَّ قرارةٍ كالدّرهمِ

وقال مهلهل:

تلقى فوارسَ تغلبَ ابنةِ وائلٍ   يستطعمونَ الموتَ كل همَام

وقال زهير:

إذا لقحتْ حربٌ عوانٌ مضرَّةٌ   ضروسٌ تهرُّ الناسَ أنيابُها عصلُ

أخذه من قول أوس بن حجر:

وإني امرؤ أعددتُ للحربِ بعدَما   رأيتُ لها ناباً من الشَّرِّ أعصَلا

وقال المسيّب بن علس:

وإنهم قد دعوا دعوةً   سيتبعها ذنبٌ أهلب

أراد جيشا كثيفا.

وقال الأسود بن يعفر:

فأدِّ حقوقَ قومك واجتنبهم   ولا يطمح بك العز الفطير

أراد عزّاً ليس بالمحكم كفطير العجين، والفطير من الجلد: ما لم يدبغ.

وقال طفيل الغنوى:

وجعلتُ كورى فوقَ ناجيةٍ   يقتاتُ شحم سنامها الرَّحلُ

وقال الحرث بن حلزة:

حتى إذا التفع الظباءُ بأطرا   ف الظّلالِ وقلنَ في الكنَّس

الالتفاع: ليس اللّفاع وهو اللّحاف. ومثله قول الشّماخ:

إذا الأرطى توسدَ أبرَديه   خدودُ جوازئ بالرملِ عينِ

أبراداه: ظلّ الغداة والعشىّ. توسدته: جعلته بمنزلة الوسادة.

وقال آخر:

ومهمهٍ فيه السرابُ يسبحُ   يدأب فيه القومُ حتى يطلَحوا

ثم يبيتونَ كأن لم يبرحوا   كأنما أمسوا بحيث أصبحوا

وقال عمرو بن كلثوم:

ألا أبلغِ النُّعمان عنّى رسالةً   فمجدُك حوليٌّ ولؤمُك فارحُ

وقال الحطيئة:

ألا يا لقلبٍ عارم النظراتِ

وقال الجعديّ:

فإن يطفُ أصحابُه يرسبُ

وقال أبو ذؤيب:

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها

وقال أبو خراش الهذلي:

أردّ شجاع البطنِ لو تعلمينهُ   وأوثر غيري من عيالكِ بالطعم

وقال لبيد:

فبتلكَ إذ رقصَ اللوامعُ بالضُّحَى   واجتاب أرديةَ السرابِ إكامُها

وقال أيضاً:

وغداة ريحٍ قدْ كشفتُ وقرَّةٍ   إذ أصبحتْ بيد الشَّمالِ زمامُها

وقال أوس بن مغراء:

يشيبُ على لومِّ الفعال كبيرُها   ويغذى بثدى اللؤم منها وليدُها

وقال الأخطل:

وأهجر هجرانا جميلا وينتحى   لنا من ليالينا العوازمِ أولُ

وقال آخر:

قوم إذا الشر أبدى ناجذَبه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

وقال:

هم ساعدُ الدهرِ الَّذي يتَّقى به   وما خيرُ كفٍّ لا تنوء بساعدِ

وقال آخر:

سأبكيكَ للدُّنيا وللدّين إنني   رأيتُ يدَ المعروف بعدك شلَّتِ

وقال المقنّع:

أسدّ به ما قد أخلُّوا وضيعوا   ثغورَ حقوق ما أطاقوا لها سدَّا

وقال آخر:

وذابَ للشمس لعاب فنزلْ

أخذه من قول النابغة:

إذا الشَّمسُ مجَّتْ ريقَها بالكلاكل

وقال آخر:

جاءَ الشّتاء واجثالَّ القبَّرُ   وطلعت شمسٌ عيها مغفرُ

جعل قطعة السحاب إلى جانب الشمس مغفراً لها، واجثأل:انتفش.

وقال الحطيئة:

وما خلتُ سلمى قبلها ذاتَ رحلةٍ   إذا قسوريُّ الليل جيبت سرابلُهْ

وقال أيضاً:

ولوا وأعطونا الذي سُئِلوا   من بعد موتِ ساقطٍ أزره

إنا لنكسوهم وإنْ كرُموا   ضرباً يطير خلاله شرره

وقال أبو داود:

وقد اغتدى في بياض الصّباح   وأعجازِ ليلٍ مولّى الذَّنبْ

وقال الأفوه:

عافوا الإتاوةَ واستقتْ أسلافُهم   حتى ارتووا عللا بأذنبة الردَى

وقال ابن مناذر:

بأشيةٍ أطرافها في الكواكبِ

وقال الأخطل:

حتى إذا افتض ماءُ المزن عذرَتها   راحَ الزجاجُ وفي ألوانه صهبُ

وقال غيره:

وجيش يظلّ البلق في حجراتِه   ترى الأكم فيه سجداً للحوافرِ

وقال ذي الرُّمة:

سقاه الكرى كأنس النعاسِ فرأسُه   لدينِ الكَرى من آخر الليل ساجِد

قوله: سقاه الكرى جيد. وقوله: لدين الكرى بعيد عندي.

وقال مضرس ابن ربعيّ:

أذود سوامَ الطرف عنك وماله   على أحدٍ إلاّ عليك طريق

وقال تأبط شراً:

ويسبقُ وفدَ الرِّيح من حيثُ تنتحى	بمنخرقٍ من شدِّهِ المتدارِكِ
إذا حاصَ عينيه كرى النوم لم يزلْ	له كالئٌ من قلب شيحانَ فاتكِ
ويجعلُ عينيه ربيئةَ قلبِه	إلى سلَّةٍ من صارم الغربِ باتكِ
إذا هزَّه في عظم قرن تهللتْ	نواجذُ أفواه المنايا الضاحكِ

في كل بيت من هذه الأبيات استعارة بديعة، وقد أخذ رؤبة قوله: "ويسبق وفد الريح" فقال:

يسبقُ وفدَ الريح من حيثُ انخرقْ

وقال الراعي:

يدعو أميرَ المؤمنين ودونَهُ	خرقٌ تجرُّ به الرياحُ ذيولا

وقال أوس:

ليس الحديث ينهَى بينهن ولا	سرٌّ يحدِّثْنه في الحيِّ منشورُ

ومما جاء في كلام المحدثين قول أبي تمام:

لياليَ نحن في غفلاتِ عيش	كأنّ الدهرَ عنها في وثاقِ
وأيام لنا ولهم لدانٌ	عرينا من حواشِيها الرّقاقِ

وقال العباس بن الأحنف، أو الخليع:

قد سحبَ الناسُ أذيال الظُّنون بنا	وفرّق الناسُ فينا قولهمْ فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غيركُمُ	وصادقٌ ليس يدري أنّه صدَقا

وقال مسلم:

شججتُها بلعاب المزن فاغتزلتْ	نسجين من بين محلولٍ ومعقودِ

وقوله:

كأنهُ أجلٌ يسعى إلى أملِ

وقوله:

يكسو السيوفَ نفوسَ الناكثين به	ويجعلُ الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُلِ

وقوله:

إذا ما نكحنا الحربَ بالبيض والقنا جعلنا المنايا عند ذاك طلاقَها

وقوله:

والدهر آخذ ما أعطى مكدِّر ما أصفى ومفسدُ ما أهوى له بيدِ
فلا يغرَّنك من دهر عطيتهُ فليس يترِكُ ما أعطى على أحدٍ

وقوله:

ولم ينطق بأسرارِها الحجلُ

وقوله:

ولما تلاقينا قضى الليلُ نحبهُ بوجهٍ كأنّ الشمس من مائهِ مثلُ
وماءٍ كعين الشمس لا تقبلُ القذَى إذا درجتْ فيه الصبّا خلتَهُ يعلو
من الضحّكِ الغرِّ اللَّواتي إذا التقتْ تحدِّثُ عن أسرارها السَّبلُ الهطلُ
صدعنا به حدَّ الشَّمول وقد طغت فألبسها حلماً وفي حلمها جهلُ
تساقطٍ يمناهُ النّدى وشماله الر ردى وعيون القول منطقه الفصلُ
حبى لا يطيرُ الجهلُ من عذباتها إذا هي حلّتْ لم يفتْ حلها ذحلُ
بكفِّ أبي العباس يستمطرُ الغنى ويستنزل النُّعمى ويسترعفُ النَّصلُ
متى شئتَ رفّعتَ الستور عن الغنى إذا أنت زرتَ الفضل أو أذنَ الفضلُ

وقال أيضاً:

كأنها ولسانُ الماء يقلبها عقيقة ضحكتْ في عارضٍ بردِ
دارتْ عليه فزادتْ في شمائله لين القضيب ولحظ الشادنِ الغردِ

وقال أيضاً:

فأقسمتْ أنسى الدَّاعياتِ إلى الصبّا وقدْ فاجأتْها العينُ والسِّترُ واقعُ
فغطّتْ بأيديها ثمار نحورِها كأيدي الأسارى ثقّلتها الجوامعُ

وقال أيضاً:

نفضتْ بك الأحلاسُ نفضَ إقامةٍ واسترجعتْ نزاعَها الأمصارُ
أجلٌ ينافسه الحمام وحفرةٌ نفست عليها وجهك الأحفارُ

فاذهبْ كما ذهبتْ غوادي مزنةٍ أثنى عليها السهلُ والأوعارُ

أخذ نفست عليها وجهك الأحفار بعضهم، فقال:

لو علم القبر ما يوارى تاه على كلِّ ما يليهِ

وقال:

ويخطئ عذرِي وجهَ جرمِي عندها فأجنى إليها الذَّنب من حيث لا أدري

إذا أذنبتْ أعددت عذراً لذنبها وإنْ سخطتْ كان اعتذاري من العذرِ

وقال:

يذكّرنيكَ اليأسُ في خطرة المُنى وإن كنتُ لم أذكرك إلاّ على ذكرى

وقال:

تجرى الرياحُ بها حسرى مولهةً حين تلوذ بأطرافِ الجلاميدِ

وقال أبو الشيص:

خلع الصّبا عن منكبيه مشيب

وقال أبو العتاهية:

أتته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها

وقال أبو نواس:

فاسقنى البكرَ التي اختمرتْ بخمار الشَّيبِ في الرَّحم

ثمتَ انصاتَ الشبابُ لها بعد أن جازتْ مدَى الهرمِ

فهي لليومِ الَّذي نزلتْ وهي تلو الدَّهرِ في القدَمِ

ومنها قوله:

فتمشتْ في مفاصلهم كتمشِّي البرءِ في السقمِ

صنَعتْ في البيتِ إذْ مزجتْ كصنيع الصُّبح في الظُّلمِ

قوله:: انصات الشباب لها: كأها صوتت به، فانصات لها أي أجاها.

وقوله:

أعطتكَ ريحانَها العقار وحان من ليلك انسفارُ

أي شربتها فتحول طيبها إليك.

وقوله:

لنا رو امشُ ينتخبنَ لنا تظلّ آذانُنا مطاياها

الرامشة: ورقة آس لها رأسان.

وقال:

حتى تخيرت بنتَ دسكرة قد عاجمتْها السنون والحقبُ

وقوله:

حتى إذا ما علا ماءُ الشباب بها وأفعمتْ في تمام الجسم والقصَب

وجمِّشتْ بخفيّ اللحظِ فانجشمتْ وجرَّت الوعدَ بين الصّدق والكذب

وقوله في السحاب:

وجرّتْ على الرّبا ذنبا

وقال:

فراحَ لا عطّلته عافيةٌ وباتَ طرفي من طرفه جنُبا

وقال:

دع الألبان يشربها رجال رقيقُ العيش بينهم غريبُ

وقوله:

ولا عجيبٌ إن جفتْ دمنةٌ عن مستهامٍ نومه قوتُ

وقوله:

فقمتُ والليل يجلُوه الصباح كما جلا التبسّم عن غرٍّ الثّنياتِ

وقوله:

من قهوةٍ جاءتك قبل مزاجها عطلا فألبسها المزاجُ وشَاحا

وقوله منها:

شكَّ البزالُ فؤادَها فكأنما أهدتْ إليك بريحها التفَّاحا

صفراء تفترس النفوسَ فلا ترى منها بهنّ سوى السّباب جراحَا

عمرتْ بكاتمك الزمانُ حديثَها ... حتى إذا بلغ السآمةَ باحا

وقوله:

جريتُ مع الصِّبا طلق الجموحِ ... وهانَ عليَّ مأثورُ القبيحِ

وجدت ألذّ عاريةِ الليالي ... قران النّعم بالوتَر الفصيحِ

وقوله منها:

تمتعْ من شبابٍ ليسَ يبقى ... وصلْ بعرى الغبوقِ عرى الصَّبوح

وخذْها من مشعشعةٍ كميتٍ ... تنزِّل درَّةَ الرجل الشَّجيحِ

فإني عالم أن سوف ينأى ... مسافةَ بين جثماني وروحِي

وقوله:

فاستنطقِ العودَ قدْ طال السُّكوت به ... لن ينطقَ اللّهوُ حتى ينطقَ العود

وقوله:

صفراء تعنق بين الماء والزبدِ

وقوله:

وقد لاحت الجوزاء وانغمس النَّسرُ

وقوله:

تجرر أذيال الفجور ولا فجرُ

وقوله:

لا ينزل الليل حيث حلّت ... فدهرُ شرَّابها نهارُ

وقوله:

وريّان من ماء الشباب كأنما ... يظمَّأ من صمّ الحشا ويجاعُ

وقوله:

وتنحّ عن طربٍ وعن قصفِ

وقوله:

عين الخليفة بي موكَّلةٌ ... عقد الحذارُ بطرفها طرفي

صحَّتْ علانيتي له وأرى　　دينَ الضَّمير له على حرفِ

وقوله:

سلبُوا قناع الطِّين عنْ رمقٍ　　حيّ الحياة مشارف الحتفِ

فتنفستْ في البيتْ إذ مزجَتْ　　كتنفُّسِ الريحان في الأنف

وقوله:

نتيجةُ مزنةٍ من عودِ كرمٍ　　تضئ الليل مضروب الرِّواقِ

وقوله:

حلبت لأصحابي بها درّة الصبّا　　بصفراء من ماء الكروم شمولِ

وقوله:

دعا همَّه من صدرِه برحيل

وقوله:

ولما توفى الليل جنحا من الدُّجَى

وقوله:

وقام وزنُ الزمانِ فاعتَدلا

وقوله: فقد أصبح وجه الزمان مقبلا وقوله:

كان الشبابُ مطيّة الجهلِ

وهو من قول النابغة:

فإن مطيَّةَ الجهل الشَّبابُ

وقوله:

وحططتُ عن ظهر الصِّبا رحلي

وقوله:

ومتَّصلٍ بأسباب المعالي　　له في كل مكرمةٍ حميمُ

رفعتُ له النداء بقمْ فخذْها　　فقد أخذتْ مطالَعها النُّجومُ

وقوله:

ألا لا ترى مثلي أمترى اليوم في رسمِ　　تغصُّ به عيني ويلفظُه وهمِي

وقوله: تغص به، أي تمتلئ بالدموع، وبلفظه وهمي أي ينكره.

وقوله:

وكأنما يتلو طرائدها نجمٌ تواتَر في قفا نجمِ

وقوله:

شمولاً تخطتْه المنون وقد أتتْ سنونٌ لها في دنّها وسنونُ

وقوله:

فتقربتُ بصرف عقَار نشأتْ في حجر أمِّ الزّمانِ

وقوله:

ترى العينَ تستعفيك من لمعانها وتحسر حتى ما تقلّ جفونها

وقوله:

في مجلس ضحك السرور به عن ناجذيهِ وحلَّت الخمرُ

وقول أبي تمام:

وحسنُ منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشتُه في سوء منقلبِ

وقوله:

رخصت لها المهجاتُ وهي غوالِ

وقوله:

وتنظَّرى خببَ الركاب ينصُّها محي القريض إلى مميتِ المالِ

وقوله:

تطلُّ الطلول الدمعَ في كلِّ منزلٍ وتمثلُ بالصَّبرْ الديارُ المواثلُ

دوارس لم يجفُ الربيعُ ربوعَها ولا مرَّ في أغفالها وهو غافلُ

فقد سحبتْ فيها السحابُ ذيولَها وقدْ أخملتْ بالنَّور فيها الخمائلُ

ليالَي أضللت العزاءَ وخزَّلَتْ بعقلك أرآمُ الخدور العقائلُ

وقوله:

بسقيم الجفون غير سقيمِ ومريب الألحاظ غير مريبِ

وقوله:

غليلي على خالد خالدٌ وضيف همومي طويلُ الثَّواءِ
ألا أيّها الموتُ فجعتَنا بماءِ الحياةِ وماءِ الحياءِ
أصبنا بكنز الغنى والإما م أمسى مصاباً بكنز الفناء

وقوله:

ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرفَ الدهرِ نائلُه الغمرُ

وقوله:

سعدتْ غربةُ النوى بسعادِ

وقوله:

إذا سيفهُ أضحى على الهام حاكماً غدا العفوُ منه وهو في السّيف حاكمُ

وقوله:

لئن أصبحت ميدانَ السّوافي لقد أصبحتُ ميدانَ الهُموم
أظنَّ الدمعَ في خدي سيبقى رسوماً من بكائي في الرُّسومِ
وليلٍ بتُّ أكلؤه كأني سليمٌ أو سهدت على سليم
اراعِي من كواكبه هجاناً سواماً لا تزيغ إلى المسيم
يكاد نداه يتركُه عديماً إذا هطلتْ يداه على عديمِ
سفيه الرمح جاهلُه إذا ما بدا فضلُ السَّفيه على الحليم

وقوله:

عهدي بهم تستنيرُ الأرضُ إن نزَلوا فيها وتجتمِع الدُّنيا إذا اجتمُعوا
ويضحكُ الدّهر منهم عن غطارفةٍ كأن أيامهمْ من أنسها جمَع

وقوله:

وضلَّ بك المرتادُ من حيث يهتدي وضرتْ بك الأيامُ من حيث تنفَع

وقوله:

تردُ الظنون به على تصديِقها وتحكِّمُ الآمال في الأموال

وقوله:

إذا أحسنَ الأقوامُ أن يتطاولوا بلا منَّةٍ أحسنتَ أن تتطوَّلا
تعظمتَ عن ذاك التعظّم منهمُ وأوصالك نبلُ القدر أنْ تتنبَّلا

وقوله:

فأطلبْ هدوءاً في التقلق واستثرْ بالعيس من تحت السُّهاد هجودا

وقوله:

أيامنا مصقولةٌ أطرافُها بك والليالي كلُّها أسحار

وقال البحتريّ:

بيضاءُ يعطيك القضيبُ قوامَها ويريكَ عينيْها الغزالُ الأحورُ

وقوله:

فحاجبُ الشمسِ أحياناً يضاحِكُها وريّقُ الغيثِ أحياناً يُباكيها

وقوله:

وللقضيب نصيبٌ من تثنِّيها

وقوله:

أصبابةً برسوم رامةَ بعدما عرفت معارفَها الصَّبا والشَّمالُ

وقوله:

صفتْ مثلَ ما تصفو المدامُ خلالَه ورقّتْ كما رقَّ النسيمُ شمائله

وقوله:

نثرتْ وردها عليه الخدود

أخذه آخر فقال:

وحياءٌ نثر الوردَ على الخدِّ الأسيل

وقوله:

سحابٌ خطاني جودُه وهو مسبلٌ وبحرٌ عداني فيضُه وهو مفعمُ

وقوله:

أرجنَ عليَّ الليلَ وهو ممسَّكٌ وصبحننَا بالصُّبحِ وهو مخلَّقُ

وقوله:

في مقامٍ تخرّ في ضنكهِ البي ضُ على البيضِ ركّعاً وسجودا

وقوله:

جاري الجيادَ فطار عنْ أوهامِها سبقاً وكادَ يطيرُ عن أوهَامِهِ

وقوله:

فطواهنَّ طيهُنَّ الفيافِي واكتسينَ الوجيفَ حتى عرينا

وقوله:

فأضللتُ حلمي والتفتُّ إلى الصبّا سفاهاً وقد جزتُ الشبابَ مراحِلا

وقوله:

وإذا سرايا عطاياه سرتْ أسرتْ

وقوله:

ليلٌ يبيتُ الليلُ فيه غريبا

وقول ابن الرومي:

وما تعترِيهَا آفةٌ بشريَّةٌ من النَّومِ إلاَّ أنها تتخثَّرُ

كذلك أنفاسُ الرياح بسحرةٍ تطيبُ وأنفاسُ الأنامِ تغيّرُ

وقوله:

يا ربَّ ريقٍ باتَ بدرُ الدُّجَى يمجُّه بين ثناياكا

يروى ولا ينهاك عن شربِهِ والخمرُ يرويك وينهاكا

وقول العتّابي:

وأشعثَ مشتاقٍ رمى في جفونِه غريبَ الكَرى بين الفجاجِ السَّباسبِ

أماَ الليالِي شوقه غيرَ زفرةٍ تردَّدُ ما بين الحشَى والتَّرائبِ

سحبتُ له ذيل السُّرى وهو لابسٌ دجى اللَّيل حتى مجَّ ضوءَ الكواكبِ

ومن فوقِ أكوارِ المطايا لبانةٌ أحلَّ لها أكلُ الذرَى والغواربِ

إذا ادَّرَعَ الليل انجلَى وكأنَّه بقيةٌ هنديّ حسامِ المضَاربِ

بركبٍ ترى كسر الكرى في جفونهم وعهدَ الفيافِي في وجوهٍ شواحبِ

وقول أبي العتاهية:

أسرى إليه الرَّدى في حلبَةِ القدَرِ

ومن ردئ الاستعارة قول علقمة الفحل:

وكلُّ قومٍ وإنْ عزُّوا وإن كرُموا عريفهمْ بأثافِي الدَّهرِ مرجومُ

أثافي الدّهر، بعيدٌ جداً.

وقول ذي الرُّمة:

تيمَّمنَ يا فوخَ الدُّجَى فصدعنَهُ وجوز الفلا صدعَ السيوفِ القواطعِ

وقال تأبَّط شرا:

نحزّ رقابِهم حتَّى نزعنَا وأنفُ الموتِ منخرُهُ رثيمُ

وقول الحطيئة:

سقْوا جارَك العيمان لمّا جفوتَهُ وقلَّص عن بردِ الشَّرابِ مشافرُهْ

وقول الآخر:

فما رقَد الولدَانُ حتى رأيتُه على البكرِ يمريه بساقٍ وحافرِ

وقول الآخر:

قد أفنى أناملَه أزمُه فأضحَى يعضّ عليّ الوظيفَا

وإذا أريد بذلك الذمُّ والهجاءُ كان أقربَ إلى الصواب.

وأما القبيحُ الذي لا يشكُّ في قباحته، فقول الآخر:

سأمنعها أو سوف أجعلُ أمرَها إلى ملكٍ أظلافُه لم تشقّقِ

وقول ذي الرُّمة:

يعزُّ ضعافَ القوم عزةُ نفسِه ويقطع أنفَ الكبرياء من الكبرِ

وقول خويلدٍ الهذلي أو غيره:

تخاصِم قوماً لا تلقَّى جوابَهم وقد أخذتْ من أنفِ لحيتك اليدُ

أي قبضت بيدك على مقدّم لحيتك كما يفعلُ النادمُ أو المهمومِ، وأنفُ كلّ شيء: مقدمه، وأنوف القوم: سادهم، والأنف في هذا البيت هجينُ الموقع كما ترى.

وقد وقع في غيره أحسنَ موقعٍ، وهو قول الشاعر:

إذا شمَّ أنفَ الضيفِ ألحق بطَنه ... مراس الأواسي وامتحان الكرَائمِ

ويقولون: أنف الريح، وأنف النهار، ورعينَا أنفَ الربيع، أي أوله. قال امرؤ القيس:

قد غَدا يحملُني في أنفهِ ... لاحقُ الإطلين محبُوك ممرّ

وروى بعض الشيوخ الثّقات: في أنفه مضموم الألف، قال: هو من قوله: كأس أنف. وروضة أنف.

وقال أعرابي يصفُ البرق:

إذا شيمَ أنفُ الليل أومضَ وسطه ... سناً كابتسام العامريّة شاغفُ

أراد أول الليل.

ومن بعيد الاستعارة، قول أعرابي:

مازال مجنوناً على استِ الدّهر ... ذا جسدٍ ينمى، وعقلٍ يجرِى

أي ينقص.

وسئل مسلم بن الوليد عن قول أبي نواس:

رسم الكرَى بين الجفون محيل ... عفَّى عليه بكاً عليكَ طويلُ

قال: إن كان قول أبي العذافر:

باض الهوَى في فؤادِي وفرَّخ التذكار

حسناً، كان هذا حسناً.

ومن عجيب هذا الباب قول بعض شعراء عبد القيس:

ولما رأيتُ الدهرَ وعراً سبيله ... وأبدَى لنا ظهراً أجبَّ مسلَّقَا

وجبهة قرد كالشراك ضئيلة ... وصعّر خدَّيه وأنفاً مجدّعا

ومعرفة حصَّاء غير مفاضة ... عليه ولوناً ذا عثا نينَ أنزَعا

وما أعرف متى رأى هذا للدَّهر جبهةً كالشّراك مع هذا الذي عدده، فجاء بما يضحك الثكلى.

وقال الكميت:

ولما رأيتُ الدهرَ يقلبُ بطنَه ... على ظهرهِ فعلَ الممعّكِ في الرَّملِ

كما ظعنتْ عنا قضاعةُ ظعنةً هي الجدّ مأدومَ النّحيزةِ بالهزلِ

ومن ذلك قول الأخطل:

إكسير هذا الخلقِ يلقَى واحدٌ منه على ألفٍ فيكرم خيمه

وقول أبي تمام:

حتى اتقّتهُ بكيمياءِ السُّودَدِ

فلا ترى شيئاً أبعد من إكسير الخلق، وكيمياء السودد.

وقد أكثر أبو تمام من هذا الجنس اغتراراً بما سبق منه في كلام القدماء مما تقدّم ذكره، فأسرف، فنعى عليه ذلك، وعيب به، وتلك عاقبة الإسراف. فمن ذلك قوله:

يا دهرُ قوِّمْ من أخدعيك فقدْ أضججتَ هذا الأنامَ من خرُقكْ

وقوله:

كانوا رداءَ زمانِهم فتصدَّعوا فكأنما لبس الزّمّانُ الصُّوفا

وقوله:

نزحتُ به ركىَّ العينِ إني رأيتُ الدَّمعَ من خيرِ العتادِ

وقوله:

ولينَ أخادعِ الزّمنِ الأبىَ

وقوله:

فضربت الشِّتاءَ في أخدَعيه ضربةً غادرتْه عوداً ركوبا

وقوله:

تروحُ علينا كلَّ يومٍ وليلةٍ خطوبٌ كأنَّ الدّهر منهنَّ يصرعُ

وقوله:

ألا لا يمدُّ الدَّهرُ كفّاً بسيئ إلى مجتدى نصرٍ فتقطع للزّندِ

وقوله:

والدَّهر ألأمُ من شرقتَ بلؤمِه إلاَّ إذا أشرقته بكريمِ

وقوله:

تحملت ما لو حمّل الدَّهر شطرُه لفكّر دهراً أيُّ عبأيه أثقلُ

وقوله يصف قصيدة:

تحلُّ بقاعَ المجد حتى كأنَّها على كلِّ رأس من يد المجدِ مغفرُ

لها بين أبواب الملوك مزامرٌ من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمُر

وقوله:

به أسلَم المعروفُ بالشَّام بعدما ثوى منذ أودَى خالدٌ وهو مرتدُّ

وقوله:

كأنَّ المجدَ قد خرِفا

وقوله:

إلى ملكٍ في أيكةِ المجدِ لم يزلْ على كبد المعروف من نيله بردُ

وقوله:

في غفلةٍ أوقدتْ على كبد النا ئل ناراً أخنتْ على كبدهْ

وقوله:

حتى إذا اسودَّ الزمان توضّحوا فيه فغودِرَ وهو منهم أبلَقُ

وقوله:

وكم ملكتْ منّا على قبحِ قدّها صروفُ النّوى من مرهفٍ حسن القدِّ

وقوله:

إذا الغيثُ غادىَ نسجه خلتَ أنه مضتْ حقبةُ حرس له وهو حائك

وقوله يرثى غلاماً:

أنزلتْهُ الأيامُ عن ظهرِها منْ بعد إثباتِ رجله في الرّكاب

وقوله:

وكأنَّ فارسَه بصرّف إذْ غدَا في متنه ابنا للصباح الأبلقِ

وقوله:

لمَّا مخضتَ الأمانيّ التي احتلبتْ عادتْ هموماً وكانت قبلها همَمَا

وقوله:

كلوا الصَّبرَ مرّاً واشربوه فإنكم أثرتُم بعيرَ الظُّلمِ والظلمُ باركِ

وقد جنى أبو تمام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكّد له الحجّة على نفسه، واختياراتُ الناس مختلفة بحسب اختلاف صورَهم وألوانهم.

ومن ردئ الاستعارة أيضاً قولُ بعضهم:

أنا ناقة وليس في ركبتي دماغ

وأنشد أبو العنبس:

ضرامُ الحبِّ عشَّشَ في فؤادي وحضَّنَ فوقَه طيرُ البعادِ

وقد نبذَ الهَوى في دنّ قلبي فعربدتِ الهمومُ على فؤادِي

ومثله كثير ولا وجه لاستيعابه، لأن قليلهَ دالٌّ على كثيره، وجمله مبينة عن تفسيره إن شاء الله.

الفصل الثاني من الباب التاسع

في المطابقة

قد أجمع الناس أنّ المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدّه في جزء من أجزاء الرّسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد، واللّيل والنهار، والحرّ والبرد.

وخالفهم قدامة بن جعفر الكاتب، فقال: المطابقة إيرادُ لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى، كقول زياد الأعجم:

ونبئهم يستنصرون بكاهلٍ وللّوم فيهم كاهلٌ وسنامُ

وسمى الجنس الأول التكافؤ. وأهل الصنعة يسمُّون النوع الذي سمّاه المطابقة التعطّف. قال: وهو أن يذكر اللفظُ ثم يكرِّره، والمعنى مختلف، وستراه في موضعه إن شاء الله.

والطِّباق في اللغة: الجمع بين الشيئين، يقولون: طابق فلان بين ثوبين، ثم استعمل في غير ذلك، فقيل: طابق البعير في سيره، إذا وضع رجله موضع يده، وهو رادعٌ إلى الجمع بين الشيئين. قال الجعديّ:

وخيلٍ تطابق بالدارعِين طباقَ الكلابِ يطأنَ الهراسَا

وفي القرآن: "سبع سموات طباقاً"، أي بعضهن فوق بعض، كأنه شبّه بالطّبق يجعل فوق الإناء، قال امرؤ القيس:

طبقُ الأرضِ تحرَّى وتدرّ

وكل فقرة من فقر الظهر والعنق طبق، وذلك أن بعضها منضود على بعض.

فمما في كتاب الله عز وجل من الطّباق قوله تعالى: "يولجُ اللّيلَ في النّهارِ ويولجُ النّهارَ في اللّيلِ".

وقوله تعالى: "ليخرجكمْ من الظّلماتِ إلى النُّور" أي من الكفر إلى الإيمان.

وقوله عزّ وجل: "باطنُهُ فيه الرّحمةُ وظاهرهُ من قبلِهِ العذابُ".

وقوله سبحانه: "لكيلا تأسوا على ما فاتكمْ ولا تفرحوا بما آتاكمْ"، وهذا على غاية التساوي والموازنة.

وقوله تعالى: "يخرجُ الحيَّ من الميِّتِ ويخرج الميِّتَ من الحيِّ".

وقوله جلَّ شأنه: "ولا يملكون لأنفسهمْ ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً".

وقوله عز اسمه: "لا يخلقُون شيئاً وهم يخلقونَ".

وقوله سبحانه: "فأولئكَ يبدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهمْ حسنات".

وقوله جل ذكره: "وأنَّهُ هو أضحكَ وأبكى، وأنَّه هو أماتَ وأحيا".

وقد تنازع الناسُ هذا المعنى، قال ابن مطير:

تضحك الأرضُ من بكاءِ السماءِ

وقال آخر:

ضحك المزنُ بها ثمَّ بكَى

وقال آخر:

فله ابتسامٌ في لوامعِ برقِهِ ... وله بكاً من ودقِهِ المتسرِّبِ

وقال آخر:

لا تعجبِي يا سلمُ من رجلٍ ... ضحكَ المشيبُ برأسِهِ فبكَى

فلم يقرب أحدٌ من لفظ القرآن في اختصاره وصفائه، ورونقه وبهائه، وطلاوته ومائه، وكذلك جميع ما في القرآن من الطّباق.

ومما جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الكلام المطابق قوله للأنصار: "إنّكم لتكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطمع". وقوله عليه الصلاة والسلام: "خيرُ المال عينٌ ساهرة لعينٍ نائمة"، يعنى عينَ الماء ينامُ صاحبُها وهي تسقى أرضه. وقوله عليه الصلاة والسلام: "إياكم والمشارَّة فإنها تميت الغرّة وتحي العرّة".

ومن سائر الكلام قول الحسن: ما رأيتُ يقيناً لا شكّ فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت. وقال أيضاً رضى الله عنه: إنّ من خوّفك حتّى تبلغَ الأمن خيرٌ ممن يؤمنك حتى تلقى الخوف. وقال أبو الدّرداء رضى

الله عنه: معروف زماننا منكرُ زمانٍ قد فات، ومنكره معروفُ زمانٍ لم يأتِ. وقال بعضهم: ليتَ حلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك. وقال عبد الملك: ما حمدتُ نفسي على محبوبٍ ابتدأتُه بعجز، ولا لمتُها على مكروه ابتدأته بحزم. وقالوا: الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة. وقال أعرابي لرجل: عن فنا وإن ضحك لك، فإنَّه يضحك منك. فإن لم تتخذه عدواً في علانيتك، فلا تجعله صديقاً في سريرتك. وقال عليّ رضى الله عنه: أعظم الذّنوب ما صغر عندك. وشتم رجل الشّعبيّ، فقال: إن كنتَ كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي. وأوصى بعضهم غلاماً، فقال: إنّ الظنَّ إذا أخلفَ فيك أخلف منك. ونحوه قول الآخر: لا تتّكل على عذرٍ مني فقد اتّكلتُ على كفاية منك. وقال الحسن: أما تستحيون من طول ما لا تستحيون ونحوه قول الأعرابي: فلانٌ يستحى من أن يستحى. وقال: من خاف الله أخاف اللهُ منه كلَّ شيء، ومن خافَ الناسَ أخافهُ الله من كلّ شيء. وقيل لأبي داود وابنته تسوس دابته في ذلك، فقال: كما أكرمتها بهواني، معناه إن كانت تصونني عن سياسة دابَّتي وتتبذَّل مني، فها إني أصونُها وأتبذَّل دونها بالقيام في أمر معاشِها، وإصلاح حالها، فأخذ اللفظ بعضهم فقال في السلطان:

أهينُ لهمْ نفسي لأكرمها بهمْ ولن تكرمَ النفسُ التي لا تهينُها

وقال بعضهم لعليل: إن أعلَّك الله في جسمك، فقد أصحَّك من ذنوبك. وقال بعضهم: الكريمُ واسع المغفرة، إذا ضاقتِ المعذرة.

وقال كثيرين هراسة يوماً لابنه: يا بنيّ، إنّ من الناس ناساً ينقصونك إذ ازدهم، وهمونُ عليهم إذا أكرمتهم، ليس لرضاهم موضعٌ فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فإذا عرفت أولئك بأعيانهم فأبد لهم وجه المودة، وأمنعهم موضع الخاصة، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرّهم، وما منعتَهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم.

وقال خالد بن صفوان لرجل يصف له رجلاً: ليس له صديقٌ في السر، ولا عدوٌ في العلانية.

وقال آخر: في العمل ما هو ترك للعمل، ومن تركِ العمل ما هو أكثر العمل.

وقال آخر: إنّا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

وقال الحسن: كثرة النّظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب.

وقال سهل بن هرون: من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها.

وكتب رجلٌ إلى محمد بن عبد الله: إنّ من النّعمة على المثنى عليك ألا يخاف الإفراط، ولا يأمن التّقصير، ولا يحذر أن تلحقه نقيصةُ الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غايةٍ إلاّ وجد في فضلك عوناً على تجاوزها.

وفي الحديث: "ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثرُ وألهى". وقال معاوية: ليس بين أن يملك الملكُ جميع رعيته أو يملكه جميعها إلا حزم، أو توان.

وقال بعضهم: إذا شربت النّبيذ فاشربه مع من يفتضح بك، ولا تشربه مع من تفتضح به.

وقال بعضهم: سوداءٌ ولود خيرٌ من حسناء عقيم. وقال ابن السّماك للرشيد: يا أمير المؤمنين، تواضعك في شرفك أشرفُ من شرفك.

وقال ابن المعتز: طلاقُ الدنيا مهرُ الآخرة. وقالوا: غضبُ الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله.

وشرب أحدهم بحضرة الحسن بن وهب قدحاً وعبس، فقال له: والله ما أنصفتها، تضحك في وجهك، وتعبس في وجهها وقال ظاهر بن الحسين لابنه: التّبذير في المال ذمّه حسب التقتير فيه، فاتّق التبذير، وإياك والتقتير. وقال أعرابي: أتيت بغداد فإذا ثيابُ أحرار على أجساد عبيد، إقبالُ حظهّم إدبارُ حظّ الكرم، شجرٌ فروعه عند أصوله، شغلهم عن المعروف رغبتُهم في المنكر.

وقال أعرابي: الله مخلف ما أتلف الناس، والدهر متلفٌ ما أخلفَ الله، فكم من منيّةٍ علّتُها طلبُ الحياة، وحياةٍ سببُها التعرّضُ للموت، وهذا مثل قول الشاعر:

تأخرتُ استبقِي الحياةَ فلم أجدْ لنفسِي حياةً مثلَ أن أتقدَّما

وقال آخر: كدرُ الجماعة خيرٌ من صفو الفرقة. وقال بعضهم: وكان اعتدادي بذلك اعتداد من لا تنضب عنه نعمة تغمرك، ولا يمرّ عليه عيش يحلو لك.

وقال بعضهم: وكان سروري بذلك سرور من لا تأفل عنه مسرَّة طلعت عليك، ولا تظلم عليه محلة أنارتْ لك.

وقال المنصور: لا تخرجوا من عزّ الطاعة إلى ذلِّ المعصية. ووصف أعرابي غلاما فقال: ساع في الهرب، قطوفٌ في الحاجة.

وكتب سعيد بن حميد في كتاب فتح: ظنّاً كاذباً لله في حتمٌ صادق، وأملاً خائناً لله في قضاءٌ نافذ.

وقال الأفوه الأودى: سهماً تقرّ به العيونُ وإن كان قليلاً خيرٌ مما وجلت به القلوب وإن كان كثيراً.

ونحوه قول الشاعر:

ألا كلُّ ما قرَّتْ به العينُ صالحُ

ومن الأشعار في الطّباق قول زهير:

ليثٌ بعثَّرَ يصطادُ الرِّجالَ إذا ما اللّيثُ كذّبَ عن أقرانهِ صدقَا

وقول امرئ القيس:

مكر مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً ... كجلمودِ صخر حطّه السَّيلُ من علِ

وقول الطّفيل الغنوى يصف فرسا:

بساهم الوجه لم تقطعْ أباجلُه ... يصانُ وهو ليومِ الرَّوعِ مبذُول

وقول الآخر:

رمى الحدثانُ نسوة آل حربٍ ... بمقدارٍ سمدنَ له سموداً

فردَّ شعورهنَّ السُّود بيضاً ... وردَّ وجوههنَّ البيضَ سودَا

وقال حسين بن مطير:

ومبتلةُ الأردافِ زانتْ عقودَها ... بأحسنَ ممَّا زيَّنتها عقودُها

بصفرِ تراقيها وحمرٍ أكفُّها ... وسودٍ نواصيها وبيض خدُودُها

وقال في وصف السحاب:

ولهُ بلا حزنٍ ولا بمسرّةٍ ... ضحكٌ يراوحُ بينهُ وبكاءُ

وقال آخر:

لئن ساءني أن نلتني بمساءَةٍ ... لقد سرَّني أنِّى خطرتُ ببالك

وقال النابغة:

وإن هبطا سهلا أثارَا عجاجةً ... وإن علوَا حزنا تشظَّتْ جنادلُ

وقال مسافع:

أيعدَ بنى أُمِّي أسرُّ بمقبلٍ ... من العيش أو آسى على إثرِ مدبرِ

أولاكَ بنُو خيرٍ وشرٍّ كليهما ... وأبناءُ معروفٍ ألمَّ ومنكَرِ

وقال أوس بن حجر:

أطعنا ربنا وعصاهُ قومٌ ... فذقنَا طعمَ طاعتِنا وذاقُوا

وقال الفرزدق:

لعن الإلهُ بنى كليبِ إنهمْ ... لا يعذرون ولا يفونَ لجارِ

يستيقظونَ إلى نهيقِ حمارِهم ... وتنامُ أعينُهمْ عن الأوتارِ

وقال امرؤ القيس:

بماءِ سحابٍ زلَّ عنْ ظهرِ صخرةٍ إلى بطنِ أخرى طيّب طعمه خصرْ

وقال النابغة:

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعدَه ولا يحسبون الشّرَّ ضربةَ لازبِ

وقال بيهس بن عبد الحرث، يصف الشيب:

حتى كأنّ قديمه وحديثه ليلٌ تلفّحَ مدبراً بنهار

فطابق بين قديم وحديث، وليل ونهار، فأخذه الفرزدق، فقال:

والشّيبُ ينهضُ في الشباب كأنَّه ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهارُ

طابق بين الشيب والشباب، والليل والنهار، وهذا أحسنُ من قول بيهس سبكا ورصفاً، وفيه نوع آخر من البديع، وهو يصيح بجانبيه نهاره أخذه من قول الشماخ:

ولاقى بصحراء الإهالة ساطعاً من الصبح لما صاحَ بالليل نفَّرا

وقال أبو داود قبله:

تصيحُ الرُّدينيّاتُ في حجباتهمْ صياحَ العوالي في الثّقافِ المثقّبِ

وقال آخر:

تصيح الرُّدَينيّاتُ فينا وفيهمُ صياحَ بنات الماء أصبحنَ جوَّعا

وقال آخر في صفة قوس:

في كفّه معطية منوعُ

وقال آخر:

مرحتْ وصاحَ المروُ من أخفافِها

وقال آخر في صفة ناقة:

خرقاءُ إلاّ أنها صناعُ

وقال آخر:

فجاء ومحمودُ القرَى يستفزّه إليها وداعي الليل بالصّبح يصفرُ

ومما فيه ثلاث تطبيقات قول جرير:

وباسطُ خيرٍ فيكمُ بيمينه وقابضُ شرّ عنكمُ بشماليَا

فطابق بباسط وقابض، وخير وشر، ويمين وشمال، ومثله قول الآخر:

فلا الجودُ يفنى المالَ والجدُّ مقبلٌ ... ولا البخل يبقى المالَ والجدُّ مدبرُ

ومثله قول الآخر:

فسرَّى كإعلاني وتلك سجيّتي ... وظلمةُ ليلى مثلُ ضوءِ نهاريَا

ومما فيه طباقان، قول المتلمّس:

وإصلاحُ القليل بزيدُ فيه ... ولا يبقى الكثيرُ على الفسادِ

وقال أوس بن حجر:

فتحدركم عبسٌ إلينا وعامرٌ ... وترفعُنَا بكرٌ إليكم وتغلبُ

إذا ما علوا قالوا أبونَا وأمنا ... وليس لهم عالين أمٌّ ولا أبُ

وقول قيس بن الخطيم:

إذا أنت لم تنفعْ فضرَّ فإنَّما ... يرجَّى الفتى كيما يضرَّ وينفعا

وهذا تطبيق وتكميل، ومثله قول عديّ بن الرّعلاء:

ليس من ماتَ فاستراحَ بميتٍ ... إنّما الميتُ ميّتُ الأحياء

فاستوفى المعنى في قوله: ليس من مات فاستراح بميت، وكمّل في قوله: إنما الميت ميت الأحياء، وقد طابق جماعة من المتقدمين بالشيء وخلافه على التقريب، لا على الحقيقة، وذلك كقول الحطيئة:

وأخذت أطرارَ الكلام فلم تدعْ ... شتماً يضرّ ولا مديحاً ينفعُ

والهجاء ضدّ المديح، فذكر الشتم على وجه التقريب، وهكذا قول الآخر:

يجزون من ظلمِ أهلِ الظلم مغفرةً ... ومن إساءةِ أهلِ السوءِ إحسانا

فجعل ضدّ الظلم المغفرة.

ومن المطابقة في أشعار المحدثين، قول أبي تمام:

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعَا ... وأصبحَ مغنى الجودِ بعدَكَ بلقعَا

وقالوا: هذا أحسن ابتداء في مرثية إسلامية، وقال أبو تمام أيضاً:

وضلَّ بك المرتادُ من حيث يهتدِي ... وضرَّتْ بك الأيامُ من حيث تنفعُ

وقدْ كان يدعى لابسُ الصَّبرِ حازماً ... فأصبح يدعَى حازِما حين يجزَعُ

وقال سديف في النِّساء:

وأصحّ مارأتِ العيون جوارِحا ... ولهن أمرضُ ما رأيتَ عيُونا

وقال عمارة بن عقيل:

وأرى الوحشَ في يمينى إذا ما ... كان يوماً عنانُه بشِمَالي

وقال أبو تمام:

فيم الشماتة إعلاناً بأسدٍ وغى ... أفناهمُ الصبّرُ إذا أبقاكمُ الجزعُ

فجاء بتطبيقتين في مصراع.

وقال البحتري:

إن إيامه من البيض بيضٌ ... ما رأينَ المفارق السودَ سودَا

وقال النّمري:

ومنازلٌ لكَ بالحِمى ... وبها الخليطُ نزولُ

أيامهنّ قصيرةٌ ... وسرورهنّ طويلُ

وسعودهنّ طوالعٌ ... ونحوسهنّ أفولُ

والمالكية والشَّبا ... ب وقينة وشمُولُ

وقال آخر:

براذينُ ناموا عن المكرما ... ت فأيقظهُمْ قدرٌ لم ينمْ

فيا قبَحهم في الَّذي خوَّلوا ... ويا حسنَهم في زوال النّعم

وقال آخر:

أفاطمَ قد زوّجتِ من غير خبرةٍ ... فتىً من بني العباس ليسَ بطائل

فإن قلت من آل النبيّ فإنه ... وإنْ كانَ حرَّ الأصلِ عبدُ الشمائلِ

ونحوه في معناه، لاقى التطبيق، قول علي بن الجهم في بعض بني هاشم:

إن تكنْ منهم بلا شك فللعود قتارُ

ومثله:

فما خبثٌ من فضَّة بعجيب

ومثله:

لئيم أتاه اللؤمُ من عندِ نفسه ... ولم يأته من عند أمّ ولا أبِ

وقول أبي تمام:

نثرت فريد مدامع لم تنظمِ　　　والدمعُ يحملُ بعض ثقل المغرَمِ

وصلتْ نجيعاً بالدموع فخدُّها　　　في مثل حاشية الرّداء المعلَمِ

أخذه من قول أبي الشّيص:

وصلت دماً بالدمع حتّى كأنما　　　يذاب بعين لؤلؤٌ وعقيق

وقول أبي تمام:

جفوفُ البلى أسرعتْ في الغصنِ الرّطبِ

وقوله:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت　　　ويبتلى الله بعض القوم بالنّعم

وقول الآخر:

عجلَ الفراقُ بما كرهتُ وطالما　　　كانَ الفراقُ بما كرهتُ عجولا

وأرى التي هام الفؤاد بذكرها　　　أصبحتُ منها فارغا مشغولا

وقال بكر بن النطّاح:

وكأن إظلامَ الدروع عليهمُ　　　ليلٌ وإشراق الوجوه نهارُ

وقول أبي تمام:

أصبحت في روضة الشّباب هشيما　　　وعدت ريحُه البليل سموما

شعلة في المفارق استودعتني　　　في صميم الفؤاد ثكلاً صميما

غرةٌ مرة ألا إنما كن　　　ت أغر أيام كنت بهيما

دقة في الحياة تدعى جلالا　　　مثل ما سمّى اللديغ سليما

وقول آخر:

فجلست منها قبلة　　　لما رويت بها عطشتُ

وقلت:

إذا معشر في المجد كانوا هوادياً　　　فقيسوا به في المجد عادوا تواليا

رأيتُ جمال الدّهر فيك مجددا　　　فكن باقيا حتى ترى الدّهر فانيا

وقلت:

قل لمن أدنيه جهدي وهو يقصيني جهدهْ

ولمنْ ترضاه مو لاك ولا يرضاكَ عبدهْ

أمليح بمليح الش كل أن يخلفَ وعدَه

أم جميل بجميل ال وجه أن ينقضَ عهدهْ

ما الذي صدَّك عني ليت ما صدَّكَ صدَّهْ

وقلت:

فلماذا أبيعُه وبنفسي أشتريهِ

وقلت:

في كلِّ خلقِ خلَّةٌ مذمومةٌ وراء كلِّ محبَّبٍ مكروهُ

ومن عيوب التطبيق قول الأخطل:

قلتُ المقامُ وناعبٌ قال النَّوَى فعصيتُ قولي والمطاعُ غرابُ

وهذا من غث الكلام وبارده، وقال :

كم جحفلٍ طارتْ قدامي خيلُهُ خلَّفتُهُ يومَ الوغى منتوفا

أعلمتُ نابك وهو رأسٌ أنه سيكون بعدَك حافرا ووظيفاَ

وقال آخر في القاسم بن عبيد الله:

من كانَ يعلمُ كيفَ رقَّةُ طبعِهِ هو مقسم أنَّ الهواءَ ثخينُ

وقال أبو تمام:

فيا ثلجَ الفؤاد وكانَ رضفاً ويا شبعي بمقدمه وريّي

وقال:

وإذ الصنعُ كان وحشاً فملّي ت برغم الزّمان صنعاً ربيباً

وقال:

قدْ لانَ أكثرُ ما تريد وبعضُهُ خشنٌ وإني بالنجاح لواثقُ

وقوله:

لعمري لقد حرَّرت يومَ لقيتُهُ لو أنّ القضاءَ وحدَهُ لم يبرَّدِ

وقوله:

وإن خفرتْ أموالَ قومٍ أكفُّهمْ   من النيل والجدوى فكفّاه مقطعٌ

وقوله:

يومٌ أفاضَ جوى أغاض تعزّياً   خاض الهوى بحرَى حجاه المزبدِ

فجعل الحجى في هذا البيت مزبدا، ولا أعرف عاقلا يقول: إن العقل يزيد، وليس المزيد هاهنا نعتاً للبحرين، لأنه قال بحرى حجاه المزبد، فلو جعل المزبد نعتا للبحرين لقال المزبدين، وخوض الهوى بحر التعزى أيضاً من أبعد الاستعارة.

ونحو منه قوله أيضاً:

يا يوم شرَّدَ يوم لهوى لَهوه   بصبابتي وأذلَّ عزَّ تجلُّدِي

وقوله:

غرضَ الظلامُ أو اعترته وحشةٌ   فاستأنستْ روعاته بسهادي

بل ذكرةٌ طرقتْ فلما لم أبتْ   بانت تفكرُ في ضروب رقادي

أغرتْ همومي فاستلبنَ فصولها   نومي ونمنَ على فضول وسادِي

وهذه الأبيات مع قبح التطبيق الذي في أولها، وهجنة الاستعارة لا يعرف معناها على حقيقته.

الفصل الثالث

في ذكر التجنيس

التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كلّ واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها على حسب ما ألّف الأصمعي كتاب الأجناس. فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى لفظا واشتقاق معنى، كقول الشاعر:

يوماً خلجت على الخليج نفوسهم   عصبا وأنت لمثلها مستامَ

خلجت: أي جذبت، والخليج: بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهاتان اللفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى والبناء، ومنه ما يجانسه في تأليف الحروف دون المعنى، كقول الشاعر:

فأرفق به أن لومَ العاشقِ اللّومُ

وشرط بعض الأدباء من هذا الشرط في التجنيس وخالفه في الأمثلة فقال: وممن جنس تجنيسين في بيت زهير، في قوله:

بعزمةِ مأمورٍ مطيعٍ وآمرٍ   مطاعٍ فلا يلفَى لحزمهِمُ مثلُ

وليس المأمور والآمر والمطيع والمطاع من التجنيس، لأن الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أنّ بعضها فاعل، وبعضها مفعول به، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة.

وكتاب الأجناس الذي جعلوه لهذا الباب مثالاً إنما يصف على هذه السبيل، ويكون المطيع مع المستطيع، والآمر مع الأمير تجنيساً. وجعل أيضاً من التجنيس قول الآخر:

ذو الحلم منَّا جاهلٍ دونَ ضيفهِ   وذو الجهل منا عن أذاهُ حليمُ

ليس بتجنيس، وكذلك قول خداش بن زهير:

ولكن عايشٌ ما عاش حتى   إذا ما كادهُ الأيام كيدا

وقال الشَّنفري:

وإني لحلوٌ إن أريد حلاوتي   ومرٌّ إذا النفس العزوف أمّرتِ

وقال العجير السّلولي:

يسرّك مظلوما ويرضيك ظالما   وكلّ الذي حملتَه فهو حاملُهْ

وقول الآخر:

وساعٍ مع السلطانِ يسعى عليهم   ومحترس من مثلهِ وهو حارسُ

وقول تأبط شراً:

يرى الوحشه الأنسَ الأنيسَ ويهتدي   بحيثُ اهتدتْ أمُّ النجومِ الشَّوابكِ

وقول الآخر:

صبَّتْ عليه ولم تنصبَّ من كثبٍ   إن الشقاء على الأشقينَ مصبوبُ

ليس في هذه الألفاظ تجنيس، وإنما اختلف هذه الكلم للتصريف.

فمن التجنيس في القرآن قول الله تعالى: "وأسلمتُ مع سليمانَ".

وقوله عز وجل: "فأقمْ وجهكَ للدّين القيّم".

وقوله تعالى: "تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ".

وقوله سبحانه وتعالى: "والتفّت السّاق بالسّاق إلى ربّك يومئذٍ المساقُ".

وقوله تعالى: "وجّهتْ وجهي للذي فطر السّموات والأرضَ".

وقوله عزّ وجل: "فروحٌ وريحانٌ وجنَّةُ نعيم". الرّوح: الراحة، والريحان الرزق.

وقوله سبحانه: "ثمَّ كلي من كلِّ الثّمرات".

وقوله تعالى: "أزفت الآزفة"، الآزفة: اسم ليوم القيامة.

فهذا كقول امرئ القيس:

لقدْ طمح الطّماح

وليس هذا كقولهم: أمر الأمر. هذا ليس بتجنيس.

وفي كلام النبيّ صلى الله وسلم: "عصيّة عصت الله ورسوله، وغفا وغفر الله لها، وأسلم سالمها الله".

وقوله صلى الله عليه وسلم: "الظلم ظلمات يوم القيامة".

أخذه أبو تمام، فقال:

جلا ظلمات الظلم من وجه أمةٍ أضاء لها من كوكب العدلِ آفلهْ

وقيل له صلى الله عليه وسلم: من المسلم؟ فقال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده".

وقال معاوية لابن عباس رضى الله عنهم: ما بالكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم؟ فقال: كما تصابون في بصائركم يا بني أمية. وقال صدقة بن عامر وقد مات له بنون سبعة فرآهم قد سجّوا: اللّهم إني مسلم مسلم. وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان: ما اسمك؟ قال خالد بن صفوان بن الأهتم، فقال الرجل: إنّ اسمك لكذب، ما خلّد أحد، وإن أباك لصفوان وهو حجر، وإن جدّك لأهتم وإن الصحيح خيرٌ من الأهتم. قال خالد: من أيّ قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدار، قال: فمثلك يشتم تميما في عزّها وحسبها، وقد هشمتك هاشم، وأمّتك أمية، وجمحت بك جمح، وخزمتك مخزوم، وأقصتك قصيّ، فجعلتك عبد دارها وموضع شنارها، تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا، وتغلقها إذا خرجوا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكون ذو الوجهين عند الله وجيها". وكتب بعض الكتاب: العذر مع التَّعذّر واجب. وقيل لبعضهم: ما بقي من نكاحك؟ قال: ما يقطع حجّتها ولا يبلغ حاجتها. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: هاجروا ولا تهجّروا، أي لا تشبّهوا بالمهاجرين من غير إخلاص. وكتب بعض الكتّاب: قد رخصت الضرورة في الإلحاح، وأرجو أن تحسن النظر، كما أحسنتُ الانتظار.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: حكى لي محمد بن يحيى عن عبد الله بن المعتز، قال: قدّم في بعض المجالس إلىّ صديقٌ لنا بخورا، فقال له صاحب المجلس: تبخّر، فإنه ندّ، فلما استعمله لم يستطبه، فقال: هذا ندّ عن

النَّدّ.

ومثله ما حكى لنا أبو أحمد عن الصّولي أن إبراهيم بن المهدي زار صديقاً له استدعى زيارته، فوجده سكران، فكتب في رقعة جعلها عند رأسه:

رحنا إليك وقد راحتْ بك الراح

وروى بعضهم أن عبد الله بن إدريس سئل عن النبيذ، فقال: جلّ أمره عن المسئلة، أجمع أهل الحرمين على تحريمه. وذم أعرابي رجلا فقال: إذا سأل ألحف، وإذا سئل سوّف، يحسد على الفضل، ويزهّد في الإفضال.

وكتب العتابي إلى مالك بن طوق: أما بعد فاكتسب أدباً، تحى نسبا، واعلم أن قريباك من قرب منك خيره، وأن ابن عمّك من عمّك نفعه، وأن أحبّ الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك. وقال آخر: اللّهى تفتح اللّها.

وأخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم الكاغدي، قال: أخبرنا أبو بكر العقدي، قال: أخبرنا أبو جعفر الخراز، قال: دخل فيروز حصين على الحجاج وعنده الغضبان بن القبعثري فقال له الحجاج: زعم الغضبان أن قومه خير من قومك، فقال: أكذاك يا غضبان؟ قال: نعم، فقال فيروز: أصلح الله الأمير اعتبر قومي وقومه بأسمائهم، هذا غضبان، غضب الله عليه، والقبعيري اسم قبيح من بني ثعلبة شرّ السباع، ابن بكر شرّ الإبل، ابن وائل له الويل، وأنا فيروز فيروز به، حصين حصنٌ وحرز، والعنبر ريح طيبة، من بني عمرو، عمارة وخير، من تميم تمّ، فقومي خير من قومه وأنا خير منه.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال سمعت الحيّ يتحدّثون أن جريرا، قال: لولا ما شغلني من هذه الكلاب لشبّبت تشبيبا تحنّ منه العجوز إلى شبابها.

ومن أشعار المتقدمين في التجنيس قول امرئ القيس:

لقد طمح الطّماح من بعد أرضهِ ليلبسني من دائه ما تلبّسا

وأخذه الكميت فقال:

ونحن طمحنَا لامرئ القيس بعدَما رجا الملك بالطّماح نكباً على نكبِ

وقال الفرزدق وذكر واديا:

خفاف أخفّ الله عنه سحابة وأوسعه من كلّ سافٍ وحاصبٍ

وقال زهير:

كأنّ عيني وقد سال السليلُ بهم وجيرة ما همُ لو أنّهمْ أممُ

وقال الفرزدق:

قد سال في أسلاتنا أو عضنَّه عضبٌ بضربتِه الملوك تقتَّلُ

وقال النابغة:

وأقطع الخرق بالخرقاء لاهية

وقال غيره:

على صرماء فيها أصرَماها وخرّيتُ الفلاة بها مليل

وقال قيس بن عاصم:

ونحن حفزنا الحوفزانَ بطعنةٍ سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

وقال:

وقاظ أسيرا هانئ وكأنما مفارق مفروق تغشينَ عندما

وقال أمية بن أبي الصلت:

فما أعتبتْ في النائبات معتّب ولكنّها طائت وضلّت حلُومها

وقال أوس بن حجر:

قد قلتُ للركب لولا أنهم عجلوا عوجوا عليّ فحيوا الحي أو سيروا

وفيها:

عزٌّ عرائر أبكارٌ نشأنَ معا خشنُ الخلائقِ عمّا يتّقى زورُ

وفيها:

لكن بفرتاجَ فالخلصاء أبت بها فحنبلٍ فعلى سراءَ مسرورُ

وفيها:

حتى أشب لهن الثور من كثبٍ فأرسلوهنَّ لم يدروا بما ثيرُوا

وقال الكميت:

فقل لجذام قد جذمتُم وسيلةً إلينا كمختار الرداف على الرَّحلِ

وقال طرفة:

بحسام سيفك أو لسانك وال كلمُ الأصيل كأرغب الكلمِ

وقال القحيف:

بخيل من فوارسها اختيال

وقال النعمان بن بشير لمعاوية:

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفُنا ... وليلك عمّا نابَ قومكَ نائم

وقال العبسي:

أبلغْ لديك بني سعدٍ مغلغلةً ... أنَّ الذي ينهها قد ماتَ أو دنفَا

وذا كمُ أنّ ذلَّ الجارِ حالفَكمْ ... وأن آنفكم لا يعرف الأنَفا

وقال جليح بن سويد:

أقبلنَ من مصر يبارين البرا

وقال ذو الرُّمة:

كأنَّ البُرى والعاج عيجت متونه ... على عشر نهَّى به السيل أبطحُ

وقال حيان بن ربيعة الطائي:

لقد علم القبائل أنَّ قومي ... لهم حدّ إذا لبس الحديدُ

وقال القطامى:

فلما ردَّها في الشولِ شالت ... بذيَّالٍ يكون لها لفاعا

وقال جرير:

وما زال معقولا عقالٌ عن الندى ... وما زال محبوسا عن الخير حابسُ

وقال امرؤ القيس:

بلاد عريضة وأرض أريضة ... مدافع غيث في فضاءٍ عريض

وقال آخر:

وطيب ثمارٍ في رياض أريضةٍ

وقال حميد الأرقط:

مرتجز في عارض عريض

ومن أشعار المحدثين قول الشاعر:

وسميته يحيى ليحيى ولم يكنْ ... إلى رد أمر الله فيه سبيلُ

تيممتُ فيه الفألَ حين رزقته ولم أدر أنّ الفأل فيه يفيلُ

وقال البحتري:

نسيمُ الروض في ريحٍ شمال وصوبُ المزن في راح شمول

وهذا من أحسن ما في هذا الباب، وقال أبو تمام:

سعدتْ غربة النوى بسعادِ فهي طوع الإتهامِ والإنجادِ

وهذا من الابتداءات المليحة، وقال فيها:

عاتقٌ معتقٌ من اللّوم إلا من معاناة مغرم أو نجاد

مليتكَ الأحساب أيّ حياة وحيَا أزمةٍ وحيّة وادِ

لو تراختْ يداك عنها فواقا أكلتها الأيام أكلَ الجراد

كادت المكرمات تنهدُّ لولا أنها أيّدتْ بحيّ إيادِ

وقال البحتري:

راحتْ لأربُعك الرياح مريضةً وأصابَ مغناك الغمامُ الصَّيِّبُ

وقال مسلم بن الوليد:

لعبت بها حتى محتْ آثارَها ريحان رائحتان باكرتان

وقال آخر:

لا تصغِ للّوم إن اللّومَ تضليلُ واشرب ففي الشرب للأحزان تحليلُ

فقد مضى القيظُ واحتثّت رواحلُه وطابت الراح لمّا آل أيلول

لم يبقَ في الأرض نبتٌ يشتكى مرهاً إلاّ وناظرُه بالطَّلِّ مكحولُ

وقال اليزيديّ للأصمعي:

وما أنت هل أنت إلا امرؤ إذا صح أصلك من باهلهْ

وللباهليّ على خبزه كتابٌ لآكلِه الآكله

وقال آخر:

قد بلغت الأشدّ لا شدك الل ه وجاوزته وأنت مليمُ

وقال مسلم:

يورَى بزندِك أو يسعى بمجدك أو يفرى بحدِّك كلٌّ غيرُ محدودِ

وقال:

وليس ببالي حين يحتكُّ جمرُها صدودُ صداء واجتناب بني جنبِ

وقال البحتري:

لولا عليٌّ بن مرّ لاستمرّ بنا خلفٌ من العيش فيه الصّاب والصبّرُ

بردُ الحشا وهجير الروع محتفل ومسعرٌ وشهاب الحرب يستعرُ

ألوى إذا شابك الأعداء كرّهُم حتى يروح وفي أظفاره الظَّفرُ

جافى المضاجع ما ينفك في لجبٍ يكاد يقمَرُ من لألائه القمر

وقال:

حيا الأرض ألقت فوقه الأرض ثقلَها وهول الأعادي فوقه الترب هائلُ

ستبكيه عينٌ لا ترى الخير بعدَه إذا فاض منها هاملٌ عاد هاملُ

وقال الطائي:

ورمى بثغرته الثّغور فسدَّها طلق اليدين مؤمّلا مرهوبا

وأنشدني العتبي:

دنس القميص غليظُه من غير لحمته سداه

وشعاره من شعره فكأنه من مسك شاه

وجنس أبو تمام أربع تجنيسات في بيت واحد، ولعله لم يسبق إليه وهو قوله:

بحوافرٍ حفرٍ وصلب صلَّبٍ وأشاعرٍ شعرٍ وخلق أخلقِ

وقوله أيضاً:

لسلمى سلامان وعمرة عامر وهند بني وسعدى بني سعدى

ومما جنس فيه تجنيسين، قوله:

ففصلنَ منه كلّ مجمع مفصلٍ وفعلنَ فاقرةً بكل فقار

ومن التجنيس ضرب آخر، وهو أن تأتي بكلمتين متجانستي الحروف، إلا أن في حروفها تقديماً وتأخيراً، كقول أبي تمام:

بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائف في متونهنَّ جلاءُ الشّكِّ والرّيبِ

وقلت في حية:

منقوشة تحكى صدور صحائف ... إبّانَ يبدو من صدور صفائح

وقيل لابنة الخسّ: كيف زينت مع عقلك؟ فقالت: طول السواد، وقرب الوساد.

ومن التجنيس نوع آخر يخالف ما تقدم بزيادة حرف أو نقصانه، وهو مثل قوله الله عز وجل: "وهم ينهونَ عنهُ وينأونَ عنهُ". وقوله تعالى: "كعرض السّماء والأرض". وقوله جل ذكره: "واللّيلِ وما وسق، والقمرِ إذا اتّسق". وقوله سبحانه: "ذلكم بما كنتم تفرحونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ، وبما كنتم تمرحون".

وكتب عبد الحميد: الناس أخياف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم علق مضنَّة لا يباع، ومنهم غلّ مظنة لا يبتاع.

ورفع رجل هاشمي يسمى عبد الصمد صوته في مجلس المأمون عند مناظرة، فقال المأمون:

لا ترفعنّ صوتك يا عبد الصمد ... إن الصواب في الأسدّ لا الأشدّ

وكتب كافي الكفاة رحمه الله: فأنت أدام الله عزّك، وأن طويت عنّا خبرك، وجعلت وطنك وطرك، فأنباؤك تأتينا، كما وشى بالمسك ريّاه، ودلّ على الصّبح محياه.

وقال عليّ رضى الله عنه: كل شيء يعز حين يترر، والعلم يعز حين يغزر وقال بعضهم: عليك بالصبر، فإنه سببُ النصر، ولا تخض الغمر، حتى تعرف الغور. وقال آخر: راش سهامه بالعقوق، ولوى ماله عن الحقوق.

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة". ودعا علي بن عبد العزيز المافروخي صاعد بن مخلد في يوم مطير فتخلف عنه واعتذر إليه. فكتب إليه عليّ: ما شقّ طريق هدى إلى صديق. وإنما جعلت المماطر، لليوم الماطر. فركب إليه. ومن المنظوم قول الأعشى:

رب حيٍّ أشقاهم آخر الده ... ر حيٍّ سقاهمُ بسجالِ

وقوله:

بليونِ المعزابةِ المعزالِ

وقول أوس بن حجر:

أقول فأما المنكراتِ فأتّقى ... وأما الشَّذا عنّى الملّم فأشذبُ

وقال امرؤ القيس:

بسامٍ ساهمِ الوجهُ حسَّان

وقال ابن مقبل:

يمشين هيل النَّقا مالت جوانبُه ينهال حيناً وينهاهُ الثَّرى حينَا

وقال زهير:

هم يضربون حبيكَ البيض إذا لحقُوا لا ينكلُون إذا ما استلحمُوا وحمُوا

وقال:

في متناه متناه كوكبه

وقال الحطيئة:

وإن كانت النّعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا

وقال آخر:

مطاعين في الهيجا مطاعيمُ في القرى

وقال أبو ذؤيب:

إذا ما الخلاجيمُ العلاجيمُ نكّلوا وطال عليهم حميُها وسعارُها

وقال آخر:

على الهامِ منها قيضُ بيض مفلَّقِ

وقال:

كفّاه مخلفةٌ ومتلفة وعطاؤه متخرق جزل

ومن شعر المحدثين قول البحتري:

من كل ساجى الطرف أغيدَ أجيدٍ ومهفهف الكشحينِ أحوى أحورِ

وقوله:

فقف مسعداً فيهن إنْ كنتَ عاذراً وسر مبعداً عنهنَّ إن كنتَ عاذلا

وقوله:

سنان أمير المؤمنين وسيفُه وسيبُ أمير المؤمنين ونائله

وقوله:

هل لما فاتَ من تلافٍ تلافِ أو لشاكٍ من الصَّبابة شافِ

وقول أبي تمام:

يمدّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

إذا الخيلُ جابتْ قسطل الحرب صدَّعُوا صدورَ العوالي في صدور الكتائب

وقوله:

ولم أر كالمعروف تدعى حقُوقه مغارمَ في الأقوام وهي مغانمُ

وقول الآخر:

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر في المعاجرْ

أمضى وأنفذُ في القلو ب من الحناجر في الحناجرْ

وقلت:

عذيريَ من دهر موار موارب له حسنات كلّهنّ ذنوبُ

وقلت:

آفة السر من جفو ن دوام دوامعُ

كيف يخفى معَ الدمو ع الهوامِي الهوامعُ

وقلت أيضاً:

خليفة شهم كلما اسمحت محت معالم جدب لم يطق محوها المطرُ

ومما عيب من التجنيس قول أبي تمام:

أهيسُ أليسُ لجاءٌ إلى همم تغرّق الأسدَ في آذيها الليسا

ومما عيب من التجنيس الأول قول أبي تمام:

خان الصَّفا أخٌ خان الزمانَ أخا عنه فلم تتخون جسمه الكمدُ

وقوله:

قرّتْ بقرّانَ عينُ الدين وانشترت بالأشترين عيون الشّرك فاصطلما

فهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب آخر، وهو أن انشتار العين لا يوجب الاصطلام، وقوله:

إن من عقّ والديه لملعو ن ومنْ عقَّ منزلا بالعقيقِ

وقوله:

خشنتِ عليه أختَ بني خشينِ

وهذا في غاية الهجانة والشناعة.

وقد جاء في أشعار المتقدمين من هذا الجنس نبذ يسير منه قول امرئ القيس:

وسنّ كسَّنيقٍ سناءَ وسنَّماً ذعرت بمدلاج الهجير نهوضِ

ولم يعرف الأصمعي وأبو عمرو معنى هذا البيت، وقال الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبُعني شاوٍ مشلٌّ شلول شلشلٌ شولُ

تبعه مسلم بن الوليد، فقال:

سلّتْ وسلتْ ثم سلَّ سليُلها فأتى سليلُ سليلها مسلولا

وقال أبو الغمر يصف السحاب:

نسجته الجنوبُ وهي صناعٌ فترّقى كأنه حبشيٌّ

وقرى كل قرية كل يقرو ها قرىً لا يجف منه قريٌّ

وهذا مستهجن لا يجوز لمتأخر أن يجعله حجة في إتيان مثله، لأن هذا وأمثاله شاذ معيب، والعيب من كل أحد معيب، وإنما الاقتداء في الصواب لا في الخطأ.

وقد قال بعض المتأخرين ما هو أقبح من جميع ما مر في قوله وليس من التجنيس:

ولا الضِّعف حتى يتبعَ الضَّعف ضعفهُ ولا ضعفَ ضعفِ الضِّعفِ بل مثله ألفُ

وقوله:

فقلقلتُ بالهمّ الّذي قلقلَ الحشا قلاقلَ عيسٍ كلُّهنّ قلاقلُ

وقيل لأبي القمقام: ألا تخرج إلى الغزاة بالمصّيصة؟ فقال: أمصَّنَ الله إذا بظر أمي ومن التجنيس المعيب قول بعض المحدثين، أنشده ابن المعتز:

أكابد منكم أليمَ الألم وقد انحلَ الجسمَ بعد الجسمْ

وقول الآخر:

كم رأسِ رأسٍ بكى من غير مقلته دماً وتحسبُه بالقاع مبتسِما

وقول إبراهيم أبو الفرج البندنيجي في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

هي الجآذرُ إلاّ أنّها حُور كأنها صور لكنّها صور

نور الحِجال ولكن من معايبها إذا طلبت هواها أنها نورُ

غيداءُ لو بلّ طرفُ البابلّي بها لارتدَّ وهو بغير السِّحر مسحورُ

إن الرواحَ جلا روحَ العراق لنا أصلاً وقد فصلتْ من مكّة العيرُ
تشكو العقوقَ وقد عقَّ العقيق لها وأرض عروة من بطحان فالنِّيرُ
يحتثُّها كلُّ زول دأبُه دأب من طول شوق وهجِّيراه تهجيرُ
مقوّرة الآلِ من خوض الفلاة إذا ما اعتمَّ بالآل في أرجائها القورُ

هذا البيت قريب من قول أبي تمام:

أحطت بالحزم حيزُوماً أخا همم كشّافَ طخياء لا ضيقا ولا حرجا

وقال المخزومي في طاهر بن الحسين:

ولو رأى هرمٌ معشار نائله لقيل في هرم قد جنّ أو هرِما

الفصل الرابع

في المقابلة

المقابلة: إيراد الكلام، ثم مقابلته مثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة. فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل، مثاله قول الله تعالى: "فتلكَ بيوتُهُمْ خاوية بما ظلمُوا"، فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم.

ونحو قوله تعالى: "ومكَرُوا مكراً ومكرنا مكراً"، فالمكر من الله تعالى العذابُ، جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته.

وقوله سبحانه: "نسوا الله فنسيهمْ".

وقوله تعالى: "إنَّ الله لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم".

ومن ذلك قول تأبط شرا:

أهزُّ به في ندوَة الحيِّ عطفهَ كما هزَّ عطفى بالهجان الأواركُ

وقول الآخر:

ومنْ لو أراه صادياً لسقيتُه ومن لو رآني صادياً لسقاني
ومنْ لو أراه عانياً لفديتُه ومنْ لو رآني عانياً لفداني

فهذا مقابلة باللفظ والمعنى.

وأما ما كان منها بالألفاظ، فمثل قول عدي بن الرّقاع:

ولقد ثنيتُ يد الفتاةِ وسادةً — لي جاعلاً إحدى يديّ وسادَها

وقال عمرو بن كلثوم:

ورثناهنّ عن آباءِ صدقٍ — ونورِثُها إذا متنا بنينَا

ومن النثر قول بعضهم: فإنّ أهل الرأى والنّصح لا يساويهم ذو الأفن والغشّ، وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة، كمن أضافَ إلى العجز الخيانة. فجعل بإزاء الرأي الأفن وبإزاء الأمانة الخيانة، فهذا على وجه المخالفة.

وقيل للرشيد: إن عبد الملك بن صالح يعدّ كلامه، فأنكر ذلك الرشيد، وقال: إذا دخل فقولوا له: ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن، ففعلوا. فقال: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بواحدة، ثواب الشاكر، وأجرَ الصابر، فعرفوا أنّ بلاغته طبع.

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من عمل: شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من نال الدخول فيه.

وكتب بعض الكتاب إلى رجل: فلو أن الأقدار إذ رمت بك في المراتب إلى أعلاها بلغت بك من أفعال السودد منتهاها لوازنت مساعيك مراقيك، وعادلت النعمة عليك النعمة فيك، ولكنك قابلت رفيع المراتب بوضيع الشّيم، فعاد علوّك بالاتفاق إلى حال دونك بالاستحقاق، وصار جناحك في الانهياض إلى مثل ما عليه قدرك في الانخفاض، ولا عجب أن القدر أذنب فيك فأناب، وغلط بك فعاد إلى الصواب، فأكثر هذه الألفاظ مقابلة وقال الجعدي:

فتىً كان فيه ما يسرُّ صديقَه — على أنّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

وقال آخر:

وإذا حديث ساءني لم أكتئبْ — وإذا حديثٌ سرني لم أشِر

وهذا في غاية التقابل.

ومن مقابلة المعاني بعضها لبعض، وهو من النوع الذي تقدم في أول الفصل قول الآخر:

وذي أخوةٍ قطَّعت أقرانَ بينهم — كما تركوني واحداً لا أخاً ليا

وقول الآخر:

أسرناهم وأنعمنا عليهم — وأسقينا دماءهُم الترابا

فما صبروا لبأس عند حرب — ولا أدّوا لحسن يد ثوابا

فجعل بإزاء الحرب أن لم يصبروا، وبإزاء النعمة أن لم يثيبوا، فقابل على وجه المخالفة. وقال آخر:

جزى الله عنا ذات بعلٍ تصدقتْ على عزبٍ حتى يكونَ له أهلُ
فإنا سنجزيها بمثل فعالِها إذا ما تزوجنا وليس لها بعلُ

فجعل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزب، ووصاله إياها في حال عزبتها، كوصالها إياه في حال عزبته، فقابل من جهة الموافقة.

ومن سوء المقابلة قول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت سويّةً ولكنها نفس تساقط أنفُسا

ليس سوية بموافق لتساقط ولا مخالف له، ولهذا غيّره أهلُ المعرفة فجعلوه جميعة، لأنه بمقابلة تساقط أليق. وفساد المقابلة أن تذكر معنى تقتضى الحال ذكرها بموافقة أو مخالفة، فيؤتى بما لا يوافق ولا يخالف، مثل أن يقال: فلان شديد البأس، نقى الثغر، أو جواد الكف، أبيض الثوب. أو تقول: ما صاحبت خيراً، ولا فاسقا، وما جائني أحمر، ولا أسمر. ووجه الكلام أن تقول: ما جاءني أحمر ولا أسود، وما صاحبت خيّراً ولا شريراً، وفلان شديد البأس، عظيم النكاية، وجواد الكفّ، كثير العرف. وما يجرى مع ذلك، لأن السمرة لا تخالف السواد غاية المخالفة، ونقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافقه، فاعلم ذلك وقس عليه.

ومما يقرب من هذا قول أبي عدي القرشي:

يا بنَ خيرَ الأخيار من عبد شمس أنت زينُ الورى وغيثُ الجنودِ

فوضع زين الورى مع غيث الجنود في غاية السماجة.

وقريب منه قول الآخر:

خودٌ تكامل فيها الدلُّ والشنبُ

ومثله قول أبي تمام:

وزيرُ حق ووالي شرطة ورحى ديوان ملك وشيعيٌّ ومحتسبُ

ومن مختار المقابلة وكان ينبغي تقديمه فلم يتفق ما كتب الحسن بن وهب: لا ترض لي بيسير البرّ، فإني لم أرض لك بيسير الشكر، ودع عنّي مؤونة التقاضي كما وضعت عنك مؤونة الإلحاح، وأحضر من ذكرى في قلبك ما هو أكفى من قعودي بصدرك، فإني أحق من فعلت به، كما أنك أحق من فعله بي، وحقق الظن، فليس وراءك مذهب، ولا عنك مقصّر.

الفصل الخامس

في صحة التقسيم

التقسيم الصحيح: أن تقسّم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه، فمن ذلك قول الله تعالى: "هو الذي يريكمُ البرق خوفاً وطمعاً"، وهذا أحسن تقسيم، لأنّ الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع، ليس فيهم ثالث.

ومن القسمة الصحيحة قول أعرابي لبعضهم: النعم ثلاث، نعمة في حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترتجيه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه، فليس في أقسام النعم التي يقع الانتفاع بها قسم رابع سوى هذه الأقسام.

ووقف أعرابي على مجلس الحسن، فقال: رحم الله عبداً أعطى من سعة، أو آسى من كفاف، أو آثر من قلّة. فقال الحسن، ما ترك لأحد عذراً، فانصرف الأعرابي بخير كثير.

وقول إبراهيم بن العباس: وقسم الله تعالى عدوه أقساماً ثلاثة، روحاً معجّلة إلى عذاب الله، وجثة منصوبة لأولياء الله، ورأساً منقولا إلى دار خلافة الله ليس لهذه الأقسام رابع أيضاً، فهي في نهاية الصحة.

ومن المنظوم قول نصيب:

فقال فريق القوم. لا، وفريقهم ... نعم، وفريق لا يمنُ الله ما ندري

فليس في أقسام الإجابة عن المطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام.

قال الشماخ:

متى ما تقع أرساغُه مطمئنةً ... على حجرٍ يرفضّ أو يتدحرج

والوطء الشديد إذا صادف الموطوء رخواً ارفضّ منه، أو صلبا تدحرج عنه.

وقول الآخر:

يا اسم صبراً على ما كان من حدثٍ ... إنّ الحوادثَ ملقّى ومنتظرُ

وليس في الحوادث إلا ما لقى أو انتظر لقيه.

وقول الآخر:

والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وكان عمر رضى الله عنه يتعجب من صحة هذه القسمة. وقول زهير:

فإنَّ الحقَّ مقطعُهُ ثلاثٌ ... يمين أو نفارٌ أو جلاء

فذلكمُ مقاطعُ كلِّ حق ... ثلاثٌ كلّهنّ لكمْ شفاء

وكان يعجب أيضاً بهذا البيت ويقول: لو أدركت زهيراً لولَّيتُه القضاء لمعرفته.

ومن عيوب القسمة قول بعض العرب:

سقاه سقيتين الله سقياً طهوراً والغمامَ يرى الغماما

فقال سقيتين ثم قال: سقياً طهوراً، ولم يذكر الأخرى، وقيل: أراد في الدنيا وفي الآخرة، وهذا مردود، لأن الكلام لا يدل عليه. وقول عبيد الله بن سليم:

فهبطت غيثا ما يفزَّع وحشهُ من بين مسرب ناوئ وكنُوس

فقسم قسمة رديئة، لأنه جعل الوحش بين سمين وداخل في كناسة. وكان ينبغي أن يقول: من بين سمين وهزيل، أو بين كانس وظاهر، ويجوز أن يكون السمين كانساً وراتعاً والكانس سميناً وهزيلا، وما أعرف لهذا شبها إلا قول كيسان حين سأل فقال: علقمة بن عبدة، جاهلي أو من بني تميم؟ ومثله ما كتب بعضهم: فمن بين جريح مضرج بدمائه، وهارب بلتفت إلى ورائه، فالجريح قد يكون هارباً، الهارب قد يكون جريحا، ولو قال: فمن قتيل لصح المعنى.

ومثله قول قيس بن الخطيم:

وسلوا ضريح الكاهنين ومالكاً كم فيهما من دارع ونجيبِ

ليس النجيب من الدارع في شيء وقريب منه قول الأخطل:

إذا التقتِ الأبطالُ أبصرت لونَه مضيئاً وأعناقُ الكماةِ خضوعُ

كان ينبغي أن يقول: وألوان الكماة كاسفة، ومضيئة مع خضوع ردئ جداً.

ومن القسمة الرديئة قول جرير:

صارتْ حنيفة أثلاثاً فثلثُهم من العبيد وثلثٌ من موالينا

فأنشده ورجلٌ من حنيفة حاضر، فقيل له: من أي قسم أنت. فقال: من الثلث الملغى ذكره.

ومن هذا الجنس ما ذكره قدامة أن ابن ميادة كتب إلى عامل من عماله هرب من صارفه: إنك لا تخلو في هربك من صارفك أن تكون قدّمت إليه إساءة خفته معها، أو خشيت في عملك خيانة رهبت يكشفه إياك عنها، فإن كنت أسأت

فأول راضٍ سنةَ من يسيرها

وإن كنت خفت خيانة فلا بد من مطالبتك بها.

فكتب العامل تحت هذا التوقيع: في الأقسام ما لم يدخل فيما ذكرته، وهو أني خفت ظلمه إياي بالبعد عنك، وتكثيره عليّ الباطل عندك، فوجدت الهرب إلى حيث يمكنني فيه دفع ما يتخرّصه أنفسي للظّنه

عني، وبعدي عمّن لا يؤمن ظلمه أولى بالاحتياط لنفسي.

ومن القسمة الرديئة أيضاً قول ابن القرِّية: الناس ثلاثة، عاقل، وأحمق، وفاجر، فالفاجر يجوز أن يكون أحمق، ويجوز أن يكون عاقلا، والعاقل يجوز أن يكون فاجرا، وكذلك الأحمق.

وإذا دخل أحد القسمين في الآخر فسدت القسمة، كقول أمية بن أبي الصلت:

لله نعمتنا تبارك ربُّنا ... ربُّ الأنام ورب من يتأبد

داخل في الأنام من يتأبد.

وكذلك قول الآخر:

أبادرُ إهلاكَ مستهلك ... لمالي وإن عبثَ العابثُ

فعبث العابث داخل في إهلاك المستهلك.

وكذلك قول الآخر:

فما برحت تومي إليك بطرفها ... وتومض أحيانا إذا طرفها غفل

فتومى وتومض واحد.

وقول جميل:

لو كان في قلبي كقدر قلامةٍ ... حبّ وصلتك أو أتتك رسائلي

فإتيان الرسائل داخل في الوصل.

ومن ذلك أيضاً ما كتب بعضهم: ففكرت مرة في عزلك، ومرة في صرفك وتقليد غيرك.

وفي فصل آخر كتب هذا الرجل إلى عامل: فتارة تسرق الأموال وتختزلها، وتارة تقتطعها وتحتجبها. فمعنى الجزأين واحد.

الفصل السادس

في صحة التفسير

وهو أن يورد معاني فيحتاج إلى شرح أحوالها، فإذا شرحت تأتي في الشرح بتلك المعاني من غير عدول عنها أو زيادة تزاد فيها، كقول الله تعالى: "ومن رحمتِهِ جعَل لكمُ اللّيلَ والنّهارَ لتسكنُوا فيه ولتبتغُوا من فضله". فجعل السكون للّيل، وابتغاء الفضل للنهار، فهو في غاية الحسن، ونهاية التمام.

ومن النثر ما كتب بعضهم: إن لله عز وجل نعما لو تعاون خلقه على شكر واحدة منها لأفنوا أعمارهم قبل قضاء الحقّ فيها، ولى ذنوبٌ لو فرّقت بين خلقه جميعاً لكان كلّ واحد منهم عظيم الثقل منها، ولكنه

يستر بكرمه، ويعودُ بفضله، ويؤخر العقوبة انتظاراً لمراجعة من عبده، ولا يخلى المطيع والعاصي من إحسانه وبرّه.

فذكر جملتين، وهما نعم الله تعالى وذنوب عبده، ثم فسر كل واحدة منهما مرتين تفسيراً صحيحاً. قوله: يستر بكرمه راجع إلى الذنوب، وقوله: يعود بفضله راجع إلى النعم، فاستوفى. ثم قال: ويؤخر العقوبة فهذا أيضاً راجع إلى الذنوب، وقوله: "ولا يخلى المطيع والعاصي من إحسانه وبره" راجع إلى النّعم، فهو تفسير صحيح في تفسير صحيح.

ومن ذلك قول بعض أهل الزمان وقد كتب إليه بعض الأشراف كتاباً وسأله أن يصلح ما يجد فيه من سقم، فكتب إليه: فأمّا ما رسمه من سدّ ثلمه، وجبر كسره، ولمّ شعثه، فأيّ ثلم يوجد في أديم السماء، وأيّ كسر يلفى في حاجب ذكاء، وأيّ شعث يرى ي الزّهرة الزهراء ففسر الثلاثة، ولم يغادر منها واحدا. ومثاله من المنظوم قول الفرزدق:

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهمُ طريد دمٍ أو حاملا ثقلَ مغرمَ
لألفيت فيهم معطيا أو مطاعنا وراءك شزرا بالوشيج المقوّمِ

ففسر قوله: "حاملاً ثقل مغرم"، بقوله: "تلقى فيهم من يعطيك" وقوله: طريد دم بقوله: "تلقى فيهم من يطاعن دونك".

وقال ابن مطير في السحاب:

ولهٌ بلا حزنٍ ولا بمسرَّةٍ ضحكٌ يراوح بينه وبكاء

وقول المقنّع:

لا تضجرنّ ولا يدخلكَ معجزةٌ فالنُّجحُ يهلكُ بين العجزِ والضَّجرِ

وضربٌ منه قول صالح بن جناح اللخمي:

لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنَّني إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرسٌ للحلم بالحلم ملجمٌ ولي فرسٌ للجهل بالجهل مسرجُ
فمن رامَ تقويمي فإني مقوّم ومن رام تعويجي فإني معوّجُ

وقول سهل بن هرون:

فواحسرتا حتَّى متى القلب موجعٌ بفقد حبيب أو تعذُّر إفضالِ

فراقُ حبيب مثله يورِث الأسى — وخلة حر لا يقومُ لا مالي

وقال آخر:

شبهُ الغيثِ فيه والليث والبد — ر فسمحٌ ومحرب وجميل

وقلت:

كيف أسلُو وأنتَ حقف وغصنٌ — وغزال لحظاً وردفاً وقدّا

وقال آخر:

فألقتْ قناعا دونَه الشمس واتقت — بأحسن موصولين كفّ ومعصم

ومن عيوب هذا الباب ما أنشده قدامة:

فيأيها الحيران في ظلمةِ الدجى — ومن خاف أن يلقاه بغيٌ من العدا

تعال إليه تلق من نورِ وجهه — ضياءً ومن كفيه بحراً من الندى

وكان يجب أن يأتي بإزاء بغى العدا بالنّصرة أو بالعصمة أو بالوزر أو ما يجانس ذلك مما يحتمى به الإنسان، كما وضع بإزاء الظلمة الضياء. فأما إذا وضع بإزاء ما يتخوّف من بغى العدا بحراً من الندى فليس ذلك تفسيراً لذلك.

ومن فساد التفسير ما كتب بعضهم: من كان لأمير المؤمنين كما أنت له من الذَّبِّ عن ثغوره والمسارعة إلى ما يهيب به إليه من صغر أمره وكبيره كان جديراً بنصح أمير المؤمنين في أعماله، والاجتهاد في تثمير أمواله، فليس الذي قدّم من الحال التي عليها هذا العامل من الذّب عن الثغور والمسارعة في الخطوب ما سبيله أن يفسّر بالنصح في الأعمال وتثمير الأموال. ولعلّه لو أضاف إلى ذكر الذّب عن الثغور ذكر الحياطة في الأمور لكان بهذا المضاف يجوز أن يفسّر بالنصح في العمال والتثمير للأموال.

الفصل السابع

في الإشارة

الإشارة أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معان كثيرة، بإيماء إليها ولمحة تدل عليها، وذلك كقوله تعالى: "إذ يغشى السّدرة ما يغشى". وقول الناس: لو رأيت عليّا بين الصفين، فيه حذف وإشارة إلى معان كثيرة.

وأخبرنا أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الصولي، قال أخبرنا الحزنبل، قال: لما ولّى المهتدي بالله وزارته سليمان بن وهب قام إليه رجل من ذي حرمته، فقال: أعز الله الوزير خادمك المؤمّل لدولتك، السعيد

بأيامك، المنطوي القلب على مودتك، المبسوط اللسان بمدحتك، المرتهن الشكر بنعمتك، وإنما أنا كما قال القيسي: مازلتُ أمتطي النهار إليك، وأستدلّ بفضلك عليك، حتى إذا أجنّني الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، قام بدني، وسافر أملي، واجتهاد عذر، وإذا بلغتك فقط. فقال سليمان: لا بأس عليك فإني عارف بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك بما يحسنُ عليك أثره، ويطيب لك خيره إن شاء الله. فقوله: "وإذا بلغتك فقط" إشارة إلى معان كثيرة يطول شرحها.

وكتب آخر إلى آخر: أتعيّرني وأنا أنا والله لأزرن عليك الفضاء، ولأبغّضنك لذيذ الحياة، ولأحبّبنّ إليك كريه الممات، ما أظنك تربع على ظلعك، وتقيس شبرك بفترك، حتى تذوق وبال أمرك، فتعتذر حين لا تقبل المعذرة، وتستقيل حين لا تقال العثرة. فقول: وأنا أنا إشارة إلى معان كثيرة، وتهديد شديد، وإبعاد كثير.

ومن المنظوم قول امرئ القيس:

فإنْ تهلكْ شنوءة أو تبدّلْ فسيرى إنَّ في غسان خالا

بعزِّهم عززت وإن يذلّوا فذلهم أنالكِ ما أنالا

فقولوه: "إنّ في غسان خالا وأنا لك ما أنالا إشارة إلى معان كثيرة.

وضرب منه قوله:

على سابحٍ يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كزّ ولا وانِ

فقوله: أفانين جرى مشار به إلى معان لو عدت لكثرت، وضم إلى ذلك جميع أوصاف الجودة في قوله: يعطيك قبل سؤاله.

وأنشدنا أبو أحمد لبعضهم:

لم آت مطَّلباً إلا لمطلب وهمة بلغتْ بي أفضلَ الرتبِ

أعملتِ عيسى إلى البيت العتيق على ما كان من دأب فيها ومن نصبِ

حتى إذا ما انقضى حجّى ثنيتُ لها فضلَ الزمام فأمَّتْ سيدَ العربِ

هذا رجائي وهذى مصر معرضة وأنتَ أنتَ وقد ناديتُ من كثبِ

فقوله: أنت أنت مشارٌ به إلى نعوت من المدح كثيرة.

ومن هذا قول أبي نواس:

أنت الخصيبُ وهذا مصر

الفصل الثامن

في الأرداف والتوابع

الأرداف والتوابع: أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدالّ عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابعٌ له، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده، وذلك مثل قول الله تعالى: "فيهنَّ قاصراتُ الطّرفِ"، وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف، وذلك أن المرأة إذا عفّت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفا للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف.

وكذلك قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياةٌ"، وذلك أنّ الناس يتكافّون عن الحرب من أجل القصاص فيحيون فكأن حياتهم ردف للقصاص الذي يتكافّون عن القتل من أجله، ونحوه قول الشاعر:

وفي العتاب حياة بينَ أقوامِ

ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الفرع، فقال: حق، وإن تتركه حتى يكون ابن مخاض أو ابن لبون خير من أن تكفئ إناءك، وتولّه ناقتك، وتدعه يلصق لحمه بوبره.

الفرع: أول شيء تنتجه الناقة، وكانوا يذبحونه لله عز وجل. فقال: هو حق، إلا أنه ينبغي أن يترك حتى يكون ابن مخاض أو ابن لبون فيصير للحمه طعم، وقال هو خير من أن تكفئ إناءك" فهذه من الإرداف أراد أنك إذا ذبحته حين تضعه أمّه بقيت الأم بلا ولد ترضعه فانقطع لبنها، فردف ذلك أن يخلو إناؤك من اللبن، فكأنك قد كفأته. ومثله قول امرئ القيس:

وأفلهنّ علباءٌ جريضا ... ولو أدركنهُ صفر الوطابُ

أي لو أدركنه يعني الخيل قتلنه، واستقن إبله فصفرت وطابه، ومن ذلك قول الأعشى:

ربَّ رفدٍ هرقتُه ذلك اليو ... م وأسرَى من معشر أقيالٍ

الرّفد: القدح العظيم الضخم، يقول: استقت الإبل فخلا الرّفد، فكأنك قد هرقته.

ومن الأرداف قول المرأة لمن سألته: أشكو إليك قلة الجرذان، وذلك أن قلّة جرذان البيت ردف لعدم خيره، ويقولون: فلان عظيم الرماد، يريدون أنه كثير الإطعام للأضياف، لأن كثرة الإطعام يردف كثرة الطبخ، ومن المنظوم قول التغلبيّ:

وكل أناسٍ قاربوا قيدَ فحلهمْ ... ونحنُ خلعنا قيدهُ فهو ساربُ

أراد أن يذكر عزّ قومه، فذكر تسريح الفحل في المرعى، والتوسيع له فيه، لأن هذه الحال تابعة للعزّة رادفة للمنعة، وذلك أن الأعداء لعزهم لا يقدمون عليهم فيحتاجون إلى تقييد فحلهم، مخافة أن يساق فيتبعه السّرح، ومن ذلك قول الآخر:

ومهما فيّ من عيبٍ فإني جبان الكلب مهزولُ الفصيل

يعني أن كلبه يضرب إذا نبح على الأضياف، فيدرف ذلك جبنه عن نبحهم، وأن اللبن الذي يسمن به الفصيل يجعل للأضياف فيردف ذلك هزال الفصيل.

وقول الآخر:

وكل أناسٍ سوف تدخلُ بينهُمْ دويهيةٌ تصفرٌ منها الأناملُ

يعني الموت، فعبر عنه باصفرار الأنامل، لأنها تصفر من الميت، فكان اصفرارُها ردف، وقول امرئ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشِها نئوم الضحا لم تنتطق عن تفضلِ

أراد أنها مكفّية، ونئومة الضحا وترك الانتطاق للخدمة يردفان الكافية، فعبر بهما عنها وأراد أنها من أهل الترفّه والنعمة فتستعمل المسك الكثير فينتثر في فراشها، وهذه الحال لتردف الترف والنعمة، وقول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرطِ أما لنوفل أبوها وأما عبدُ شمس وهاشم

فأراد أن يصف طول عنقها فأتى بما دلّ عليه من طول مهوى القرط، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق. وقول الخنساء:

ومخرَّقٍ عنه القيمص تخالهُ بين البيوتِ من الحياءِ سقيما

أرادتْ وصفَه بالجود فجلعته مخرّق القميص، لأن العفاة يجذبونه، فتمزيق قميصه ردف لجوده. وقول الشاعر:

طويلُ نجادِ السيف لا متضائل ولا رهلٌ لبَّاتهُ وبآدله

أراد وصفه بطول القامة، فذكر طول نجاده، لأن طوله ردف لطول القامة. وقد أدخل بعض من صنّف في هذا أمثلة باب الأرداف في باب المماثلة، وأمثلة باب المماثلة في باب الأرداف، فأفسد البابين جميعاً، فلخصت ذلك وميزّته وجعلت كلاًّ في موضعه، وفيه دقّة وإشكال.

الفصل التاسع

في المماثلة

المماثلة: أن يريد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر، إلا أنه ينبئ إذا أورده عن المعنى الذي أراده، كقولهم: فلان نقي الثوب، يريدون به أنه لا عيب فيه. وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلاً. وقول امرئ القيس:

ثيابٌ بني عوف طهارى نقيةٌ   وأوجههم عند المشاهد غرَّانُ

وكذلك قولهم: فلان طاهر الجيب، يريدون أنه ليس بخائن ولا غادر.

وقولهم: فلان طيب الحجرة، أي عفيف. قال النابغة:

رقاقُ النعال طيبٌ حجزاتهمْ   يحيّونَ بالريحان يومَ السباسبِ

وقال الأصمعي: إذا قالت العرب: الثوب والإزار، فإنهم يريدون البدن، وأنشد:

ألا أبلغْ أبا حفصٍ رسولا   فدىً لك من أخي ثقةٍ إزارِي

وقالوا في قول ليلى:

رموها بأثواب خفافٍ فلا ترى   لها شبهاً إلا النعام المنفَّرا

أرى رموها بأجسامهم وهي خفاف عليها. ووضع الثوب موضعاً آخر في قول الشاعر:

فتلكَ ثيابُ إبراهيم فينا   بواقٍ ما دنسنَ ولا بلينا

ويقولون: فلان أوسع بني أبيه ثوبا، أي أكثرهم معروفاً، وفلان غمر الرداء، إذا كان كثير المعروف، قال كثير:

غمرُ الرداء إذا تبسمَ ضاحكا   علقتْ لضحكته رقابُ المال

وكذلك قولهم: فلان رحب الذراع، وفلان دنس الثوب، إذا كان غادراً فاجراً، قال الشاعر:

ولكنني أنفى عن الذم والدي   وبعضهم للذم في ثوبِهِ دسمُ

ويقولن: دم فلان في ثوب فلان، أي هو صاحبه. قال أبو ذؤيب:

تبرَّأ من دمّ القتيل وبزّه   وقد علقتْ دمَّ القتيل إزارُها

هذيل تؤنث الإزار، أي علّقت دم القتيل هي، ورواه أبو عمرو الشيباني وبزّه، بالرفع، أيوبزه إزارها وقد علقت دمه، ويقولون للفرس: إنه لطرب العنان، وللبعير: قد سفه جديله، والجديل: الزمام. وقال ذو الرمة:

وأشقر موشيّ القميص نصبتُه   على خضر مقلات سفيه جديلها

وفي القرآن: "كالّتي نقضت غزلها من بعدِ قوّة أنكاثاً"، فمثّل العمل ثم إحباطه بالنّقض بعد الفتل.
وكذلك قوله تعالى: "ولا تتّخدوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها".
وقوله عز وجل: "هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ".
وقوله سبحانه: "ولا تجعل يدك مغلولةً غل عنقكَ ولا تبسطهَا كلَّ البسطِ" فمثّل البخيل الممتنع من البذل بالمغلول، لمعنى يجمعها، وهو أنّ البخيل لا يمدّ يده بالعطية فشبّهه بالمغلول. ويقولون: عركت هذه الكلمة بجنبي، إذا أغضيت عنها، وفلان قد طوى كشحه عن فلان، إذا ترك مودّته وصحبته. ويقولون: كبا زند العدوّ، وصلف زنده، وأفل نجمُه، وذهبت ريحه، وأطفئت جمرته، وأخلف نوؤه، وأخلقت جدّته، وانكسرت شوكته، وكلّ حدّه، وانقطع بطانُه، وتضعضع ركنه، وضعف عقده، وذلت عضده، وفتّ في عضده، ورق جانبه، ولانتْ عريكته، يقال ذلك فيه إذا ولّى أمره، تمثيلاً وتشبيها.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن"، أراد المرأة الحسناء في منبت السوء، فأتى بغير اللفظ الموضوع لها تمثيلا. وقال بعضهم: كنا في رفقة فضللنا الطريق، فاسترشدنا عجوزاً فقالت: استبطن الوادي، وكن سيلا حتى تبلغ.

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عن المأمون بعزله عن ديار مصر، وتسليم العمل إلى إسحاق بن إبراهيم: أما بعد فإن أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحاق بن إبراهيم ما تتولاه من أعمال المعاون بديار مصر، وإنما هو عملك نقل منك إليك. فسلمه من يدك إلى يدك والسلام. واغتاب رجل رجلاً عند سلم بن قتيبة، فقال له سلم: اسكت، فوالله لقد تلمّظت مضغة طالما لفظها الكرام.
ومن المنظوم قول طرفة:

أبينى، أفي يمني يديكِ جعلتِني فأفرحَ أم صيّرتني في شمالك

أي أبيني منزلتي عندك أوضيعة هي أم رفيعة، فذكر اليمين وجعلها بدلا من الرفعة، والشمال وجعلها عوضاً من الضّعة. وأخذه الرّماح بن ميّادة، فقال:

ألم تكُ في يمنى يديك جعلتني فلا تجعلنِّ بعدها في شمالكا
ولو أنّني أذنبتُ ما كنتُ هالكاً على خصلةٍ من صالحات خصالكا

وقال آخر:

تركتُ الرّكابَ لأربابِها وأكرهتُ نفسي على ابن الصّعقْ
جعلت يدي وشاحاً له وبعض الفوارس لا تعتنق

فقوله: جعلت يدي وشاحاً تمثيل. وقول زهير:

ومن يعصِ أطرافَ الزجاجِ فإنه   يطيع العوالي ركبتْ كل لهذمِ

أراد أن يقول: من أبي الصلح رضى بالحرب، فعدل عن لفظه، وأتى بالتمثيل، فجعل الزّج للصلح، لأنه مستقبل في الصلح، والسنان للحرب لأن الحرب به يكون، وهذا مثل قولهم: من عصى الصوت أطاع السيف، ومنه قول امرئ القيس:

وما ذرفتْ عيناك إلاَّ لتضربي   بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتلِ

فقال: بسهميك، وأراد العينين. وقال العباس بن مرداس:

كانوا أمامَ المؤمنين دريّةً   والشمس يومئذٍ عليهم أشمسُ

أراد تلألؤ البيض في الشمس، فكأن على كل رأس شمساً، وقال قدامة: من أمثلة هذا الباب قول الشاعر:

أوردتهُمْ وصدورُ العيس مسنفةٌ   والصّبح بالكوكب الدُّريّ منحور

وقال: قد أشار إلى الفجر إشارة إلى طريقه بغير لفظه. وليس في هذا البيت إشارة إلى الفجر، بل قد صرّح بذكر الصبح، وقال: هو منحور بالكوكب، أي صار في نحره، ووضعُ هذا البيت في باب الاستعارة أولى منه في باب المماثلة.

ومما عيب من هذا الباب قول أبي تمام:

أنتَ دلوٌ وذو السَّماح أبو   موسى قليبٌ وأنت دلوُ القليبِ

أيها الدّلو لا عدمُتك دلواً   من جياد الدِّلاءِ صلب الصّلِيبِ

الفصل العاشر

في الغلو

الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها، كقول الله تعالى: "وبلغت القلوب الحناجرَ". وقال تأبط شرا:

ويومٍ كيومِ العيكتينِ وعطفةٍ   عطفت وقد مسّ القلوبَ الحناجر

وقال الله تعالى: "وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال"، بمعنى لتكاد تزول منه. ويقال إنها في مصحف ابن مسعود مثبتة، وقد جاءت في القرآن مثبتة وغير مثبتة. قال الله تعالى: "وإن يكادُ الَّذينَ كفروا ليزلقونكَ

بأبصارِهم".
وقال الشاعر:

يتقارضونَ إذا التقوا في موطنِ   نظراً يزيلُ مواطئ الأقدامِ

وكاد إنما هي للمقاربة، وهي أيضاً مع إثباهًا توسع، لأن القلوب لا تقارب البلوغ إلى الحناجر وأصحاهِا أحياء.

وقوله تعالى: "ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجملُ في سمّ الخياط"، وهذا إنما هو على البعيد، ومعناه لا يدخل الجمل في سمّ الخياط ولا يدخل هؤلاء الجنة.

ومثله قول الشاعر:

إذا زال عنكم أسودُ العينِ كنتمُ   كراماً وأنتم ما أقام ألائمُ

وقول الآخر:

فرجِّى الخير وانتظرِي إيابي   إذا ما القارظُ العنزيُّ آبا

وقال النابغة:

فإنك سوف تحلم أو تناهى   إذا ما شبتَ أو شابَ الغرابَ

ومثال الغلو من النثر قول امرأة من العجم كانت لا تظهر إذا طلعت الشمس فقيل لها في ذلك، فقالت: أخاف أن تكسفني. وقال أعرابي: لنا تمرة فطساء جرداء، تضع التمرة في فيك، فتجد حلاوهًا في كعبك. وقيل لأعرابيّ: ما حضر فرسك؟ قال يحضر ما وجد أرضا. ووصف أعرابي فرسه، فقال: إن الوابل ليصيب عجزه، فلا يبلغ إلى معرفته حتى أبلغ حاجتي. وذمّ أعرابي رجلاً، فقال: يكاد يعدى لؤمُه من تسمّى باسمه.

وكتب بعضهم يصف رجلاً، فقال: أما بعد، فإنك قد كتبت تسأل عن فلان، كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدَّثت نفسك بالوفود إليه، فلا تفعل، فإنّ حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإنّ الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يغضب منه، وأن الصنيعة مرفوعة، والصلة موضوعة، والهمة مكروهة، والثقة منسوخة، والتوسع ضلالة، والجود فسوق، والسخاء من همزات الشياطين، وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب على نفسه، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالاً

بعيداً، وخسر خسراناً مبينا، كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الذين قطع الله دابرهم، ومحا معالمهم، ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم وحظر عليهم أن يختاروا مثل اختيارهم، يظنُّ أن الرّجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، و لم تهلك عاداً بالريح العقيم إلا لتوسّع كان فيهم، فهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإمساك، ويعذر نفسه في العقوق، ويلوى ما له عن الحقوق، خيفة أن يترل به قوارع العالمين. ويأمرها بالبخل خشية أن يصيبه ما أصلب القرون الأولين، فأقم رحمك الله على مكانك، واصطبر على عسرتك، عسى الله أن يبدّلنا وإياك خيراً منه زكاةً وأقرب رحما.

وقال سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما وقد أثقلت ابنتها بالدر: ما ألبستُها إياه إلا تلفضحه، ونحوه قول الشاعر:

جارية أطيبُ من طيبها ... والطيّب فيه المسك والعنبر

ووجهها أحسن من حليها ... والحلي فيه الدرُّ والجوهر

وقال ابن مطير:

مخصَّرةُ الأوساطِ زانتْ عقودَها ... بأحسنَ مما زينتْها عقودُها

وقيل لأعرابي: فلان يدّعي الفضل على فلان، فقال: والله لئن كان أطول من مسيره ما بلغ فضله، ولو وقع في ضحضاح معروفه غرق. وقال أعرابي: الناس يأكلون أماناهم لقما، وفلان يحسوها حسواً، ولو نازعت فيه الخنازير لقضى به لها لقرب شبهه منها، وما ميراثه عن آدم إلا أنه سمى آدميا. وذكر أعرابي رجلا، فقال: كيف يدرك بثاره وفي صدره حشو مرفقة من البلغم، وهو المرء لو دقّ بوجهه الحجارة لرضّها، ولو خلا بالكعبة لسرقها.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: حدثنا الحسن بن الحسين الأزدي قال: حدثنا ابن أبي السرى، عن رزين العروضي، قال: لقيت أبا الحرث جميزاً ومعه غلام لمحمد بن يحيى البرمكي متعلق به، فقلت له: ما لهذا متعلق بك؟ فقال: لأني دخلت أمس على مولاه وبين يديه خوان من نصف خشخاشة، فتنفست فطار الخوان في أنفي فهذا يستعدى عليّ، فقلت له: أما تستحي مما تقول؟ فقال: الطلاق له لازم لو أن عصفوراً نقر حبّة من طعام بيدره ما رضى حتى يؤتى بالعصفور مشوياً بين رغيفين، والرغيفان من عند العصفور قلت: قبحك الله ما أعظم تعدّيك فقال: عليّ المشيُ إلى بيت الله الحرام إن لم يكن صعود السماء على سلم من زبد حتى يأخذ بنات نعش أيسر عليه من أن يطعمك رغيفاً في اليوم.

ومن المنظوم قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو دبّ محولٌ ... من الذّرِّ فوق الإتب منها لأثَّرا

وقول الأعشى:

فتىً لو ينادي الشمس ألقت قناعها ... أو القمرَ الساري لألقي المقالِدا

ينادي: أي يجالس، وقول أبي الطمحان:

أضاءتْ لهم أحسابهم ووجوههمْ ... دجَى الليل حتى نظَّم الجزعَ ثاقبه

ومثله:

وجوهٌ لو أن المدلجينَ اعتشوا بها ... صدعنَ الدجى حتى ترى الليلَ ينجلِي

وقول الآخر:

من البيض الوجوه بني سنان ... لو أنك تستضئ بهم أضاءوا

وقول النابغة الجعدي:

بلغنا السماءَ مجدُنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وقول النّمري

تظلّ تحفرُ عنه إن ضربتَ به ... بعد الذراعين والساقين والهادي

وقول الطّرماح:

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القطَا ... ولو سلكت سبلَ المكارم ضلت

ولو أنّ برغوثاً على ظهرِ قملةٍ ... يكرُّ على صفّي تميم لولّتِ

ولو أنّ أم العنكبوتِ بنتْ لها ... مظلّتها يوم الندى لاستظلتِ

ولو جمعتْ يوماً تميمٌ جموعَها ... على ذرَّةٍ معقولة لاستقلتِ

ولو أن يربوعاً يزقَّقُ مسكه ... إذنْ نهلتْ منه تميم وعلَّتِ

يزقق: أي يجعل منه زقاقا.

وقال الآخر:

وتبكى السمواتُ إذا ما دعا ... وتستغيثُ الأرض من سجدَته

لما اشتهى يوماً لحومَ القطا ... صرَّعها في الجوّ من نكهته

ومثله في الإفراط قول الخثعمي:

يدلى يديه إلى القليب فيستقى ... في سرجه بدل الرشاء المحصد

وكما أفرطوا في صفة الطّول كذلك أفرطوا في صفة القصر، قال بعضهم:

فأقسم لو خرّتْ من استكَ بيضةٌ　　لما انكسرتْ من قريب بعضك من بعضِ

وقال آخر في صفة كثير عزة وكان قصيرا:

قصيرُ القميص فاحش عند بيتِه　　يعضُّ القراد باسته وهو قائمُ

وقال بعض المحدثين:

وقصيرٌ لا تعملُ الشْ　　شمسُ ظلاًّ لقامتِه
يعثرُ الناس في الطري　　قُ به من دمامته

وقال أبو عثمان الناجم:

ألا يا بيدقَ الشطرَن　　جِ في القيمة والقامة

وقال أبو نواس يصف قدرا:

يغصّ بحيزوم الجرادة صدرُها　　وينضج ما فيها بعود خلال
وتغلى بذكرِ النار من غير حرّها　　وتنزلها عفواً بغير جعال
هي القدر قدر الشيخ بكر بن وائل　　ربيع اليتامى عام كل هزالِ

وقال آخر في خلاف ذلك:

بقدر كأنّ الليل شحمة قعرها　　ترى الفيل فيها طافياً لم يقّطع

ومن الإفراط قول المؤمل:

من رأى مثل حبّتي　　تشبه البدر إذْ بدا
تدخلُ اليوم ثم تد　　خلُ أردافها غدا

ومثله قول الآخر:

أتت في البيت وعرن　　يتك في في الدار يطوف

ومثله قول الآخر:

لقد مرّ عبد الله في السوقِ راكبا　　له حاجة من أنفه ومطَّرَقُ
وعنَّت له في جانب السوق مخطةٌ　　توهمتُ أن السوقَ منها سيغرق
فأقذر به أنفا وأقذر بربِّه　　على وجهه منه كنيفٌ معلّقُ

ومثله في الإفراط قول آخر في إمام بطئ القراءة:

إنْ قرأَ العاديات في رجبٍ | لم تفنَ آياتها إلى رجبِ
بل هو لا يستطيع في سنةٍ | بختم تبت يدا أبي لهب

وقال ابن مقبل:

يقلقل من ضغم اللجام لهاتَه | تقلقل عودِ المرخ في الجعبة الصِّفرِ

وقال إبراهيم بن العباس:

يا أخا لم أر في الدهر خلاًّ | مثله أسرعَ هجرٍ ووصلا
كنت لي في صدر يومي صديقا | فعلَى عهدك أمسيتَ أم لا

وقال ابن الرومي:

يا ثقيلاً على القلوب خفيفاً | في الموازين دون وزن النَّقير
طر مخيفا أو قع مقيتاً فطو | راً كسفاةٍ وتارةً كثبير
وقبول النفوس إياك عندي | آية فيك للّطيف الخبيرِ
إن قوماً أصبحت تنفق فيهم | لعلَى غايةٍ من التسخير

ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه، وإذا تحرز المبالغ واستظهر فأورد شرطا، أو جاء بكاد وما يجرى مجراها يسلم من العيب، وذلك مثل قول الأول:

لو كنتَ من شيءٍ سوى بشرٍ | كنت المنوّر ليلة البدرِ

وقول العرجي:

لو كان حيّاً قبلهنّ ظعائناً | حيا الحطيمُ وجوههنّ وزمزمُ

وقول الأسدي:

فلو قاتل الموت امرؤ عن حميمِه | لقاتلت جهدي سكرةَ الموت عن معنِ
فتىً لا يقول الموت من وقعةٍ به | لك ابنك خذه ليس من حاجتي دعني

وقول الآخر:

لو كان يخفَى على الرَّحمنِ خافيةٌ | من خلقِه خفيت عنهُ بنو أسدِ
قوم أقامَ بدارِ الذلّ أو لهمْ | كما أقامت عليه جذمة الوتدِ

وقول البحتري:

ولو أن مشتاقاً تكلَّف غيرما		في وسعه لسعى إليك المنبر

ومن عيوب هذا الباب أن يخرج فيه إلى المحال، ويشوبه بسوء الاستعارة، وقبيح العبارة، كقول أبي نواس في الخمر:

توهمتُها في كأسها فكأنما		توهمت شيئاً ليس يدرَكُ بالعقلِ
وصفراءَ أبقَى الدهرُ مكنونَ رُوحها		وقد ماتَ من مخبورها جوهر الكل
فما يرتقى التكييف منها إلى مدى		تحدّ به إلاّ ومن قبله قبل

فجعلها لا تدرك بالعقل وجعلها لا أول لها، وقوله: جوهر الكل والتكييف في غاية التكلف، ونهاية التعسف. ومثل هذا من الكلام مردود، لا يشتغل بالاحتجاج عنه له، والتحسين لأمره، وهو بترك التداول أولى، إلا على وجه التعجب منه ومن قائله. ومن الغلو الغث قول المتنبي:

فتىً ألف جزءٍ رأيهُ في زمانه		أقلّ جزء بعضه الرأي أجمع

وقوله:

تتقاصرُ الأفهامُ عن إدراكه		مثل الذي الأفلاك فيه والدّنا

سئل عمل فيه الأفلاك والدنا، فقال: علم الله، ونيته لا تدل عليه، فأفرط وعمّى، وجمع دنيا على قول أهل الأدوار والتناسخ.

الفصل الحادي عشر

في المبالغة

المبالغة أن تبلغ أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عن على أدنى منازله وأقرب مراتبه، ومثاله من القرآن قول الله تعالى: "يوم تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى النّاس سكارَى وما هم بسكارَى". ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسناً وبلاغة كاملة، وإنما خص المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها، وأشغف به لقربه منها ولزومها له، لا يفارقها ليلاً ولا نهارا، وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف، ولهذا قال امرؤ القيس:

فمثلك قبلى قد طرقتُ ومرضع		فألهيتُها عن ذي تمائمَ محولِ

لما أراد المبالغة في وصف محبّة المرأة له، قال: إني ألهيتها عن ولدها الذي ترضعه لمعرفته بشغفها به، وشفقتها عليه في حال إرضاعها إياه.

وقول تعالى: "كسراب بقيعة يحسبُهُ الظّمآن ماءً". لو قال يحسبه الرائي لكان جيدا، ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن، لأن حاجته إلى الماء أشد، وهو على الماء أحرص، وقد ذكرناه قبل. ومثل ذلك قول دريد بن الصّمة:

متَى ما تدعُ قومك أدعُ قومِي   وحولي من بني جشم فئامُ

فوارس بهمة حشدٌ إذا ما   بدا حضر الحييّة والحذامُ

فالمبالغة الشديدة في قوله: الحيية. ومن المبالغة نوع آخر، وهو أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكده، ويلحق به لاحقة تؤيده. كقول عمير بن الأهتم التغلبي:

ونكرم جارنا ما دام فينا   ونتبعه الكرامة حيث مالا

فإكرامهم الجار ما دام فيهم مكرمة، وإتباعهم إياه الكرامة حيث مال من المبالغة. وقول الحكم الخضري:

وأقبحُ من قردٍ وأبخل بالقِرى   من الكلب أمسى وهو غرثانُ أعجفُ

فالكلب بخيل على ما ظفر به، وهو أشد بخلاً إذا كان جائعاً أعجف. ومن ها هنا أخذ حماد عجرد قوله في بشار:

ويا أقبح من قردٍ   إذا ما عمىَ القردُ

وقول رواس بن تميم:

وإنّا لنعطي النّصف منّا وإننا   لنأخذه من كل أبلخ ظالم

المبالغة في قوله أبلخ.

وقول أوس بن غلفاء الهجيمي:

وهم تركوك أسلحَ من حبارَى   رأت صقراً، وأشردَ من نعام

فقوله: رأيت صفرا من المبالغة.

وكتبت في فصل إلى بعض أهل الأدب: قربك أحبُّ إليّ من الحياة في ظل اليسر والسعة، ومن طول البقاء في كنف الخفض والدّعة، ومن إقبال الحبيب مع إدبار الرقيب، ومن شمول الخصب بعد عموم الجدب، وأقرّ لعيني من الظّفر بالبغية بعد إشرافي على الخيبة، وأسرّ لنفسي من الأمن بعد الخوف، والإنصاف بعد الحيف. وأسأل الله أن يطيل بقاءك، ويديم نعماءك، ويرزقني عدلك ووفاءك، ويكفيني نبوّك وجفاءك.

فقولي: "الحياة في ظل اليسر والسعة". و"البقاء في كنف الخفض والدعة".

وقولي: "إقبال الحبيب مع إدبار الرقيب" وقولي: "الخصب بعد عموم الجدب"، وما بعده إلى آخر الفصول مبالغات.

ومن عيوب هذا الباب قول بعض المتأخرين:

فلا غيضتْ بحارُك يا جموماً ... على عللَ الغرائب والدّخالِ

أراد أن يقول: إنك كثيرُ الجود على كثرة سؤالك فلا نقصت، فعبر عنه بهذه العبارة الغثّة، والجموم: البئر الكثيرة الماء، وقوله:

ليس قولي في شمس فعلك كالشم ... س ولكنْ في الشّمس كالإشراقِ

على أن حقيقة معنى هذا البيت لا يوقف عليها.

ومن ردئ المبالغة قول أبي تمام:

ما زال يهذى بالمكارم والعلا ... حتى ظننَّا أنه محمومُ

أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللّهج بذكر الجود، فقال: ما زال يهذي فجاء بلفظ مذموم، والجيد في معناه قول الآخر:

ما كان يعطِي مثلها في مثله ... إلا كريمُ الخيم أو مجنونُ

قسم قسمين: ممدوحاً ومذموما، ليخرج الممدوح من المذموم إلى الممدوح المحمود.

ومن جيد المبالغة قول عمرو بن حاتم:

خليليّ أمسى حبُّ خرقاء قاتِلي ... ففي الحبِّ مني وقدةٌ وصدوعُ

ولو جاورتنا العام خرقاء لم نبلْ ... على جدبنا ألاَّ يصوبَ ربيعُ

قوله: على جدبنا مبالغة جيدة.

الفصل الثاني عشر

في الكتابة والتعريض

وهو أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرح، على حسب ما عملوا باللّحن والتّورية عن الشيء. كما فعل العنبري إذ بعث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد: جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك.

وفي كتاب الله تعالى عز وجل: "أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو مستم النساء"، فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع.

وقوله تعالى: "وفرش مرفوعة" كناية عن النساء.

ومن مليح ما جاء في هذا الباب قول أبي العيناء، وقيل له: ما تقول في ابني وهب؟ قال: "وما يستوي البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه وهذا ملحٌ أجاج" سليمان أفضل، قيل: وكيف؟ قال: "أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أم من يمشي سويّاً على صراط مستقيم".

ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون: أما بعد، فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين، ليتطوّل عليه في إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفع بهم، وفي ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام. فوقع في كتابه: قد عرفنا تصريحك له، وتعريضك بنفسك، وأجبناك إليهما، وأوقفناك عليهما.

ومن المنظوم قول بشّار:

وإذا ما التقى ابن نهيا وبكر ... زاد في ذا شبرٌ وفي ذاك شبرْ

أراد أنهما يتبادلان، وقال آخر في ابن حجام:

أبوك أب ما زال للناس موجعا ... لأعناقهم نقراً كما ينقر الصقرُ

إذا عوّج الكتّاب يوماً سطورهم ... فليس بمعوجّ له أبداً سطرُ

وقال بعض المتقدمين:

وقد جعل الوسميّ ينبت بيننا ... وبين بني دودان نبعاً وشوحطَا

النّبع والشّوحط، كأنه كنّى بهما عن القسي والسهام، ومثله قول الآخر:

وفي البقل ما لم يدفع الله شرّه ... شياطين ينزو بعضهنّ على بعض

وقول رؤبة:

يا بنَ هشامٍ أهلكَ النّاسَ اللبنْ ... فكلّهم يعدو بقوس وقرنْ

وهذه كنايات عن القتال والوقائع بينهم أيام الربيع، وهو وقت الغزو عندهم.

وكتب كافي الكفاة: إن فلانا طرق بيته وهو الخيف، لا خوف على من دخله، ولا يد على من نزله، فصادف فتياناً يعاطون كريمته الكؤوس تارة، والفؤوس مرة، فمن ذي معول يهدم، ومن ذي مغولٍ يثلم. فبائع الرقيق يكتب من بينهم بالغليظ، فوثبت العفيفة خفيفة ذفيفة، تحكم يمناها في أخادعه، وتتقى بيسراها وقع أصابعه، والحاضرون يحرّضونها على القتال، ويدعونها إلى النزال، والشيخ يناديهم:

تجمعتمُ من كل أوبٍ وبلدة　　　على واحد لازلتمُ قرنَ واحد

ثم علم أن الحرب خدعة، ولكل امرئ فرصة، فتلقّاها بالأثافي طلاقاً بتّاً وفراقاً بتلا. وأخذ ينشد:

إني أبيٌّ ذو محافظةٍ　　　وابن أبيٍّ أبيٍّ من أبيين

ولكن بعد ماذا، بعد ما ضمّوا الخصر، وأموا الحصر، وأدمنوا العصر، وافتتحوا القصر.

وكان ما كان مما لست أذكرُه　　　فظنّ شرّاً ولا تسأل عن الخبر

فأكثر هذا الكلام كنايات.

ومما عيب من هذا الباب ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: قال أبو الحسن بن طباطبا الأصبهاني يصف غلاماً:

منعّم الجسم يحكى الماء وقتُه　　　وقلبه قسوة يحكى أبا أوس

أي قلبه حجر، أراد والد أوس بن حجر، فأبعد التناول. فكتب إليه أبو مسلم قال: وأنشدنيها أبو مسلم، و لم ينسبها إلى نفسه:

أبا حسنٍ حاولت إيرادَ قافيةٍ　　　مصلّبة المعنى فجاءتك واهية

وقلت أبا أوس تريد كنايةً　　　عن الحجر القاسي فأوردتَ داهية

فإن جاز هذا فاكسرن غير صاغر　　　فمى بأبي القرم الهمام معاوية

وإلا أقمنا بيننا لك جدَّهُ　　　فتصبح ممنونا بصفّين ثانية

أراد: فاكسرن فمى بصخر، وإلا أقمنا بيننا لك حربا وهو جد معاوية، وقال أبو نواس في جلد عميرة:

إذا أنت أنكحتَ الكريمة كفئها　　　فانكِحْ حسيناً راحةً بنتَ ساعدِ

وقلْ بالرّفا ما نلت من وصل حرَّة　　　لها راحةٌ حفَّتْ بخمسٍ ولائدِ

ومن شنيع الكناية، قول بعض المتأخرين:

إني على شغفي بما في خمرِها　　　لأعفُّ عما في سراويلاتِها

وسمعت بعض الشيوخ يقول: الفجور أحسن من عفاف يعبّر عنه بهذا اللفظ. قال: وقريب من ذلك قول الآخر:

وما نلتُ منها محرماً غير أنني　　　إذا هي بالتْ بلتُ حيثُ تبُول

الفصل الثالث عشر

في العكس

العكس العكس: أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول، وبضعهم يسميه التبديل، وهو مثل الله عز وجل: "يخرج الحيَّ من الميِّت ويخرج الميّتَ من الحيّ".

وقوله تعالى: "ما يفتح اللهُ للنَّاسِ من رحمةٍ فلا ممسك لها وما يمسكْ فلا مرسل له".

وكقول القائل: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك. وقول الآخر: اللهم أغنن بالفقر إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك. وقول بعض النساء لولدها: رزقك الله حظاً يخدمك به ذوو العقول، ولا رزقك عقلا تخدم به ذوي الحظوظ. وقال بعضهم لرجل كان يتعهده: أسالُ الله الذي رحمني بك، أن يرحمك بي. وقال بعض القدماء: ما أقلَّ منفعة المعرفة مع غلبة الشهوة وما أكثر قلة المعرفة مع ملك النفس وقال بعضهم: كن من احتيالك على عدوك، أخوف من احتيال عدوك عليك. وقال آخر: ليس معي من فضيلة العلم إلا أني أعلم أني لا أعلم وفي معناه قول الشاعر:

جهلت ولم تعلم بأنك جاهلٌ — فمن لي بأن تدري بأنَّكَ لا تدري

وعزّي رجل أخاه على ولد، فقال: عوّضك الله منه ما عوّضه منك يعني الجنّة. وقال بعضهم: إني أكره للرّجل أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا عن مقدار لسانه. وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عنه: إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت. وقيل للحسن بن سهل وكان يكثر العطاء: ليس في السّرف خير، فقال: ليس في الخير سرف. فعكس اللفظ واستوفى المعنى.

وقال بعضهم: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه.

ومثاله من المنظوم قول عدي بن الرقاع:

ولقد ثنيتُ يدَ الفتاة وسادةً — لي جاعلاً إحدى يديّ وسادَها

وقال بعض المحدثين:

لساني كتوم لأسراركم — ودمعي نمُوم لسرى مذيعُ

فلولا دموعي كتمتُ الهوى — ولولا الهوى لم تكن لي دموعُ

وقال آخر:

تلك الثنايا من عقدها نظمت — أو نظّمَ العقد من ثناياها

والعكس أيضاً م وجه آخر، وهو أن يذكر المعنى ثم يعكسه إيراد خلاف، كقول الصاحب: وتسمى شمس المعالي وهو كسوفها

الفصل الرابع عشر

في التذييل

وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا.
وقال بعض البلغاء: للبلاغة ثلاثة مواضع، الإشارة، والتذييل، والمساواة. وقد شرحنا الإشارة والمساواة فيما تقدم، فأما التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه، وهو ضدّ الإشارة والتعرض، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطئ الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللّقن، وصح للكليل البليد.
ومثاله من القرآن قول الله عز وجل: "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاَّ الكفور"، ومعناه وهل يجازى بمثل هذا الجزاء إلا الكفور.
وقوله تعالى: "وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن متَّ فهم الخالدون". و"إن كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ" جميعاً تذييل.

ومثاله من النثر قول بعضهم: قبول السّعاية شر من السعاية، لأنَّ السعاية إخبار ودلالة، والقبول إنفاذ وإجازة، وهل الدّال المخبر، مثل المجيز المنفذ، فإذا كان كذلك فالحزم أن يمقت الساعي على سعايته إن كان صادقاً للؤمه في هتك العورة، وإضاعة الحرمة، وأن يجمع له إلى المقت العقوبة إن كان كاذبا، لجمعه على إضاعة الحرمة، وهتك العورة ومبارزة الرحمن بقول الزور واختلاق البهتان. فقوله: "وهل الدال المخبر مثل المجيز المنفذ" تذييل ما تقدم من الكلام.
وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فقد أصبح لنا من فضل الله تعالى ما لا نحصيه، ولسنا نستحي من كثرة ما نعصيه، وقد أعيانا شكره، وأعجزنا حمده، فما ندري ما نشكر: أجميل ما نشر، أم قبيح ما ستر، أم عظيم ما أبلى، أم كثير ما عفا، فاستزد الله من حسن بلائه بشكره على جميع آلائه. فقوله: فما ندري ما نشكر تذييل لقوله قد أعيانا شكره.
وكتب سليمان بن وهب لبعضهم: بلغني حسن محضرك، فغير بديع من فضلك، ولا غريب عندي من برّك، بل قليل اتّصل بكثير، وصغير لحق بكبير، حتى اجتمع في قلب قد وطّن لموتك، وعنق قد ذلّلت لطاعتك، ونفس قد طبعت على مرضاتك، وليس أكثر سؤلها، وأعظم إربها، إلا طول مدتك، وبقاء نعمتك، قوله: فغير بديع من فضلك ولا غريب عندي من برك تذييل لقوله: بل قليل اتصل بكثير، وصغير

لحق بكبير" فأكد ما تقدم.

ومن المنظوم قول الحطيئة:

قوم هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهم ومن يقيس بأنف الناقة الدنيا

فاستوفى المعنى في النّصف الأول، وذيّل بالنصف الثاني.

وقول الآخر:

فدعوا نزالِ فكنتُ أولَ نازل وعلامَ أركبُه إذا لم أنزلِ

وقول طرفة:

لعمرُك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطّول المرخَى وثنياه باليد

فالنصف الآخر تشبيه وتذييل.

وقول أبي نواس:

عرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين وللزمن عرام

قوله: "وللزمان عرام" تذييل.

الفصل الخامس عشر

في الترصيع

وهو أن يكون حشو البيت مسجوعا، وأصله من قولهم: رصّعت العقد، إذا فصّلته. ومثاله قول امرئ القيس:

سليمُ الشَّظى عبلُ الشّوَى شنج النَّسا له حجبات مشرفاتٌ على الفال

وقوله:

وأوتاده ماذيّة وعمادُه ردينية فيها أسنَّةُ قعضبِ

وقوله:

فتور القيام قطيع الكلا مِ تفترٌ عن ذي غروبٍ خصر

وضرب منه قوله:

مخشّ مجشٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً كتيس ظباء الحلّب العدوان

وضرب منه، قوله في صفة الكلب:

ألصّ الضرّوس حبيُّ الضُّلوع تبوعٌ طلوبٌ نشيطٌ أشرْ

فقوله: الضّروس مع الضلوع، سجع، وإن لم يكن القاطع على حرف واحد، وقد أحكمنا هذا في السجع والازدواج.

وقال زهير:

كبداء مقبلةً عجزاء مدبرةً قوداء فيها إذا استعرضتَها خضعُ

وقال أوس:

جشّاً حناجِرها علما مشافِرُها تستنّ أولادها في قرقرٍ ضاحي

وقال طرفة:

بطئ عن الجلَّى سريع إلى الخَنا ذلولٍ بأجماع الرجال ملهَّدِ

وقال النمري:

من صوب ساريةٍ علَّتْ بغادية تنهلُّ حتى يكاد الصبح ينجاب

وقال تأبط شراً:

بل منْ لعذَّالةٍ خذّالةٍ أشبٍ حرّقت باللّوم جلدي أي تحراقِ

وقال أيضاً:

حمال ألوية شهد أنديهٍ هبَّاط أوديةٍ جوّال آفاقِ

وقال النمر:

طويل الذِّراع قصير الكرَاع يواشك بالسَّبسبِ الأغبرِ

وقال الأفوه الأودي:

سودٌ غدائرها بلجٌ محاجرها كأن أطرافَها لمّا اجتلى الطّنفُ

وقال العجير

حمّ الذري مرسلة منها العرى

وقال سليك:

إذا أسهلت خبّتْ وإن أحزنتْ مشت

وقال بشامة بن الغدير:

هوانُ الحياة وخزي الممات وكلاًّ أراه طعاماً وبيلا

وقال الراعي:

سود معاصمُها خضر معاقمها ... قد مسّها من عقيد القار تنصيل

وقالت ليلى الأخيلية:

وقد كان مرهوبَ السنان وبيّن ال ... لِسان ومجذامَ السُّرى غير فاتر

وقال ذو الرمة:

كحلاء في برجٍ صفراء في نعج ... كأنها فضة قد مسها ذهبُ

وقال عامر بن الطفيل:

إني وإنْ كنتُ ابن فارس عامرٍ ... وفي السرِّ منها والصريح المهذَّب

فما سوّدتني عامرٌ عن وراثةٍ ... أبى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أب

ولكنّني أحمى حماها وأتقي ... أذاها وأرمى منْ رماها بمقنَب

المقنب: جماعة الخيل.

ومثل هذا إذا اتفق في موضع من القصيدة أو موضعين كان حسنا، فإذا كثر وتوالى دلّ على التكلّف، وقد ارتكب قوم من القدماء الموالاة بين أبيات كثيرة من هذا الجنس فظهر فيها أثر التكلّف، وبان عليها سمة التعسف، وسلم بعضها ولم يسلم بعض، فمن ذلك ما روى أنه للخنساء:

حامى الحقيقة محمودُ الخليقة مه ... ديّ الطريقة نفاعٌ وضرَّارُ

هذا البيت جيد، ثم قالت:

فعَّال ساميةٍ ورّادُ طامية ... للمجد نامية تعنيه أسفارُ

هذا البيت ردئ لتبرئ بعض ألفاظه من بعض، ثم قالت:

جواب قاصيةٍ جزَّاز ناصيةٍ ... عقَّاد ألوية للخيل جرَّار

آخر هذا البيت لا يجرى مع ما قبله، وإذا قسته بأوله وجدته فاتراً وبارداً، ثم قالت:

حلوٌ حلاوته فصلٌ مقالته ... فاشٍ حمالته للعظم جبَّارُ

وهذا مثل ما قبله، وقول أبي صخر الهذلي:

وتلك هيكلةٌ خود مبتَّلة ... صفراء رعبلةٌ في منصب سنم

هذا البيت صالح، وبعده:

عذبٌ مقبّلها جذْل مخلخلها كالدّعص أسفلها مخصورة القدم

كأن قول: مخصورة القدم ناب عن موضعه غير واقع في موقعه، وبعده:

سود ذوائبها بيض ترائبها محض ضرائبها صيغت على الكرم

وهذا البيت أيضاً قلق القافية، وبعده:

سمحٌ خلائقها درمٌ مرافقها يروى معانقها من بارد شبم

هذا البيت ردئ لبعد ما بين الخلائق، والمرافق، وما بين الدّرم، والسمح، ولولا أن السجع اضطره لما قال: سمح وليس لعظم مرفقها حجم. وهذا مثل قول القائل لو قال: خلق فلان حسن وشعره جعد. ليس هذا من تأليف البلغاء ونظم الفصحاء. وقول أبي المثلم:

آبى الهضيمة ناءٍ بالعظيمة مت لاف الكريمة جلدٌ غير ثنيان

حامى الحقيقة نسّال الوديقة مع تاق الوسيقة لا نكس ولا وان

البيت الثاني أجود من الأول، وقوله:

ربّاء مرقبةٍ منّاع مغلبةٍ وهاب سلهبةٍ قطاعُ أقران

وهذا البيت أيضاً صالح، وبعده:

هبَّاط أودية حمّال ألوية شهاد أنديةِ سرحان فتيان

قوله: سرحان فتيان ناب قلق، وبعده:

يعطيك ما لا تكاد النفس ترسلُه من التلاد وهوب غير منّانِ

التارك القرن مصفرّاً أنامله كأن في ريطتيه نضح إرقان

هذا البيت جيّد وقد سمن سائر العيوب إذ لم يتكلّف فيه السجع ولم يتوخ الموازنة.

ومن جيد الباب قول ابن الرومي:

حوراء في وطفٍ قنواء في ذلفٍ لفّاء في هيفٍ عجزاء في قبب

ومن معيب هذا الباب أيضاً قول بعض المتأخرين:

عجب الوشاة من اللّحاة وقولهم دع ما نراك ضعفتَ عن إخفائه

هذا ردئ لتعمية معناه.

الفصل السادس عشر

في الإيغال

وهو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا، وأصل الكلمة من قولهم: أوغل في الأمر إذا أبعد الذهاب فيه.

وأخبرنا أبو أحمد قال أخبرنا الصولي عن المبرّد عن التّوّزي، قال: قلت للأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال: من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو الكبر فيجعله بلفظه خسيسا، أو ينقضى كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. قال: قلت: نحو من؟ قال: قول ذي الرّمة حيث يقول:

قف العيسَ في أطلال مية فاسألِ ... رسوماً كأخلاق الرّداء المسلسلِ

فتم كلامه بالرداء قبل المسلسل، ثم قال المسلسل، فزاد شيئاً بالمسلسل. ثم قال:

أظن الذي يجدي عليك سؤالها ... دموعا كتبذير الجمان المفصّلِ

فتم كلامه، بالجمان، ثم قال: المفصل، فزاد شيئاً. قلت: ونحو من؟ قال: الأعشى حيث يقول:

كناطحٍ صخرةً يوما ليفلقَها ... فلم يضرْها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

فتم كلامه بيضرها، فلما احتاج إلى القافية قال: وأوهى قرنه الوعل، فزاد معنى. قلت: وكيف صار الوعل مفضّلا على كل ما ينطح؟ قال: لأنه ينحطّ من قلة الجبل عل قرنيه فلا يضيره.

وكتب بعض الكتاب: نبوُّ الطرف من الوزير دليل على تغير الحال عنده، ولا صبر على الجفاء ممّن عود الله من البرّ، وقد استدللت بإزالة الوزير إياي عن المحل الذي كان يحلنيه بتطوّله على ما سؤت له ظنا بنفسي، وما أخاف عتبا لأني لم أجن ذنبا، فإن رأى الوزيرُ أن يقوّمني لنفسي، ويدلّني على ما يراد مني فعل. تم كلامه عند قوله له يقومني ثم جاء بالمقطع وهو قوله: لنفسي فزاد معنى.

وممن زاد توكيدا امرؤ القيس حيث يقول:

كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا ... وأرحلِنا الجزع الذي لم يثقّب

قوله: لم يثقب يزيد التشبيه توكيداً، لأن عيون الوحش غير مثقبة.

وزهير حيث يقول:

كأنّ فتاتَ العهن في كلِّ منزلٍ ... نزلنَ به حبّ الفنا لم يحطّم

القنا إذا كسر ابيض. والفنا: شجر الثعلب. ومن الزيادة قول امرئ القيس:

إذا ما جرى شأوين وابتلَّ عطفه ... تقول هزيزُ الريح مرّت بأثأب

فالتشبيه قد تم عند قوله هزيز الريح وزاد بقوله مرت بأثأب: لأنه أخبر به عن شدة حفيف الفرس، وللريح في أغصان الأثاب حفيف شديد. والأثأب: شجر.

وقول أبي نواس:

ذاك الوزير الذي طالت علاوته ... كأنه ناظر في السّيف بالطّول

فقوله بالطول أنفى للشبهة.

وقول راشد الكاتب:

كأنه ويد الحسناء تغمزه ... سير الإداوة لما مسّه البلل

فقوله: لما مسه البلل تأكيد، ويدخل أكثر هذا الباب في التتميم، وإنما يسمى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع.

الفصل السابع عشر

في التوشيح

سمى هذا النوع التوشيح، وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى، ولو سمى تبيينا لكان أقرب، وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعراً، أو عرفت رواية، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه، وخير الشّعر ما تسابق صدوره وأعجازه، ومعانيه وألفاظه، فتراه سلساً في النظام، جارياً على اللسان، لا يتنافى ولا يتنافر، كأنه سبيكة مفرغة، أو وشى منمنم، أو عقد منظم من جوهر متشاكل، متمكّن القوافي غير قلقة، وثابتة غير مرحة، ألفاظه متطابقة، وقوافيه متوافقة، ومعانيه متعادلة، كلّ شيء منه موضوع في موضعه، وواقع في موقعه، فإذا نقض بناؤه، وحلَّ نظامه، وجعل نثراً، لم يذهب حسنه، و لم تبطل جودته في معناه ولفظه، فيصلح نقضه لبناء مستأنف، وجوهره لنظام مستقبل.

فمما في كتاب الله عز وجل من هذا النوع قوله تعالى: "وما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدةً فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون"، فإذا وقفت على قوله تعالى: فيما، عرف فيه السامع أن بعده يختلفون، لما تقدم من الدلالة عليه.

وهكذا قوله تعالى: "قل الله أسرع مكراً إنّ رسلنا يكتبون ما تمكرون" ذا وقف على يكتبون، عرف أن بعده ما يمكرون، لما تقدم من ذكر المكر.

وضرب منه آخر، وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام، وإن لم يجد ذكره فيما تقدم، وهو كقوله تعالى:

"ثمَّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون"، فإذا وقف على قوله: لننظر مع ما تقدم من قوله تعالى: "جعلناكم خلائف في الأرض"، علم أن بعده تعملون لأن المعنى يقتضيه.

ومن الضرب الأول قوله تعالى: "ومنهم من خسفنَا به الأرضَ ومنهمْ من أغرقنَا وما كان الله ليظلمهمْ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

وهكذا قوله تعالى: "كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوت"، إذا وقف على أوهن البيوت، يعرف أن بعده بيت العنكبوت.

ومن أمثلة ذلك قول الراعي:

وإن وزنَ الحصَى فوزنتُ قومي وجدتُ حصى ضريبتهم رزينا

إذا سمع الإنسان أول هذا البيت وقد تقدمت عنده قافية القصيدة استخرج لفظ قافيته، لأنه عرف أن قوله وزن الحصى سيأتي بعده رزين لعلتين: إحداهما أن قافية القصيدة توحيه، والأخرى أن نظام البيت يقتضيه، لأن الذي يفاخر برجاجة الحصى ينبغي أن يصفه بالرزانة.

وقول نصيب:

وقد أيقنتُ أن ستبينُ ليلى وتحجبُ عنك لو نفع اليقينُ

وأنشد أبو أحمد قول مضرس بن ربعي:

تمنيت أن ألقى سليما ومالكاً على ساعةٍ تنسِى الحليم الأمانيا

ومن عجيب هذا الباب قول البحتري:

فليس الذي حلّلته بمحلّلٍ وليس الذي حرَّمته بحرامِ

وذلك أن من سمع النصف الأول عرف الأخير بكماله، ونحوه قول الآخر:

فأما الذي يحصيهم فمكثّر وأما الذي يطريهم فمقلِّل

وقول الآخر:

هي الدرّ منثوراً إذا ما تكلمت وكالدّر منظوماً إذا لم تكلّم

وقول الآخر:

ضعائف يقتلن الرجالَ بلا دمٍ ويا عجباً للقاتلات الضعائف

وقول الآخر:

وقد لانَ أيامُ الحمى ثم لم يكدْ من العيش شيء بعد ذاك يلينُ
يقولون ما أبلاكَ والمال عامرٌ عليك وضاحى الجلد منك كنينُ
فقلت لهم: لا تعذلوني وانظروا إلى النازع المقصور كيف يكون

إذا قلت: ضاحي الجلد منك، فليس شيئ سوى الكنين، وكذلك إذا قلت:إلى النازع المقصور كيف، فليس شيء سوى يكون.

ومما عيب من هذا الضرب قول أبي تمام:

صارت المكرمات بزلاً وكانت أدخلتْ بينها بنات مخاضِ

وقول بعض المتأخرين:

فقلقلت بالهمِّ الذي قلقلَ الحشا قلاقلَ عيسٍ كلّهنَّ قلاقلُ

وإنما أخذه من قول أبي تمام فأفسده:

طلبتك من نسل الجديل وشدقمٍ كومُ عقائل من عقائلَ كومِ

الفصل الثامن عشر

في رد الأعجاز على الصدور

فأول ما ينبغي أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظاً تقتضي جوابا فالمرضىُّ أن تأتي بتلك الألفاظ بالجواب، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها، كقول الله تعالى: "وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلها". وكتب بعض الكتاب في خلاف ذلك: من اقترف ذنباً عامداً، أو اكتسب جرماً قاصدا لزمه ما جناه، وحاق به ما توخّاه. والأحسن أن يقول: لزمه ما اقترف، وحاق به ما اكتسب. وهذا يدلك على أن لردِّ الأعجاز على الصدور موقعا جليلاً من البلاغة، وله في المنظوم خاصة محلا خطيرا.

وهو ينقسم أقساما، منها ما يوافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في النصف الأول، مثل قول الأول:

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرمَا في جيش رأى لا يفلُّ عرمرمُ

وقال عنترة:

فأجبتها إنّ المنيةَ منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهلِ

وقال جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مربعاً أبشِرْ بطولِ سلامة يا مربَعُ

وقال المخبل:

وينفس فيما أورثتني أوائلي ويرغب عما أورثته أوائلُه

ومنها ما يوافق أول كلمة منها آخر كلمة في النصف الأخير، كقول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهَه وليس إلى داعي الوغى بسريع

وقول ابن الأسلت:

أسعى على جلِّ بني مالك كلُّ امرئٍ في شأنه ساعِ

ومنه ما يكون في حشو الكلام في فاصلته، كقول الله تعالى: "انظر كيفَ فضّلنا بعضهم على بعضٍ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً". وقوله تعالى: "قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذابٍ وقد خاب من افترى". وكقول امرئ القيس:

إذا المرءُ لم يخزن عليه لسانَه فليس على شيء سواه بخزَّان

وقول الآخر:

كذلك خيُمهم ولكل قوم إذا مستهمُ الضراءُ خيمُ

وقول زهير:

ولأنت تفرِي ما خلقتَ وبع ضُ القوم يخلقُ ثم لا يفرِي

وقال جرير:

سقَى الرمل جونٌ مستهلٌّ ربابه وماذاك إلاَّ حبُّ منْ حلَّ بالرمل

أخذه من قول النَّمريّ:

لعمرك ما أسقى البلاد لحبها ولكنما أسقيك حارِ بن تولَب

وقول ابن مقبل:

يا حرّ من يعتذر من أنْ يلمّ به ريب المنونِ فإني لست أعتذرُ

وقول الحطيئة:

إذا نزل الشتاءُ بدار قومٍ تجنّب جارَ بيتهمُ الشتاءُ

وقول الآخر:

رأت نضوَ أسفار أميمةُ واقفا على نضو أسفار فجنّ جنونُها

وقول عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقول الآخر:

أصدُّ بأيدي العيس عن قصد دارها وقلبي إليها بالمودّة قاصدُ

ومن الضرب الأول قول زهير:

السترُ دونَ الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وقول الحطيئة:

تدرّون إن شدّ العصاب عليكم ونأبى إذا شدّ العصاب فلا ندرِ

وقول أبي تمام:

أسائلُه ما بالُه حكَم البلَى عليه وإلا فاتركُوني أسائلُه

وقوله:

تجشَّم حملَ الفاحات وقلّما أقيمت صدور المجد إلاَّ تجشُّما

وقول الآخر:

مفيد إن تزُور وأنت مقوٍ تكن من فضل نعمته مفيدا

وقول الآخر:

واستبدتْ مرةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبدْ

ومنها ما يقع في حشو النصفين، كقول النمر:

يودّ الفتى طول السلامة والغنى فكيف ترى طول السّلامة تفعل

وقلت:

ألا لا يذم الدهرَ من كان عاجزا ولا يعدِل الأقدارَ منْ كان وانيا

فمن لم تبلّغه المعالي نفسُه فغير جدير أن ينال المعاليا

وقفتُ على يحيى رجائي وإنما وقفتُ على صوب الربيع رجائيا

إذا ما الليالي أدركت ما سعتْ له تمطيت جدواه ففتّ اللياليا

ومما عيب من هذا الباب قول ذي نواس البجلي:

يتيّمنى برق المباسم بالضّحى ولا بارقٌ إلاّ الكريم يتيمّهُ

وقال منصور بن الفرج:

زرناك شوقاً ولو أن النوى نشرتْ   بسطَ النوى بيننا بعداً لزرناك

وهذا أيضاً داخل في سوء الاستعارة، وقوله أيضاً:

إذا احتجب الغيث احتبى في نديِّه   فيضرب أغياثاً له أن تحجَّبا

وهذا البيت على غاية الغثاثة.

الفصل التاسع عشر

في التتميم والتكميل

وهو أن توفى المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره، كقول الله تعالى: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينَّه حياةً طيبةً". فبقوله تعالى: وهو مؤمن تمَّ المعنى.

ونحو قوله سبحانه: " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " في قوله " استقاموا " تم المعنى وقد دخل تحته جميع الطاعات من جوامع الكلم ونحو قوله تعالى: "فاستقيموا إليه".

ومن النثر قول أعرابية لرجل: كبت الله كلَّ عدو لك إلا نفسك. فبقولها: نفسك تم الدعاء، لأن نفس الإنسان تجرى مجرى العدو له، يعني إنها تورطه وتدعوه إلى ما يوبقه.

ومثله قول الآخر: احرس أخاك إلا من نفسه. وقريب منه قول الآخر: من لك بأخيك كله.

ومن المنظوم قول عمرو بن براق:

فلا تأمننَّ الدهر حرّاً ظلمته   فما ليل مظلوم كريم بنائم

فقوله: كريم تتميم، لأن اللئيم يغضى على العار، وينام على الثار، ولا يكون منه دون المظالم تكبر. وقول عمرو بن الأيهم:

بها نلنا الغرائب من سوانا   وأحرزنا الغرائب أن تُنالا

فالذي أكمل جودة المعنى قوله: "وأحرزنا الغرائب أن تنالا".

وقول الآخر:

رجال إذا لم يقبلِ الحق منهمُ   ويعطوه عادوا بالسيوف القواضِبِ

وقول طرفة:

فسقى ديارَك غير مفسدها   صوبُ الربيع وديمةٌ تهمى

فقوله: غير مفسدها إتمام المعنى، وتحرز من الوقوع فيما وقع فيه ذو الرمة في قوله:

ألا يا سلمى يا دار ميّ على البلَى   ولا زال منهلاً بجرعائك القطرُ

فهذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها، لأن القطر إذا انهل فيها دائما فسدت، ومن العجب أن ذا الرّمة كان يستحسن قول الأعرابية وقد سألها عن الغيث، فقال: غيثاً ما شئنا، وهو يقول خلاف ما يستحسن.

ومن التتميم قول الراعي:

لا خيرَ في طول الإقامة لامرئ   إلاّ إذا ما لم يجدْ متحوّلا

ونحوه قول الآخر:

إذا كنت في دار يهينُك أهلُها   ولم تك مكبولا بها فتحوَّل

وقول الآخر:

ومقام العزيز في بلد ال   ذُلّ إذا أمكن الرحيلُ محالُ

فقوله: إذا أمكن الرحيل تتميم، وقول النّمر:

لقد أصبح البيضُ الغواني كأنما   يرينَ إذا ما كنتَ فيهنّ أجربا

وكنت إذا لاقيتهُنّ ببلدة   يقلنّ على النّكراء أهلاً ومرحباً

فقوله: على النكراء تتميم، ولو كانت بينه وبينهن معرفة لم ينكر له منهن أهل ومرحب.

وقول الآخر:

وهل علمتَ بيتَنا إلاَّ ولَهْ   شربة من غيره وأكلَهْ

فقوله: من غيره تتميم، لأن لكل بيت شربة وأكلة من أهله.

وقول الشماخ:

جماليَّةٌ لو يجعلُ السَيف عرضَها   على حده لاستكبرتْ أن تضوَّرا

فقوله: على حده تتميم عجيب.

ويدخل في هذا الباب قول الآخر:

وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يطالبه   فاسصحبَ الصبرَ إلا فاز بالظفرِ

وقول الخنساء:

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به   كأنه علمٌ في رأسه نارُ

فقولها: في رأسه نار تتميم عجيب، قالوا: لم يستوف أحد هذا المعنى استيفاءها، وهو مأخوذ من قول الأعشى:

وتدفنُ منه الصالحاتُ وإن يسئ   يكنْ ما أساءَ النارَ في رأس كبكَبا

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى، فشهر واستفاض، وخمل معها بيت الأعشى ورذل، وهذا دليل على صحة ما قلنا من أنّ مدار البلاغة على تسحين اللفظ، وتجميل الصورة. وقول الآخر:

ألا ليتَ النهارَ يعودُ ليلاً   فإنّ الصبحَ يأتي بالهموم

حوائجَ لا نطيقُ لها قضاءً   ولا ردّاً، وروعات الغريم

فقوله: ولا ردا تتميم.

الفصل العشرون

في الالتفات

الالتفات في ضربين، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به. أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرني محمد بن يحيى الصولي، قال قال الصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تودّعُنا سليمَى   بعود بشامةٍ سقِى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره. ثم التفت إلى البشام فدعا له. وقوله:

طربَ الحمام بذي الأرك فشاقني   لا زلتَ في عللٍ وأيكٍ ناضرِ

فالتفت إلى الحمام فدعا له.

ومنه قول الآخر:

لقد قتلتُ بني بكر بربِّهم   حتى بكيتُ وما يبكى لهم أحد

فقوله: وما يبكى لهم أحد التفات، وقول حسان:

إنّ التي ناولتني فرددتُها   قتلتْ قتِلْتَ فهاتها لم تقتلِ

فقوله: قتلت التفات.

والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شكّ أو ظن أن راداً يردّ قوله، أو سائلاً

يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قدمه، فإما أن يؤكده، أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه، ومثاله قول المعطّل الهذلي:

تبين صلاةُ الحرب منّا ومنهم ... إذا ما التقينا والمسالمُ بادِن

فقوله: والمسالم بادن رجوع من المعنى الذي قدّمه، حتى بيّن أن علامة صلاة الحرب من غيرهم أن المسالم بادن، والمحارب ضامر.

قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

وأجمل إذا ما كنت لا بدَّ مانعا ... وقد يمنعُ الشيءَ الفتى وهو مجملُ

وقول طرفة:

وتصد عنك مخيلةَ الرجل الش ... نوف موضحةٌ عن العظمِ

بحسام سيفك أو لسانك وال ... كلِم الأصيل كأرغب الكلمِ

فكأنه ظن معترضا، يقول له: كيف يكون مجرى اللسان والسيف واحداً، فقال: والكلم الأصيل كأرغب الكلم، وإنما أخذه من امرئ القيس:

وجرح اللسان كجرحِ اليدِ

وأخذه آخر فقال:

والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

ومن الالتفات قول جدير بن ربعان:

معازيل في الهيجاء ليسوا بزادةٍ ... مجازيع عند البأس والحرُّ يصبرُ

فقوله: والحر يصبر التفات.

وقول الرّماح بن ميادة:

فلا صرمُه يبدو وفي اليأس راحة ... ولا ودّة يصفو لنا فنكارمُه

كأنه يقول: وفي اليأس راحة، والتفت إلى المعنى لتقديره أن معارضاً يقول له: وما تصنع بصرمه؟ فيقول: لأنه يؤدّى إلى اليأس، وفي اليأس راحة.

الفصل الحادي والعشرون

في الاعتراض

الاعتراض، وهو اعترضا كلام في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه، كقول النابغة الجعدي:

ألا زعمت بنو سعد بأني ألا كذبوا كبير السنّ فانِي

وقول كثير:

لو أنّ الباخلين وأنتِ منهم رأوك تعلّمُوا منك المطالا

وقول الآخر:

فظلتْ بيوم دعْ أخاك بمثله على مشرع يُروى ولما يصرَّدِ

وقول الآخر:

إن الثمانين وبلِّغتها قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

وكتب آخر: فإنك والله يدفع عنك علق مضنّة، ينفس ويتنافس به، فيكون خلفا مما سواه، ولا يكون في غيره منه، فإن رأيت أن تسمع العذر وتقبله، فلو لم تكن شواهده واضحة، وأنواره لائحة، لكان في الحق أن تهب ذنبي لجزعي، وإذلالي لإشفاقي، ولا تجمع عليّ لوعة لك، وروعة منك فعلت. فقوله: فإنك والله يدفع عنك اعتراض مليح.

وقول البحتري:

ولقد علمتُ وللشباب جهالةٌ أن الصّبا بعد الشباب تصابي

وقلت:

أسحبُ أذيال الوفاء ولم يكن وحاشاك من فعل الدنيّة وافيا

الفصل الثاني والعشرون

في الرجوع

الرجوع، وهو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه، كقول القائل: ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك. وقال آخر: قليل العلم كثير، بل ليس من العلم قليل، وكقول الشاعر:

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها إليك وكلاًّ ليس منك قليلُ

أخذه ابن هرمة، فقال:

ليت حظي كلحظة العين منها وكثير منها القليل المهنَّا

وقال غيره:

إنّ ما قلَّ منك يكثُر عندِي ... وكثيرٌ ممَّنْ تحبُّ القليلُ

وقال دريد بن الصمة:

عير الفوارس معروف بشكته ... كافٍ إذا لم يكن في كربِهِ كافِي

وقد قتلتُ به عبساً وإخوتَها ... حتى شفيتُ وهل قلبي به شافي

وقول آخر:

نبِّئتُ فاضحَ قومه يغتابني ... عند الأميرِ وهلْ عليّ أمير

وقول آخر:

وما بي انتصارٌ إن غدار الدهر ظالمي ... عليّ، بلى إن كان من عندك النصرُ

وقال آخر:

إذا شئتَ أن تلقى القناعةَ فاستخرْ ... جذامَ بن عمرو إن أجاب جذامُ

ومن مذموم هذا الباب قول أبي تمام:

رضيتُ وهل أرضى إذا كان مسخطي ... من الأمر ما فيه رضاَ من لهُ الأمرُ

الفصل الثالث والعشرون

في تجاهل العارف، ومزج الشك باليقين

تجاهل العارف ومزج الشك باليقين: هو إخراج ما يعرفه صحته مخرج ما يشكّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً، ومثاله من المنثور ما كتبته إلى بعض أهل الأدب: سمعت بورود كتابك، فاستفزّني الفرح قبل رؤيته، وهزّ عطفي المرح أمام مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، و لم أدر ما رأيت: أخط مسطور؟ م روض ممطور وكلام منثور؟ أم وشى منشور؟ و لم أدر ما أبصرت في أثنائه: أأبيات شعر، أم عقود در؟ و لم أدر ما حملته: أغيث حلَّ بوادي ظمآن، أم عوث سيق إلى لهفان.

ونوع منه ما كتب به كافي الكفاة:

كتبتُ إليك والأحشاء تهفو ... وقلبي ما يقرُّ له قرَار

عن سلامة، إن كان في عدم السالمين من اتَّصل سهاده، وطار رقاده، ففؤاده يجف، ودمعه يكف، ونهاره للفكر، وليله للسهر.

ومن المنظوم قول بعض العرب:

بالله يا ظبيات القاعِ قلنَ لنا ... ليلايَ منكنّ أم ليلى من البشَرِ

وقول آخر:

أأنت ديارُ الحيِّ أيتُها الرُّبَا ال ... أنيقةُ أم دار المهى والنَّعائم

وسربُ ظباء الوحشِ هذا الَّذي ... أرى بربعِك أم سِرب الظَّباء النواعمِ

وأدمعنا اللّاتي عفاك انسجامُها ... وأبلاكِ أم صوبُ الغمام السّواجمِ

وأيامنا فيك اللّواتي تصرَّمت ... مع الوصل أم أضغاث أحلام نائمِ

وقال ذو الرمة:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجلٍ ... وبين النّقا أأنتِ أم أمُّ سالم

وقال بعض المتأخرين:

أريقكِ أم ماءُ الغمامة أم خمرُ

وقلت:

أغرَّة إسمعيلَ أم سنَّةُ البدرِ ... وفيض ندى كفَّيهِ أم باكرُ القطْرِ

وقلت أيضاً:

أثغرٌ ما أرى أم أقحوانُ ... وقدٌّ ما بدا أم خيزرانُ

وطرفٌ ما تقلِّبُ أم حسامٌ ... ولفظٌ ما تساقطُ أم جمانُ

وشوقٌ ما أكابدُ أم حريقٌ ... وليلٌ ما أقاسي أم زمانُ

وقال ابن المعتز:

كم ليلةٍ عانقت فيها بدرَها ... حتّى الصباح موسَّداً كفَّيهِ

وسكرتُ لا أدري أمنْ خمرِ الهوى ... أم كأسِهِ أم فيه أم عينيهِ

وقال أعرابي:

أيا شبه ليلى ما لليلى مريضةٌ ... وأنت صحيحٌ إنّ ذا المحالُ

أقول لظبي مرَّ بي وهو راتع ... أأنتَ أخو ليلى؟ فقال: يقال!

الفصل الرابع والعشرون

في الاستطراد

وهو أن يأخذ المتكلّم في معنى، فبينا يمرُّ فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأو سبباً إليه، كقول الله عز وجل: "ومن آياته أنَّكَ ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت."، فبينا يدلّ الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: "إنّ الّذي أحياها لمحيي الموتى" فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدّم من ذكر الغيث والنبات دليلاً عليه، ولم يكن في تقدير السامع لأوّل الكلام، إلا أنّه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر، دون الدلالة على الإعادة، فاستوفى المعنيين جميعاً.

ومثاله من المنظوم قول حسان:

إن كنتِ كاذبةً الّذي حدّثتني ... فنجوتِ منجَى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل عنهم ... ونجا برأس طمَّرةٍ ولجام

وذلك أن الحارث بن هشام فرَّ يوم بدر عن أخيه أبي جهل، وقال يعتذر:

اللهُ يعلمُ ما تركتُ قتالهم ... حتى علوْا فرسي بأشقَر مزبدِ

وعلمت أنِّي إن أقاتل واحداً ... أقتلْ ولا يضررْ عدوٍّ مشهدِي

وشمعتُ ريح الموت من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبدَّدِ

فصددتُ عنهم والأحبَّةُ فيهمُ ... طعماً لهم بعقاب يوم مرصد

وهذا أول من اعتذر من هزيمة رويت عن العرب.

ومن الاستطراد قول السموءل:

وإنا أناسٌ لا نرى القتل سبةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

فقوله: إذا ما رأته عامر وسلول استطراد.

وقال الآخر:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه ... فليس به بأسٌ وإن كان من عكلِ

وقول زهير:

إن البخيل ملوم حيث كان ول ... كنَّ الجوادَ على علاّنه هرِم

ومن ظريف الاستطراد قول مسلم:

أجدكِ ما تدرين أنْ ربَّ ليلةٍ كأنَّ دجاها من قرونك ينشرُ
لهوت بها حتى تجلَّت بغرَّةٍ كغرَّة يحيى حين يذكرُ جعفرُ

وقال أبو تمام:

وسابحٍ هطلِ التَّعداء هتَّانِ على الجراء أمينٍ غيرِ خوّان
أظمَى الفصوص ولم تظمأ عرائكه فخلِّ عينيك في ظمآن ريّان
فلو تراه مشيحاً والحصى زيمٌ تحت السّنابك من مثنى ووحدان
أيقنت إن لم تثبَّت أن حافره من صخر تدمُرَ أو من وجه عثمان

فبينا يصف قوائم الفرس خرج إلى هجاء عثمان، وهو من قول الأعرابي: لو صكَّ بوجهه الحجارة لرضَّها، ولو خلا بالكعبة لسرقها.

ومثله قول ابن المعتز:

لو كنت من شيءٍ خلافك لم تكنْ لتكون إلا مشجباً في مشجبِ
يا ليتَ لي من جلدِ وجهك رقعةً فأقدَّ منها حافراً للأشهبِ

وقول البحتري في الفرس:

وما إن يعاف قذىً ولو أوردتَه يوماً خلائق حمدويه الأحول

وقال مسلم:

أحببت من حبها الباخلي ن حتى ومقتُ ابن سلمٍ سعيدا
إذا سيل عرفاً كسا وجهَه ثياباً من البخل زرقاً وسودَا
يغار على المالِ فعلَ الجوادِ وتأبى خلائقُه أن يجُودا

وقال بشار:

خليليَّ من كعبٍ أعينا أخاكما على دهرِه إن الكريم معين
فلا تبخلا بخل ابن قزعةَ إنه مخافة أن يرجَى نداه حزين
إذا جئته في الخلق أغلقَ بابه فلم تلقه إلاّ وأنت كمين

وقوله:

فما ذرّ قرن الشمس حتى كأننا من الغيّ نحكى أحمد بن هشام

وقريب منه قول البحتري:

إذا عطفته الريح قلت التفاتةٌ   لعلوةَ في جاديِّها المتعصفرِ

وهذا الباب يقرب من باب حسن الخروج، وقد استقصيناه في آخر الكتاب.

ومن الاستطراد ما قلته:

انظر إلى قطر السماء ووبلها   ودنوّ نائلها وبعد مجلّها

وشمول ما نشرته من معروفها   فانبثّ في حزن البلاد وسهلها

بل ما يروعك من وفور عطائها   وعلوّ موضعها ولذّة ظلها

انظر بني زيد فإن محلَّهم   من فوقِها وعطاؤهم من قبلها

ومن الاستطراد ضرب آخر، وهو أن يجيء بكلام يظن أنه يبدأ فيه بزهد وهو يريد غير ذلك، كقول الشاعر:

يا من تشاغل بالطّللْ   أقِصرْ فقد قرُب الأجل

واصلْ غبوقك بالصَّبُو   حِ وعدِّ عن وصف الملَلْ

الفصل الخامس والعشرون

في جمع المؤتلف والمختلف

وهو أن يجمع في كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة، كقول الله تعالى: "فأرسلنا عليهمُ الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم آيات مفصّلات".

وقوله عزّ اسمه: "إنَّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي".

ومثاله من النثر ما كتب به الشيخ أبو أحمد: فلو عاش حتى يرى ما منينا به من وعد حقير، نقير، نذل، رذل، غثّ، رثّ، لئيم، زنيم، أشحّ من كلب، وأذلّ من نقد، وأجهل من بغل، سريع إلى الشر، بطئ عن الخير، مغلول عن الحمد، مكتوف عن البذل، جواد يشتم الأعراض، سخى بضرب الأبشار، لجوج حقود، خرق، نزق، عسر، نكد، شكس، شرس، دعيّ، زنيم، يعتزى إلى أنباط سقّاط، أهل لؤم أعراق، ورقة أخلاق، وينتمي إلى أخبث البقاع ترابا، وأمرّها شرابا، وأكمدها ثيابا، فهو كما قال الله تعالى: "والّذي خبثَ لا يخرجُ إلاَّ نكداً". ثم كما قال الشاعر:

نبطئ آباؤه لم يلدْه ذو صلاح ولم يلد ذا صلاحِ
معشرٌ أشبهوا القرود ولكنْ خالفوها في خفّةِ الأرواح

ومن المنظوم قول امرئ القيس:

سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكرْ

وقوله وقد جمع فيه جميع أوصاف الدمع من كثرته وقلته:

فدمعهما سكبٌ وسحٌّ وديمة ورشٌّ وتو كافٌ وتنهملانِ

وما جمع من أنواع المكروه في بيت كما جمع ابن أحمر:

نقائذ برسامٍ وحمّى وحصبةٍ وجوعٍ وطاعونٍ وفقرٍ ومغرمِ

وقال سويد بن خذاق:

أبي القلب أن يأتي السّديرَ وأهله وإن قيل عيش بالسّدير غزير
بها البقّ والحمّى وأسدُ خفيةٍ وعمرو بن هند يعتدِي ويجورُ

وقال أبو داود:

حديد القلب والناظ ر والعرقوب والكعبْ
عريض الصدر والجبه ةِ والصّهوةِ والجنبِ
جواد الشّدّ والتّقرِي بِ والإحضار والعقب

وقال دريد:

سليمُ الشّظى عبل الشّوى شنجُ النَّسا طوال القرا نهدٌ أسيلُ المقلد

وقال ابن مطير:

بسودٍ نواصيها وحمر أكفها وصفر تراقيها وبيض خدودها

وقال أوس بن حجر:

يشيعها في كل هضبٍ ورملة قوائم عوج مجمرات مقاذفِ
توائم ألاّفٍ توالٍ لواحق سواءٍ لواءٍ مزبداتٍ خوانف

مزبدات: خفاف خوانف: تهوى بأيديها في ضبُعها.

ومن أشعار المحدثين قول أبي تمام:

غدا الشيبُ مختطا بفوديَّ خطةً سبيلُ الرّدى منها إلى النفس مهيعُ

هو الزور يجفَى والمعاشر يجتوى وذو الإلف يقلى والجديد يرقَّعُ

وقوله:

كالغصن في القدّ والغزالة في ال بهجة وابن الغزال في غيده

وقوله:

رب خفضٍ تحت السّرى وغناء من ناء ونضرةٍ من شحوب

وقول ابن المعتز:

والله ما أدري بكنه صفاتِه ملك القلوب فأوبقتْ في أسرِهْ

أبوجهِه أم شعره أم ثغره أم نحره أو ردفه أم خصرهْ

وقول أبي تمام:

في مطلب أو مهرب أو رغبة أو رهبة أو موكب أو فيلقِ

وقول البحتري:

بحلٍّ وعقدٍ وحزمٍ وفصل ونبلٍ وبذلٍ وبأس وجودِ

وقلت:

حليفُ علاء ومجد وفخرٍ وبأس وجود وخيرٍ وخيرِ

وقال أبو تمام:

يروعك أن تلقاه في صدر فيلقٍ وفي نحر أعداء وفي قلب موكب

وقتل:

وما هو إلا المزن يصفو ظلالُه ويعلو مبواه ويبكرُ هاطله

وقلت:

أنتَ الربيع الغضُّ رقّ نسيمُه واخضر روضتُه وطاب غمامُه

وقلت:

فتىً لم نزنه بالقوافِي وإنَّما حططنا إليه كي يزين القوافِيا

من الغرّ لاحوا أشمسا ومضوا ظبيً وصالوا أسوداً واستهلّوا سواريا

وقلت:

يسبيك منه مفلّج ومضرّج ومقوّم ومعوَّج ومهفهفُ

الفصل السادس والعشرون

في السلب والإيجاب

وهو أن تبنى الكلام على نفي الشيء من جهة، وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به في جهة، والنهي عنه في جهة وما يجرى مجرى ذلك، كقول الله تعالى: "ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهُما وقل لهما قولاً كريماً". وقوله تعالى: "فلا تخشوا الناس واخشوني".

وقوله تعالى: "مثل الَّذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمارِ يحمل أسفاراً".

ومثاله من النثر قول رجل ليزيد بن المهلب: قد عظم قدرك من أن يستعان بك، أو يستعان عليك، ولست تفعل شيئاً من المعروف، إلا وأنت أكبر منه، وهو أصغر منك، وليس العجب من أن تفعل، وإنما العجب من ألاَّ تفعل. وقول الشّعبيّ للحجاج: لا تعجب من المخطئ كيف أخطأ، واعجب من المصيب كيف أصاب.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: حدثنا ابن الأنباري، قال: حدثنا أبي عن بعض أصحابه عن العتبي، قال: قيل لبعض العلماء: إن صاحبنا مات وترك عشرة آلاف، فقال: أما العشرة آلاف فلا تترك صاحبكم.

وقال بعض الأوائل: ليس معي من فضيلة العلم إلا أني أعلم أني لا أعلم.

ومن المنظوم قول امرئ القيس:

هضيم الحشا لا يملأ الكف خصرها ... ويملأ منها كل حجلٍ ودملج

وقال السموءل:

وننكرِ إن شئنا على الناس قولَهم ... ولا ينكرون القول حيث نقول

وقال:

لا يعجبان بقول الناس عن عرضٍ ... ويعجبان بما قالا وما سمعا

وقال آخر:

خفيف الحاذ نسّال الفيافي ... وعبد للصحابة غير عبدِ

وقال الأعشى:

صرمتُ ولم أصرمكم وكصارمٍ ... أخٌ قد طوى كشحاً وآب ليذهبا

وقال آخر:

حتى نجا من خوفه وما نجا

ومن شعر المحدثين قول البحتريّ:

فابقَ عمر الزّمان حتى نؤدى شكر إحسانك الذي لا يؤدي

وقال أبو تمام:

إلى سالم الأخلاق من كل عائبٍ وليس له مال على الجود سالم

وقال آخر:

أبلغ أخانا تولى الله صحبته أني وإن كنتُ لا ألقاهُ ألقاهُ

الله يعلمُ أني لستُ أذكره وكيف يذكره من ليس ينساهُ

وقال آخر:

هي الدرُّ منثوراً إذا ما تكلمت وكالدرِّ منظوما إذا لم تكلّم

تعبَّدُ أحرار القلوب بدلّها وتملأ عين الناظر المتوسّم

وقال آخر:

ثقي بجميلِ الصَّبرْ مني على الدهر ولا تثقي بالصبّر مني على الغدرِ

ولستُ بنظّارٍ إلى جانب الغني إذا كانتِ العلياءُ في جانب الفقرِ

وقال أبو تمام:

خليليّ من بعد الجَوى والأسى قفا ولا تقفا فيض الدموع السواجم

وقلت:

أفي هذه الأيام زدت ولم تزدْ سناءً تعالى فيه قدرك عن قدري

وقلت:

أخو عزائم لا تفنى عجائبها والدَّهر ما بينها تفنى عجائبه

تقضى مآربه من كل فائدةٍ لكنْ من المجد ما تقضَى مآربه

الفصل السابع والعشرون

في الاستثناء

والاستثناء على ضربين، فالضرب الأول هو أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثنى بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها، والتوكيد الذي توخيته في استثنائك، كما أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرني أبو عمر الزاهد، قال: قال أبو العباس: قال ابن سلام، لجندل بن جابر الفزاري:

فتىً كملتْ أخلاقه غير أنّه ... جوادٌ فما يبقِي من المال باقيا

فتى كان فيه ما يسرُّ صديقه ... على أنّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

فقال هذا استثناء، فتبين هذا الاستثناء لهم، كما قال النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم ... بهنَّ فلول من قراع الكتائبِ

ومثله قول أبي تمام:

تنصَّلَ ربُّها من غير جرمٍ ... إليك سوى النصيحةِ في الوداد

وقلت:

ولا عيب فيه غير أن ذوي الندى ... خساسٌ إذا قيسوا به ولئامُ

والضرب الآخر استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه، مثل قول طرفة:

فسقَى ديارك غيرَ مفسدِها ... صوب الربيع وديمةٌ تهمى

وقول الآخر:

فلا تبعدنْ إلا من السوء إنني ... إليك وإن شطَّتْ بك الدارُ نازعُ

وقال الربيع بن ضبع:

فنبتُ ولا يفنى صنيعي ومنطقي ... وكل امرئ إلا أحاديثه فانِ

وقال أعرابي يصف قوسا:

خرقاء إلاَّ أنها صناعُ

وقال آخر في الخيل:

منها الدّجوجيّ ومنها الأرمكُ ... كالليل إلاّ أنها تحرَّكُ

الفصل الثامن والعشرون

في المذهب الكلامي

جعله عبد الله بن المعتزّ الباب الخامس من البديع، وقال: ما أعلم أنّي وجدت شيئاً منه في القرآن. وهو ينسب إلى التكلّف، فنسبه إلى التكلّف وجعله من البديع.

ومن أمثلة هذا الباب قول أعرابي لرجل: إني لم أضر وجهي عن الطلب إليك قصر نفسك عن ردئ، فضعني من كرمك، بحيث وضعتُ نفسي من رجائك.
وقول أبي الدرداء: أخوف ما أخاف أن يقال لي: عملت فما عملت؟ وقول طاهر ابن الحسين للمأمون: يا أمير المؤمنين، يحفظ على من قلبك، ما لا أستعين على حفظه إلاّ بك. وقال بعض الأوائل: لولا أنّ قولي لا أعلم تثبيت لأني أعلم لقلت: لا أعلم. وقال آخر: لولا العمل لم يطلب العلم، ولولا العلم لم يكن عمل، ولأن أدع الحق جهلاً به أحب إليّ أن أدعه زهداً فيه.
وأنشد عبد الله قول الفرزدق:

لكل امرئ نفسان: نفسٌ كريمةٌ　　وأخرى يعاصيها الهوى فيطيُعها
ونفسك في نفسيك تشفع للندى　　إذا قلّ من أحرارهن شفيعها

وأنشد لإبراهيم بن المهدي يعتذر للمأمون:

البرّ بي منك وطأ العذر عندك لي　　فما فعلتُ تعذل ولم تلمِ
وقام علمُك بي فاحتج عندك لي　　مقام شاهد عدل غير متّهمِ

وأنشد:

إنّ هذا يرى ولا رأى لل　　أحمقِ إني أعده إنسانا
ذاك بالظنّ عنده وهو عندي　　كالذي لم يكن وإن كان كانا

ومثله:

أما يحسنُ من يحسنُ　　أن يغضبَ أن يرضى
أما يرضى بأن صرتُ　　على الأرض له أرضا

الفصل التاسع والعشرون

في التشطير

وهو أن يتوازن المصراعان والجزآن، وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه، واستغنائه عن صاحبه.

فمثاله من النثر قول بعضهم: من عتب على الزمان طالت معتبتُه، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته.

وقال الآخر: الجود خير من البخل، والمنع خير من المطل. وقول الآخر: رأس المداراة ترك المماراة، فالجزآن من هذه الفصول متوازنا الألفاظ والأبنية.

وقد أوردت من هذا النوع في باب الازدواج ما فيه كفاية.

وأما مثاله من المنظوم، فكقول أوس بن حجر:

فتحدركم عبسٌ إلينا وعامرٌ ... وترفعنا بكرٌ إليكم وتغلبٌ

وقول ذي الرمة:

أستحدثَ الركب عن أشياعهم خبراً ... أم راجع القلبَ من أطرابه طربُ

وقول الآخر:

فأما الذي يحصيهم فمكثّر ... وأما الذي يطربهم فمقلّلُ

وقول الآخر:

فكأنها فيه نهار ساطعٌ ... وكأنه ليل عليها مظلمُ

ومن شعر المحدثين قول البحتري:

شوقي إليك تفيض منه الأدمعُ ... وجوى إليك تضيق عنه الأضلعُ

وقول أبي تمام:

بمصعدٍ من حسنه ومصوّبٍ ... ومجمّعٍ من نعته ومفرَّقِ

وقوله:

تصدِّع شمل القلب من كلِّ وجهةٍ ... وتشعبه بالبثّ من كل مشعبِ

بمختبلٍ ساجٍ من الطّرفِ أكحَل ... ومقتبلٍ صافٍ من الثغر أشنبِ

وقوله:

أحاولتِ إرشادي فعقليَ مرشِدي ... أو استمتِ تأديبي فدهري مؤدبي

وقول البحتري:

فقف مسعداً فيهن إن كنت عاذراً ... وسِر مبعداً عنهن إن كنت عاذلا

وقال:

ومذهب حبٍّ لم أجد عنه مذهبا وشاغل بثٍّ لم أجد عنه شاغلا

وقال:

طليعتهم إن وجّه الجيش غازياً وساقتهم إن وجّه الجيش قافلا

وقال:

إذا اسودّ فيه الشكّ كان كواكبًا وإن سار فيه الخطبُ كان حبائلا
لأذكرته بالرّمح ما كان ناسيا وعلّمتُه بالسّيف ما كان جاهلا
فمنْ كان منهم ساكتا كنت ناطقاً ومن كان منهم قائلاً كنتُ فاعلا

وقال:

فلأجرينّ الدمع إن لم تجرِه ولأعرفنَّ الوجد إن لم تعرفِ

وقال في جيش:

يسودُّ منه الأفق إن لم ينسدد وتموتُ منه الشمس إن لم تكسفِ

وقلت:

وعلى الرُّبى حللٌ وشاهنّ الحيا فمسهَّم ومعصّب ومفوّف
والبرق يلمع مثل سيفُ ينتضى والسيل يجري مثل أفعى تزحفُ
والقطر يهمِي وهو أبيض ناصعٌ ويصير سيلا وهو أغبر أكلفُ

الفصل الثلاثون

في المجاورة

المجاورة: تردد لفظتين في البيت، ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريباً منها، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها، وذلك كقول علقمة:

ومطعم الغنمِ يوم الغنم مطعمُه أنَّى توجَّه والمحروم محرومُ

فقوله: الغنم يوم الغنم مجاورة، والمحروم محروم مثله.

وقول الآخر:

وتندق منها في الصدور صدورها

وقول أوس بن جحر:

كأنها ذو وشومٍ بين مأفقهٍ — والقطقطانة والبرعومُ مذعورُ

وقول أبي تمام:

إنا أتيناكم نصورُ مآرباً — يستصغر الحدثَ العظيم عظيمها

وقوله:

ردعوا الزمان وهم كهولٌ جلّة — وسطوا على أحداثه أحداثا

وقول الآخر:

أنضاء شوق على أنضاءِ أسفار

وقول الآخر:

إنما يغفر العظيم العظيم

وقول أبي تمام:

وما ضيق أقطار البلاد أضافني — إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي

وقول أبي الشيص:

فاتوك أنقاضا على أنقاض

وقول أبي النجم:

تدنِي من الجدول مثل الجدول

وقول رؤبة:

ترمي الجلاميد بجلمودِ مدقّ

وقول الآخر:

قم فاسقني من كروم الرند ورد ضحا — ماء العناقيد في ظل العناقيد

وقول آخر، وقد بعث إلى جارية يقال لها راحج براح:

قل لمن تملك القلوبَ — وإن كان قد ملكْ

قد شربناك فاشربي — وبعثنا إليك بكْ

ومن هذا النوع قول الشاعر:

فلوني والمدام ولون ثوبي   قريبٌ من قريبٍ من قريب

وقلت:

كأن الكأس في يده وفيه   عقيقٌ في عقيقٍ في عقيقٍ

وقلت أيضاً:

دعونا ضرَّةَ البدرِ المنير   فوافتنا على خضرٍ نضير
مطرّزة الشوارب بالغوالي   مضمّخة السوالف بالعبير
ترى ما شئت من قدٍّ رشيق   وما أحببتَ من ردفٍ وتير
ألامسُها وقد لبستْ حريراً   فأحسبِها حريراً في حرير
فأنسٌ ثم لهو ثم زهْر   سرور في سرورٍ في سرور

وقلت أيضاً:

ودار الكاس في يد ذي دلال   رشيق القدِّ يعرف بالرشيق

ومنه أيضاً قول أبي تمام:

دأب عيني البكاءُ والحزن دأبي   فاتركيني وقيتِ ما بي لما بي

وقوله أيضاً:

كأن العهد عن عفر لدينا   وإن كان التلاقي عن تلاقي

وقوله:

طلبتْ أنفسَ الكُماة فشقتْ   من وراء الجيوب منها الجيوبا

وقوله:

أيام للأيام فيك غضارة   والدهر فيّ وفيك غير ملوم

وقال ابن الرومي:

مشترك الحظ لا محصّله   محصّل المجد غير مشتركه
منّهك المال لا ممنّعه   ممنّع العرض غير منّهكه

وقول مسلم:

أتتك المطايا تهتدي بمطيّة   عليها فتىً كالنّصل يؤنسه النصل

الفصل الحادي والثلاثون

في الاستشهاد والاحتجاج

وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته.

فمثاله من النثر ما كنت به كافي الكفاة في فصل له: فلا تقس آخرأمرك بأوّله، ولا تجمع من صدره وعجزه، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه، فالإناء يملؤه القطر فيفعم، والصغر يقترن بالصغير فيعظم، والداء يلمّ ثم يصطلم، والجرح يتباين ثم ينفتق، والسيف يمس ثم يقطع، والسهم يرد ثم ينفذ.

ومن الاستشهاد قول الآخر:

إنما يعشقُ المنايا من الأق ... وام من كان عاشقاً للمعالي

وكذاك الرّماح أول ما يك ... سر منهنّ في الحروب العوالي

وقال أبو تمام:

هم مزّقوا عنه سبائب حلمه ... وإذا أبو الأشبال أحرِج عاثَا

وقال أيضاً:

عتقت وسيلتُه وأية قيمةٍ ... للمشرفيّ العضبِ ما لم يعتقُ

وقال أيضاً:

يأخذ الزائرين قسراً ولو ك ... فّ دعاهم ربعٌ خصيب

غير إن الرامي المسدد يحتا ... طمع العلم أنه سيصيبُ

وقال أيضاً:

فاضممْ قواصيهم إليك فإنه ... لا يزخَر الوادي بغير شعابِ

والسهم بالريش اللُّؤامِ ولن ترى ... بيتاً بلا عمدٍ ولا أطنابِ

وقال ابن الرومي:

وطائف باستِه على طبق ... يبغى لها حربة يشقّ لها

معاملا كلَّ سفلة سفلتْ ... ولا يرى عليةً يعاملها

قلت له لم هواك في سفلِ الن ... اس وشرّ الأمورِ سافلُها

أفرقة وافقتك طاعتُها | أم عصبة فضلّت غراملُها
قال وجدت الكعوبِ من قصب الس | كر مختارُها أسافلها
واست الفتى سفلة فغايتُها | ووكرها سفلة يشاكلُها

وقول بشار:

فلا تجعلِ الشّورَى عليكَ غضاضةً | فإن الخوافِي قوةٌ للقوادم

وقول الفرزدق:

تصرِّمَ مني ودُّ بكرِ بن وائلِ | وما كادَ لولا ظلمهم يتصرَّمُ
قوارصُ تأتيني ويحتقرُونها | وقد يملأ القطرُ الإناءَ فيفعمُ

وقال أبو تمام:

غدا الشيبُ مختطّاً بفوديّ خطةً | طريقَ الرّدَى منها إلى النفس مهيعُ
هو الزورُ يجفى والمعاشر يجتوى | وذو الإلف يقلَى والجديد يرقَّعُ
له منظرٌ في العين أبيضُ ناصعُ | ولكنَّه في القلب أسودُ أسفعُ
ونحن نرجّيه على السخط والرضا | وأنف الفتى من وجهه وهو أجدعُ

وقال:

لي حرمة والتْ عليَّ سجالكمْ | والماء رزقُ جمامهِ للأول

وقال آخر:

أعلقْ بآخرِ منْ كلفتَ بحبه | لا خير في حب الحبيب الأولِ
أتشكّ في أن النبيَّ محمداً | خيرُ البرية وهو آخرُ مرسلِ

وقال أبو تمام، في خلاف ذلك:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى | ما الحبُّ إلا للحبيب الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفتى | وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ

وقال ديك الجن في المعنى الأول:

اشربْ على وجه الحبيب المقبلِ | وعلى الفمِ المتبسِّم المتقبّل
شرباً يذكر كل حبّ آخر | غضٍّ وينسى كل حبٍّ أول

نقِل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوى جديد أو كوصل مقبل
ما إن أحنّ إلى خرابٍ مقفرٍ درستْ معالمه كأنْ لم يؤْهلِ
مقتِي لمنزلي الَّذس استحدثته أما الَّذي ولى فليسَ بمنزلي

وقال العلوي الأصبهاني:

دعْ حبّ أول من كلفتَ بحبّه ما الحبّ إلا للحبيبِ الآخرِ
ما قدْ تولى لا ارتجاعَ لطيبه هل غائب اللذات مثل الحاضرِ
إنَّ المشيبَ وقدْ وفي بمقامه أوفَى لديّ من الشَّباب الغادرِ
دنياك يومُك دون أمسِك فاعتبر ما السالفُ المفقودُ مثل الغابر

وقال آخر، في خلاف القولين:

قلبي رهينٌ بالهوى المقتبلِ فالويلُ لي في الحبِّ إن لم أعدلِ
أنا مبتلى ببليَّتين من الهوى شوقٌ إلى الثاني وذكرُ الأول
فهما حياتي كالطّعام المشتهى لا بدَّ منه وكالشّراب السلسلِ
قسم الفؤاد لحرمةٍ وللذَّةٍ في الحبِّ من ماض ومن مستقبلِ
إني لأحفظُ عهد أول منزل أبداً وآلفُ طيبَ آخر منزل

وقال آخر في خلاف الجميع:

الحبّ للمحبوب ساعة حبِّه ما الحبُّ فيه لآخر ولأوّلِ

وقلت:

كان لي ركنٌ شديد وقعت فيه الزلازلْ
زعزعتهُ نوبُ الدّه ر وكرّاتُ النوازلْ
ما بقاء الحجر الصل دِ على وقعِ المعاولْ

وتدخل أكثرُ هذه الأمثلة في التشبيه أيضاً.

الفصل الثاني والثلاثون

في التعطف

والتعطف أن تذكر اللّفظ ثم تكرره، والمعنى مختلف، قالوا: وأول من ابتدأه امرؤ القيس، في قوله:

إلا إنّني بالٍ على جملٍ بالٍ		يسوق بنا يالٍ ويتبعنا بالِ

وليس هذا من التعطف على الأثل الذي أصّلُوه، ولك أن الألفاظ المكررة في هذا البيت على معنى واحد يجمعها البلى فلا اختلاف بينها، وإنما صار كل واحد منها صفة لشيء، فاختلفت لهذه الجهة لا من جهة اختلافها في معانيها، وكذلك قول الآخر:

عود على عود على عودٍ خلق

وإنما التعطف على أصلهم، كقول الشماخ:

كادتْ تساقطُني والرّحلَ إذ نطقتْ		حمامةٌ فدعتْ ساقاً على ساق

أي دعت حمامة، وهو ذكر القماري ويسمى الساق عندهم على ساق شجرة، وقول الأفوه:

وأقطع الهوجلَ مستأنساً		بهوجلٍ عيرانَة عنتريس

فالهوجل الأول: الأرض البعيدة الأطراف، والهوجل الثاني: الناقة العظيمة الخلق.

ومما يدخل في التعطف ما أنشدنا أبو أحمد، قال: أنشدنا أبو عبد الله المفجع، قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب:

أتعرف أطلالاً شجونك بالخالِ		وعيشَ ليالٍ كان في الزَّمن الخالي

الخال: موضع. والخالي، من الخلوة.

ليالـيَ ريعانُ الشَّبابِ مسلَّطٌ		عليّ بعصيان الإمارة والخالِ

يعني أنه يعصى أمر من يلي أمره وأمر من ينصحه ليصلح حاله، وهو من قولهم: فلان خال مال، إذا كان يقومُ به ويصلحه.

وإذ أنا خدنٌ للغويِّ أخي الصبّا		وللمرحِ الذّيال واللهو والخال

الخال ها هنا: من الخيلاء وهو الكبر.

إذا سكنتْ ربعا رئمتُ رباعها		كما رئم الميثاء ذو الرثية لخالي

الخالي: الذي لا أهل له.

ويقتادُني ظبي رخيمٌ دلاله		كما اقتاد مهراً حين يألفه الخالي

الخالي: الذي يقطع الخلا وهو النبات الرطب.

ليالي سلمى تستبيك بدلّها		وبالمنظر الفتان والجيد والخالِ

الخالي: الذي يرشم على الخد شبيه الشامة.

وقد علمت أني وإن ملت للصِّبا إذا القوم كعُّوا لستُ بالرَّعشِ الخالي

الخالي الذي لا أصحاب معه يعاونونه.

ولا أرتدي إلا المروءة حلّة إذا ضن بعضُ القوم بالعصب والخالِ

الخال: ضرب من البرود.

وإن أنا أبصرت المحول ببلدةٍ تنكبتها واشتمتُ خالاً إلى خالِ

الخال: السحابة المخيلة للمطر.

فحالف بخلقي كلّ حرٍّ مهذب وإلا فصارمه وخال إذاص خال

المخالاة: قطع الحلف، يقال: أخلّ من فلان، وتخلّ منه، أي فارقه، وقال النابغة:

قالت بنو عامر خالوا بني أسد

فإني حليف للسماحة والنّدى إذا احتلفت عبس وذبيان بالخالِ

الخال: موضع.

ومثله:

يا طيب نعمةِ أيام لنا سلفتْ وحسن لذة أيام الصبا عودِي

أيام أسحبُ ذيلي في بطالتها إذا ترنّمَ صوت الناي والعود

وقهوةٍ من سلاف الخمر صافية كالمسك والعنبر الهندي والعود

تسلّ عقلك في لين وفي لطف إذا جرت منك مجرى الماء في العود

ومن هذا انوع، قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

ولم أجد منه شيئاً في القرآن إلا قوله تعالى: "ويوم تقومُ السّاعة يقسمُ المجرمون ما لبثواَ غير ساعة". والله أعلم.

الفصل الثالث والثلاثون

في المضاعفة

وهو أن يتضمَّن الكلام معنيين: معنىً مصرّح به، ومعنى كالمشار إليه، وذلك المضاعفة مثل قول الله تعالى: "ومنهم من يستمعون إليكَ أفأنت تسمعُ الصّمّ ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون" فالمعنى المصرّح به في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات، وصمّ عن الكلم البينات، بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها، والمعنى المشار إليه أنه فضّل السمع على البصر، لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل، ومع العمى فقدان النظر فقط.

ومن نثر الكتاب ما كتب به الحسن بن وهب: كتابي إليك، وشطر قلبي عندك، والشطر الآخر غير خلو من تذكّرك، والثناء على عهدك، فأعطاك الله بركة وجهك، وزادَ في علوّ قدرك، والنعمة عندك وعندنا فيك.

فقوله: بركة وجهك فيه معنيان: أحدهما أنه دعا له بالبركة، والآخر أنه جعل وجهه ذا بركة عظيمة، ولعظمها عدل إليها في الدعاء عن غيرها من بركات المطر وغير، ومثله قول أبي العيناء: سألتك حاجة فرددت بأقبح من وجهك، فتضمن هذا اللّفظ قبح وجهه وقبح رده.

ومن المنظوم قول الأخطل:

قومٌ إذا استنبح الأضياف كلبهم ... قالوا لأمهم بولى على النَّار

فأخبر عن إطفاء النار، فدل به على بخلهم، وأشار إلى مهانتهم، ومهانة أمهم عندهم.

وقول أبي تمام:

يخرج من جسمك السّقام كما ... أخرجَ ذمُّ الفعال من عنقكْ
يسحُّ سحّاً عليك حتى يرى ... خلقك فيها أصحَّ من خلقكْ

فدعا له بالصحة وأخبر بصحة خلقه، فهما معنيان في كلام واحد.

وقال جحظة:

دعوتَ فأقبلتُ ركضاً إليك ... وخالفتُ من كنتُ في دعوتَه
وأسرعتُ نحوك لما أمرتَ ... كأنِّي نوالُك في سرعتهْ

وقال ابن الرومي:

بنفس أبتْ إلاّ ثباتَ عقُودها ... لمن عاقدته وانحلال حقودها
ألا تلكم النفس التي تم فضلها ... فما نستزيد الله غير خلودها

فذكر تمام فضلها وأراد خلودها، ومن ذلك قول الآخر:

نهبتَ من الأعمارَ ما لو حويتَه ... لهنِّئت الدنيا بأنك خالدُ

وكتب بعضهم: فإن رأيت صلتي بكتابك العادل عندي رؤية كلّ حبيب سواك وتضمينه من حوائجك ما أسر بقضائه فعلت إن شاء الله. فقاله: سواك مضاعفة.

ومن هذا الباب نوع آخر، وهو أن تورد الاسم الواحد على وجهين وتضمنه معنيين كل واحد منهما معنى، كقول بعضهم:

أفدِي الّذي زارني والسيف يخفرُه ... ولحظ عينيه أمضى من مضاربه

فما خلعت نجادي في العناقِ له ... حتى لبست نجاداً من ذوائبه

فجعل في السيف معنيين: أحدهما أن يخفره، والآخر أن لحظه أمضى من مضاربه.

وضرب منه آخر قول ابن الرومي:

بجهلٍ كجهل السّيفِ والسيف منتضىً ... وحلم كحلم السيفِ والسّيفِ مغمدُ

وضرب منه قول مسلم:

وخالٍ كخالِ البدر في وجهِ مثله ... لقينا المنى فيه فحاجزنا البذلُ

الفصل الرابع والثلاثون

في التطريز

وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون فيها كالطّراز في الثوب، وهذا النوع قليل في الشعر.

وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن أبي طاهر:

إذا أبو قاسمٍ جادتْ لنا يدُه ... لم يحمَد الأجودان: البحرُ والمطر

وإن أضاءتْ لنا أنوارُ غرّته ... تضاءل الأنوران: الشمس والقمرُ

وإن مضى رأيه أو حدّ عزمته ... تأخر الماضيان: السيفُ والقدر

من لم يكن حذراً من حدِّ صولته ... لم يدرِ ما المزعجان: الخوفُ والحذَر

فالتطريز في قوله: الأجودان، والأنوران، والماضيان، والمزعجان.

ونحوه قول أبي تمام:

أعوام وصلٍ كاد ينسى طولُها ... ذكرَ النوى فكأنها أيامُ

ثم انبرتْ أيام هجر أردفت | نجوى أسىً فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها | فكأنهم وكأنها أحلام

وقلت في مرثية:

أصبحتْ أوجهُ القبور وضاء | وغدتْ ظلمة القبورِ ضياءُ
يوم أضحى طريدةً للمنايا | ففقدنا به الغنى والغناءُ
يوم ظلّ الثرى يضم الثريّا | فعدمنا منه السّنا والسناءُ
يوم فاتتْ به بوادرُ شؤمٍ | فرزينا به الثَّرى والثراء
يوم ألقى الرّدى عليه جراناً | فحرمنا منه الجدَا والجداء
يوم ألوتْ به هنات الليالي | فلبسْنا به البلى والبلاء

ومن ذلك قول زياد الأعجم:

ومتى يؤامِرْ نفسه مستلحياً | في أن يجود لذي الرجاء يقلْ جُد
أو أن يعود له بنفحة نائلٍ | بعد الكرامة والحياء يقل عدِ
أو في الزيادة بعد جزل عطية | للمستزيد من العفاة يقل زدِ

الفصل الخامس والثلاثون

في التلطف

وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه، والمعنى الهجين حتى تحسنه، وقد ذكرت طرفاً منه في أوّل الكتاب، إلا أني لم أسمّه هناك بها الاسم فيشهر به ويكون بابا برأسه، كإخوانه من أبواب الصنعة.

فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح: أنت حقود، فقال: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان. فقال يحيى: ما رأيت أحداً احتجّ للحقد حتى حسّنه غيرك. وقد مر هذا الفصل في أول الكتاب.

ورأى الحسن على رجل طيلسان صوف، فقال له: أيعجبك طيلسانُك هذا؟ قال: نعم، قال: إنه كان على شاة قبلك، فهجّنه من وجه قريب.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم أبو العيناء، قال: لما دخلتُ على المتوكل دعوتُ له، وكلمته فاستحسن كلامي، وقال لي: يا محمد، بلغني أنّ فيك شراً، قلت: يا أمير

المؤمنين، إن يكن الشَّرُّ ذكر المحسن بإحسانه، والمسئ بإساءته، فقد زكّى الله عز وجل وذم؟ فقال في التزكية: "نعم العبدُ إنَّه أوابٌ"، وقال في الذم: "همّازٍ مشّاءٍ بنميمٍ منّاعٍ للخير معتدٍ أثيمٍ، عتلٍّ بعد ذلك زنيمٍ"، فذمه الله تعالى حتى قذفه، وقد قال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثن دائماً ... ولم أشتم الجبس اللّئيم المذمَّما
ففيمَ عرفتُ الخير والشرّ باسمه ... وشقَّ لي اللهُ المسامعَ والفما

وفي الخبر بعض طول.

وكان عبد الله بن أمية وسم دوابّه عدّة، فلما جاز بها الحجاج جعل إلى جانبه للفرار. وقيل لعبادة: إن السّودان أسخن، فقال: نعم، للعيون. وقال رجل لرجل كان يراه فيبغضه: ما اسمك؟ فقال: سعد، قال: على الأعداء. وسمعت والدي رحمه الله يقول: لعن الله الصبر فإن مضرته عاجلة، ومنفعته آجلة، يتعجّل به ألم القلب، بأمثال المنفعة في العاقبة، ولعلها تفوتك لعارض يعرض، فكنت قد تعجلت الغم من غير أن يصل إليك نفع، وما سمعت هذا المعنى من غيره، فنظمته بعد ذلك، فقلت:

الصَّبّرْ عمن تحبّه صبرُ ... ونفع من لامَ في الهوى ضررُ
منْ كان دون المرام مصطبراً ... فلستُ دونَ المرام أصطبرُ
منفعة الصبّر غيرُ عاجلةٍ ... وربما حال دونها الغيرُ
فقمْ بنا نلتمس مآربنا ... أقام أو لم يقم بنا القدر
إنّ لنا أنفساً تسودنا ... أعانهنّ الزمان أو بذرُ
وابغِ من العيش ما تسرّ به ... إن عذل الناس فيه أو عذروا

ومن المنظوم قول الحطيئة في قوم كانوا يلقبون بأنف الناقة فيأنفون، فقال فيهم:

قومٌ هم الأنف والأذنابُ غيرُهم ... ومنْ يسوّى بأنفِ الناقة الذنبا

فكانوا بعد ذلك يتبجحون بهذا البيت.

ومدح ابن الرومي البخل وعذر البخيل، فقال:

لا تلمِ المرءَ على بخلِه ... ولمهُ يا صاحِ على بذلِهِ
لا عجب بالبخل من ذي حجىً ... يكرم ما يكرم من أجلِه

وعذر أبو العتاهية البخيل في منعه منه، بقوله:

جزى البخيلُ عليَّ صالحةً عنِّى بخفتِه على ظهرِي
أعلَى فأكرَم عن نداه يدِي فعلتْ ونزَّه قدرُه قدرِي
ورزقتُ من جدواهُ عارفة ألاّ يضيقَ بشكرِه صدري
وظفرتُ منه بخيرِ مكرمة من بخلِه من حيثُ لا يدرِي
ما فاتني خيرُ امرئ وضعت عنِّي يداه مؤومة الشكرِ

وقال ابن الرومي، يعذر إنسانا في المنع:

أجممت حسرى أياديك التي ثقلت على الكواهل حتى أدّها ذاكا
وما مللتَ العطايا فاسترحت إلى إغبابهم بل هم ملوا عطاياكا
وما نهتهمْ عن المرعى وخامتُه لكنه أسبق الرّاعين مرعاكا
تدبّر الناسُ ما دبّرته فإذا عليهم لا على الأموال بقياكا
أمسكت سيبَك إضراء لرغبتهم وما بخلت ولا أمسكت إمساكا

وكان شمُّ الورد يضرُّه، فكان يذمّه ويمدح النرجس، واحتال في تشبيهه، حتى هجّن فيه أمره وطمس حسنه وهو قوله:

وقائل لم هجوتَ الورد معتمداً فقلت من بغضه عندي ومن عبطه
كأنه سرمُ بغل حين يخرجه عندَ الرياث وباقي الروث في وسطِه

ومثله قول يزيد المهلبي:

ألا مبلغٌ عني الأميرَ محمداً مقالاً له فضل على القول بارعُ
لنا حاجةٌ إن أمكنتك قضيتَها وإن هي لم تمكن فعذرُك واسعُ

وقال ابن الرومي أيضاً:

وإني لذو حلف كاذب وإذا ما اضطررت وفي الأمر ضيقُ
وما في اليمين على مدفعٍ يدافع بالله ما لا يطيق

وقد فرغنا من شرح أبواب البديع، وتبيين وجوهها وإيضاح طرقها، والزيادة التي زدنا فيها ستّة فصول، وأبرزناها في قوالبها من الألفاظ من غير إخلال ولا إهذار. وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل في معناها قبلها، فمثل بينها وبينه فإنك تقضِي لها عليه، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه، إن شاء الله.

وقد عرض لي بعد نظم هذه الأنواع، نوع آخر لم يذكره أحد وسميته المشتق، وهو على وجهين، فوجه

منهما أن يشتق اللفظ من اللفظ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ، فاشتقاق اللفظ من اللفظ، هو مثل قول الشاعر في رجل يقال له بنخاب:

وكيف ينجح من نصف اسمه خابا

وقلت، في البانياس:

في البانياس إذا أوطئت ساحتها   خوف وحيفٌ وإقلال وإفلاس

وكيف يطمع في أمن وفي دعة   من حل في بلد نصف اسمه ياس

واشتقاق المعنى من اللفظ، مثل قول أبي العتاهية:

حلقتُ لحية موسى باسمه   وبهارون إذا ما قلبا

وقال ابن دريد:

أو أوحى النحو إلى نفطويه   ما كان هذا النحو يقرا عليه

أحرقه الله بنصف اسمه   وصير الباقي صراخاً عليه

الباب العاشر

ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه

والقول في حسن الخروج والفصل والوصل وما يجري مجرى ذلك

الفصل الأول

في ذكر المبادئ

قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكّتاب الابتداءات فإهن دلائل البيان. وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله، مما يتطيّر منه، ويستجفى من الكلام والمخاطبة والبكاء ووصف إقفار الديار وتشتيت الألآّف ونعى الشباب وذمّ الزمان، لا سيّما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة، فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطيّر منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح، مثل ابتداء ذي الرّمة:

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ   كأنه من كلىً مفريّةٍ سرب

وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس ابتداءه:

أربع البلى إن الخشوع لبادي   عليك وإني لم أخنك ودادِي

قال فلما انتهى إلى قوله:

سلامٌ على الدّنيا إذا ما فقدتُم   بنى برمكٍ من رائحين وغاد

وسمعه استحكم تطيّره، وقيل: إنه لم يمض أسبوع حتى نكبوا.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: حدثنا الصولي، قال: حدثنا محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثني عمى عن أخيه أبي محمد، قال: لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه، وأمر أن يلبس الناسُ كلّهم الديباج، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسافسا الذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصّع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرّة اليتيمة، وفي الإيوان أسرّة آبنوس عن يمينه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رتّبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم،

فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم في النّشيد فأذن له، فأنشده شعراً ما سمع الناس أحسن منه في صفته وصفة المجلس، إلاّ أن أوله تشبيب بالديار القديمة، وبقية آثارها فكان أول بيت منها:

يا دارُ غيّرك البلى فمحاكِ   يا ليت شعري ما الّذي أبلاك

فتطيّر المعتصم منها، وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك، قال: فأقمنا يومنا هذا، وانصرفنا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سرّ من رأى، وخرب القصر.

وأنشد البحتري أبا سعيد قصيدة أولها:

لك الويلُ من ليلٍ تطاول آخرُه   ووشك نوَى حيٍّ تزم أباعرُه

فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك فغيّره وجعله له الويل وهو ردئ أيضاً.

وأنشد أبو حكيمة أبا دلف:

ألا ذهب الأير الذي كنت تعرف

فقال أبو دلف: أمّك تعرف ذلك.

وأنشد أبو مقاتل الداعي:

لا تقلْ بشرى ولكن بشريان   غرّة الداعي ويوم المهرجان

فأوجعه الداعي ضرباً، ثم قال: هلا قلت: إن تقل بشرى فعندي بشريان. فإن أراد أن يذكر داراً فليذكرها كما ذكرها الخريمي:

ألا يا دارُ دام لك الحبورُ   وساعدك الغضارةُ والسرور

وكما قال أشجع:

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلام   نشرت عليه جمالَها الأيام

وقالوا: أحسن ابتداءات الجاهلية قول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمةَ ناصبِ   وليلٍ أقاسيه بطئ الكواكب

وأحسن مرثية جاهلية ابتداء قول أوس بن حجر:

أيّتها النفس أجملِي جزعا   إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

قالوا: وأحسنُ مرثية إسلامية ابتداء قول أبي تمام:

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمَعا   وأصبحَ مغنى الجودِ بعدَك بلقعَا

وقول الآخر:

أنعى فتى الجود إلى الجودِ ... ما مثل منْ أنعَى بموجود

أنعّى فتىً مصَّ الثرى بعده ... بقية الماء من العود

وقد بكى امرؤُ القيس واستبكى، ووقف واستوقف، وذكر الحبيبَ والمترل في نصف بيت، وهو قوله:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل

فهو من أجود الابتداءات.

ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموءل:

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللؤمِ عرضُه ... فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

وإنْ هوَ لم يحملْ على النفس ضيمَها ... فليس إلى حسنِ الثناء سبيل

وقال بعضهم: أحكم ابتداءاهم قول لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل ... وكلُّ نعيم لا محالة زائل

وبعضهم يجعل ابتداء هذه القصيدة:

ألا تسألان المرء ماذا يحاولُ ... أنحبٌ فيقضي أم ضلال وباطلُ

ومن جياد ابتداءات أهل الجاهلية قول أوس بن حجر:

ولقد أبيتُ بليةٍ كليالي

ومنها قول النابغة:

دعاك الهوى واستهجلتكَ المنازلُ ... وكيفَ تصابي المرءِ والشيبُ شاملٌ

ونحوه قول أمية:

يا نفسُ مالك بعد الله من واقِ ... وما على حدثان الدهر من راقِ

وقالوا: وكان عبد الحميد الكاتب لا يبتدئ بلولا ولا إن رأيت. وقد جعل الناس قول أبي تمام:

يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا ... هي الصبابة طول الدهر والسهد

من جياد الابتداءات، وقوله:

سعدتْ غربةُ النَّوَى بسعادِ ... فهي طوعُ الإتهامِ والإنجادِ

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من يتفقد الابتداء والمقطع.

لما نظر أبو العميثل في قصيدة أبي تمام:

أهنَّ عوادي يوسف وصواحبهْ فعزماً فقدماً أدركَ الثأر طالبُهْ

استرذل ابتداءها وأسقط القصيدة كلها، حتى صار إليه أبو تمام، ووقفه على موضع الإحسان منها، فراجع عبد الله بن طاهر، فاجازه.

ولأبي تمام ابتداءات كثيرة تجرى هذا المجرى، منها قوله:

قدكّ أتّئبْ أربيتَ في الغلواءِ كم تعذلون وأنتمُ سجرائي

وقوله:

صدقتْ لهيًّا قلبك المستهترِ فبقيت نهبَ صبابة وتذكُّرِ

ومن الابتداءات البديعة قول مسلم:

أجررتُ ذيلَ خليعٍ في الهوى غزلِ وشمَّرَتْ همُ العذَّالِ في عذلِي

وقال أبو العتاهية:

ننافس في الدنيا ونحنُ نعيبها

والابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعاً مونقين.

وقد استحسن لبعض المتأخرين ابتداؤه:

أريقك أم ماءُ الغمامة أم خمرُ بفيَّ برودٌ وهو في كبدي جمرُ

وله بعد ذلك ابتداءات المصائب، وفراق الحبائب، منها قوله:

كفى أراني ويكِ لومكِ ألوَما همٌّ أقامَ على فؤادي أنجما

وقوله:

أبا عبد الإله معاذُ إني خفيٌّ عنك في الهيجا مقامي

وقوله:

هذي برزتِ لنا فهجت رسيسا ثم انصرفت وما شفيت نسيسا

وقوله:

جللاً كما بي فليكُ التّبريحُ أغذاءُ ذا الرّشإ الأغن الشيبحُ

وقوله:

أحادٌ أم سداسٌ في أحاد ... لييلتنا المنوطةُ بالتّنادِي

وقوله:

لجنِّية أم غادةٍ رفعَ السَّجفُ ... لوحشيّةٍ لا ما لوحشية شنفُ

وقوله:

بقائي شاء ليس همُ ارتحالا ... وحسن الصبر زمّوا لا الجمالا

وقوله:

في الخدِّ إن عزمَ الخليطُ رحيلا ... مطرٌ يزيد به الخدود محولا

وقال إسمعيل بن عباد: لعمري إن المحول في الخدود من البديع المردود.

وقوله:

نهنِّي بصورٍ أم نهنِّئها بكا ... وقلْ للَّذي صورٌ وأنتَ له لكا

وقوله:

عذيري من عذارى في صدور ... سكنَّ جوانِحي بدلَ الصُّدورِ

وقوله:

سربٌ محاسنُه حرمتُ ذواتِها ... دانِي الصِّفاتِ بعيدُ موصوفاتِها

وقوله:

أيا لائمي إنْ كنت وقتَ اللّوائِم ... علمت بما بي بينَ تلكَ المعالِمِ

وقوله:

ووقتٍ وفي بالدهرِ لي عند واحدٍ ... وفى لي بأهليه وزادَ كثيرا

وقوله:

شديد البعد من شرب الشَّمول ... ترنجُ الهندِ أو طلعُ النَّخيل

وقوله:

أراع كذا كلَّ الأنام همامُ ... وسحَّ له رسل الملوكِ غمام

وقوله:

أوهِ بديلٌ من قولتي واهَا ... لمنْ نأتْ والبديلُ ذكرَاهَا

فهذه وما شاكلها ابتداءات لا خلاق لها.

وإذا كان الابتداء حسناً بديعاُ، ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجئ بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله عز وجل: آلم. وحم. وطس. وطسم. وكهيعص، فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده والله أعلم بكتابه. ولهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله، لأن النفوس تتشوف للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتر".

فأما الابتداء البارد، فابتداء أبي العتاهية:

ألا ما لسيدتي مالَها أدلَّتْ فاحمل إدلالها

الفصل الثاني

في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل. وقال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس؟ فقال: من قرَّب الأمرَ البعيد المتناول، والصّعب الدرك بالألفاظ اليسيرة، قال: ما عدل سهمك عن الغرض.

ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته، ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ، ولا يكره المعاني على إنزالها في غير منازلها، ولا يتعمَّد الغريب الوحشيّ، ولا الساقط السوقيّ، فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام.

وقال أبو العباس السفاح لكاتبه: قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإيّاك أن تخلط المرعىّ بالهمل. ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل.

وقال الأحنف بن قيس: ما رأيتُ رجلاً تكلّم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضى الله عنه، كان إا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حقّ المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبيعته من الألفاظ، وكان كثيراً ما ينشد:

إذا ما بدا فوق المنابر قائلا أصاب بما يومي إليه المقاتلا

ولا أعرف فصلا في كلام منثور أحسن مما أخبرنا به أبو أحمد، قال: حدثنا الصّولي، قال: حدثنا محمد بن زكريا، قال: حدثني العتبي عن أبيه، قال: كان شبيب ابن شبّة يوماً قاعداً بباب المهدي، فأقبل عبد الصمد بن الفضل الرّقاشيّ، فلما رآه قال: أتاكم والله كليمُ الناس. فلما جلس قال شبيب: تكلم يا أبا العباس،

فقال: امعك يا أبا معمر وأنت خطيبنا وسيدنا؟ قال: نعم، فوالله ما رأيت قلباً أقرب من لسان، من قلبك من لسانك، قال: في أي شيء تحب أن أتكلم؟ قال: وإذا شيخ معه عصاً يتوكأ عليها، فقال: صف لنا هذه العصا، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم ذكر السماء، فقال: رفعها الله بغير عمد، وجعل فيها نجوم رجمٍ ونجوم اقتداء، وأدار فيها سراجاً وقمراً منيراً، لتعلموا عدد السنين والحساب، وأنزل منها ماء مباركاً، أحيا به الزرع والضّرع وأدرّ به الأقوات، وحفظ به الأرواح، وأنبت به أنواعا مختلفة، يصرّفها من حالٍ إلى حال، تكون حبّة، ثم يجعلها عرقا، ثم يقيمها على ساق، فبينا تراها خضراء ترف إذ صارت يابسة تتقصّف، لينتفع بها العباد، ويعمر بها البلاد، وجعل من يبسها هذه العصا. ثم أقبل على الشيخ، فقال: وكان هذا نطفة في صلب أبيه، ثم صار علقة حين خرج منه، ثم مضغة ثم لحما وعظما، فصار جنينا أوجده الله بعد عدم، وأنشأه مريدا، ووفقه مكتهلا، ونقصه شيخاً، حتى صار إلى هذه الحال، من الكبر، فاحتاج في آخر حالاته إلى هذه العصا، فتبارك المدبّر للعباد ... قال شبيب: فما سمعت كلاماً على بديه أحسن منه.

وقال معاوية: يا أشدق، قم عند قروم العرب وجحاجحها، فسلَّ لسانك، وجل في ميادين البلاغة، وليكن التفقّد لمقاطع الكلام منك على بال، فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى على عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه كتابا، وكان يتفقّد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته.

ولما أقام أبو جعفر صالحا خطيا بحضرة شبيب بن شبة وأشراف قريش فتكلم، أقبل شبيب فقال: يا أمير المرمنين، ما رأيت كاليوم أبين بيانا، ولا أربط جنانا، ولا أفصح لسانا، ولا أبلَّ ريقاً، ولا أغمض عروقا، ولا أحسن طريقا، إلا أن الجواد عسير لم يرض، فحملته القوة على تعسّف الإكام وخبطها، وترك الطريق اللاحب، وايم الله لو عرف في خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان.

وقال المأمون: ما أعجب بكلام أحد كإعجابي بكتاب القاسم بن عيسى، فإنه يوجز في غير عجز، ويصيب مفاصل الكلام ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلى عن مراده في كتبه، ويصيب المغزى في ألفاظه.

وكان يزيد بن معاوية يقول: إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا، فإنه أشدُّ وأعيبُ من اللَّحن.

وكان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتّابه افصلوا بين كل معنىً منقضٍ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض. وكان الحرث بن أبي شمر الغسّاني يقول لكاتبه المرقش: إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنىً غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفّرت القلوب عن وعيها، وملّته الأسماع، واستثقلته الرواة. وكان بزرجمهر. يقول: إذا

مدحت رجلاً، وهجوت آخر، فاجعل بين القولين فصلاً حتى تعرف المدح من الهجاء، كما تفعل في كتبك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ.

وقال الحسن بن سهل لكاتبه الحرّاني: ما منزلة الكاتب في قوله وفعله؟ قال: أن يكون مطبوعا محتنكا بالتجربة، علاماً بحلال الكتاب والسنة وحرامها، وبالدهور في تداولها وتصرّفها، وبالملوك في سيرها وأيامها، مع براعة اللفظ وحسن التنسيق، وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة، وشرح المعنى، حتى ينصب ضورها، وبمقاطع الكلام، ومعرفة الفصل من الوصل، فغذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد. والقول إذا استكمل آلته، واستمّ معناه فالفصل عنده. وكان عبد الحميد الكاتب إذا استخبر الرجل في كتابه فكتب: خبرك، وحالك وسلامتك، فصل بين هذه الأحرف ويقول: قد استكمل كل حرف منها آلته، ووقع الفصل عليه. وكان صالح بن عبد الرحمن التميمي الكاتب يفصّل بين الآيات كلها وبين تبيعتها من الكتاب، كيف وقعت. وكان يقول: ما استؤنف إنّ إلا وقع الفصل، وكان جبل بن يزيد يفصّل بين الفاءات كلها، وقد كره بعض الكتبة ذلك وأحبه بعض، وفصل المأمون عند حتى كيف وقعت، وأمر كتابه بذلك، فغلط أحمد بن يوسف، ووصل حتى بما بعده من اللفظ، فلما عرض الكتاب على المأمون أمر بإحضاره، فقال: لعن الله هذه القلوب حين أكنّت العلوم بزعمكم، واجتنت ثمر لطائف الحكمة بدعواكم، قد شغلتموها باستظراف ما عزب عنكم علمه عن تفهّم ما رويتموه، وتفحّص ما جمعتموه، وتعرف ما استقدمتموه، أليس قد تقدمنا إليكم بالفصل عند حتى حيثما وقعت من الألفاظ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد ينبو السيف وهو صميم، ويكبو الجواد وهو كريم. وكان لا يعود في شيء من ذل، وكان يأمر كتابه بالفصل بين، بل وبلى، وليس.

وأمر عبد الملك كتابه بذلك إلا ليس. وقال المأمون ما أتفحّص من رجل شيئاً كتفحّصي عن الفصل والوصل في كتابه، والتخّلص من المحلول إلى المعقود، فإنّ لكل شيء جمالاً، وحلية الكتاب وجماله إيقاع الفصل موقعه، وشحذ الفكرة وإجالتها في لطف التخلص من المعقود إلى المحلول.

وقلنا: إن المعقود والمحلول ها هنا هو أنك إذا ابتدأت مخاطبة، ثم لم تنته إلى موضع التخّلص ممّا عقدت عليه كلامك سمى الكلام معقوداً، وإذا شرحت المستور وأبنت عن الغرض المنزوع إليه سمّى الكلام محلولا.

مثلا ذلك ما كتب بعضهم، وجرى لك من ذكر ما خصّك الله به، وأفرادك بفضيلته من شرف النفس والقدرة، وبعد الهمّة والذكر، وكمال الأداة والآلة والتمهد في السياسة والإيالة، وحياطة أهل الدين والأدب، وإنجاد عظيم الحق بضعيف السبب، ما لا يزال يجري مثله عند كلِّ ذكر يتخذ ذلك، وحديث يؤثر عنك. فالكلام من أول الفصل إلى آخر قوله بضعيف السبب معقود، فلما اتصل بما بعده صار

محلولا.

وما كتب بعضهم: ربما كانت مودّة السبب أؤكد من مودة النّسب، لأن المودة التي تدعو إليها رغبة أو رهبة، أو شكر نعمة، أو شاكلة في صناعة، أو مناسبة بمشاكلة مودة معروفة وجوهها، موثوق بخلوصها فتوكدها بحسب السبب الداعي إليها، ودوامها بدوامه واتصالها باتصاله، ومودة القربى وإن أوجبتها اللّحمة، فهي مشوبة بحس ونفاسة، وبحسب ذلك يقع التقصير فيما يوجبه الحال، والإضاعة لما يلزم من الشكر، والله يعلم أني أودك مودّة خالصة لم تدع إليها رغبة فيزيلها استغناء عنها، ولا اضطرت إليها رهبة، فيقطعها أمن منها، وإن كنت مرجوا للموهبات بحمد الله، ومقصداً من مقاصد الرغبات، وكهفاً وحرزاُ من الموبقات. فهذا الكلام كله معقود إلى قوله: مشاكلة مودة فلما اتصل بما بعده صار محلولا.

وقال بعضهم: انظر سدّدك الله ألاّ تدعوك مقدرتك على الكلام إلى إطاله المعقود، فإن ذلك فساد ما أكننتَه في صدرك، وأردت تضمينه كتابك. واعلم أن إطالة المعقود يورث نسيان ما عقدت عليه كلامك، وأرهفت به فكرتك.

وكان شبيب بن شبة يقول: لم أر متكلما قطّ أذكر لما عقد عليه كلامه، و أحفظ لما سلف من نطقه من خالد بن صفوان، يشبع العقود بالمعاني التي يصعب الخروج منها إلى غيرها، ثم يأتي بالمحلول واضحاً، بينا مشروحا منوراً. وكان السامع لا يعرف مغزاه ومقصده، في أول كلامه حتى يصير إلى آخره.

وقال بعضهم: ليس يحمد من القائل أن يعمى معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أول باتدائه، حتى ينتهي إلى آخر، بل الأحسن أن يكون في صدره كلامه دليلٌ على حاجته ومبيّنٌ لمغزاه ومقصده، كما أن خير أبيات الشعر ما إذا سمعت صدره عرفت قافيته. وكان شبيب بن شبة يقول: الناس موكّلون بتعظيم جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكّل بتعظيم جودة المقطع وبمدح صاحبه، وخير الكلام ما وقف عند مقاطعه، وبيّن موقع فصوله.

قلنا: ومما لم يبين موضع الفصل فيه فأشكلَ الكلام قولُ المخبَّل للزبرقان ابن بدر:

وأبوك بدرٌ كان ينتهس الحصى ... وأبي الجوادُ ربيعة بن قبال

فقال الزّبرقان: لا بأس، شيخان اشتركا في صنعة وقلّما رأينا بليغاً إلا وهو يقطع كلامه على معنى بديع، أو لفظٍ حسن رشيق.

قال لقيط في آخر قصيدة:

لقد محضتُ لكم ودّي بلا دخلٍ ... فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

فقطعها على كلمة حكمة عظيمة الموقع.

ومثله قول امرئ القيس:

ألا إنَّ بعد العدمِ للمرءِ قنوةً　　　وبعد الشباب طول عمرٍ وملبسا

فقطع القصيدة أيضاً على حكمة بالغة.

وقال أبو زبيد الطائي في آخر قصيدة:

كلُّ شيء تحتال فيه الرجالُ　　　غير أن ليس للمنايا احتيالُ

وقال أبو كبير:

فإذا وذلك ليس إلا ذكرُه　　　وإذا مضى شيء كأن لم يفعل

فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدتَ له في نظمها، كما فعل ابن الزّبعري في آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويستعطفه:

فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت　　　واقبل تضرّع مستضيفٍ تائب

فجعل نفسه مستضيفا، ومن حق المستضيف أن يضاف، وإذا أضيف فمن حقه أن يصان، وذكر تضرّعه وتوبته مما سلف، وجعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة، فجمع في هذا البيت جميع ما يحتاج إليه في طلب العفو.

وقول تأبط شراً في آخر قصيدته:

لتقرعنَّ عليَّ السِّنّ من ندمٍ　　　إذا تذكرتَ يوماً بعض أخلاقي

هذا البيت أجود بيت فيها لصفاء لفظه، وحسن معناه.

ومثله قول الشّنفري في آخر قصيدة:

وإني لحلوٌ إن أريد حلاوَتي　　　ومرٌّ إذا نفس العزوف أمرّت

أبيٌّ لما آبى قريبٌ مقادتي　　　إلى كل نفس تنتحى في مسرتي

فهذان البيتان أجود ما فخر به من هذه القصيدة.

وقال بشر بن أبي خازم في آخر قصيدته:

ولا ينجِي من الغمراتِ إلا　　　براكاء القتال أو الفرار

فقطعها على مثل سائر، والأمثال أحب إلى النفوس لحاجتها إليها عند المحاضرة والمجالسة. وقال الهذلي:

عصاك الأقاربُ في أمرهمْ　　　فزايلْ بأمرك أو خالطِ

ولا تسقطنّ سقوط النوا ةِ من كف مرتضخٍ لا قطِ

فقطعها على تشبيه مليح ومثل حسن، وهكذا يفعل الكتاب الحذاق، والمترسلون المبرزون، ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له: فإن حنثتَ فيما حلفتَ، فلا خطوت لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعيت إلى مقام فخر، ولا حرصتَ على علوِّ ذكر، وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس، لا القسم باللاّت والعزى ومناة الثالثة الأخرى. فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة.

وكتب أيضاً في آخر رسالة: وأنا متوقّع لكتابك، توقّع الظمآن للماء الزلال، والصوّام لهلال شوال.

وكتب آخر أخرى، وسأل أن أخلفه في تجشيم مولاي إلى هذا المجمع ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس بغرته. فانظر كيف يقطّع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف.

ومن حسن المقطع جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكّنها في موضعها، وذلك على ثلاثة أضرب: فضرب منها أن يضّيق على الشاعر موضع القافية، فيأتي بلفظ قصير قليل الحروف فيتمم به البيت، كقول زهير:

وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبله ولكنّني عن علمِ ما في غدٍ عمِي

وقول النابغة:

كالأقحوان غداة غب سمائه جفّتْ أعالِيه وأسفله ندِى

وقال الأعشى:

وكأس شربتْ على لذَّة وأخرى تداويتُ منها بها

وقول امرئ القيس:

مكرّ مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السّيلُ من عل

وقول طرفة:

إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتُني منيعاً إذا بلّتْ بقائِمه يدِي

وقول النابغة:

زعمَ الهمامُ ولم أذقه أنه يشفى ببرد لثاتِها العطشُ الصَّدى

وقال آخر:

ألا يا غرابي بينها لا تصدّعا فطيرا جميعا بالنوى أوقعا معا

وقول متمم:

فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطولِ اجتماع لم نبت ليلة معا

وقول الأعشى:

فظللتُ أرعاها وظل يحوطُها حتى دنوتُ إذا الظلامُ دنَا لها

وقول النابغة:

لا مرحبا بغدٍ ولا أهلا به إن كان تفريقُ الأحبة في غدِ

أفدَ الترحلُ غير أن ركابنا لما تزلْ برحالنا وكأن قد

وقول ابن أحمر: وقال عدي بن زيد:

فإن كانت النعماءُ عندك لامرئ فمثِّل بها واجز المطالب أو زِد

وقال ابن أبي حية:

فقلنَ لها سرّا فديناك لا يرحْ صحيحاً وإلا تقبليه فألممِي

فألقت قناعا دونه الشمس واتَّقت بأحسن موصلين كفٍّ ومعصمِ

وقالت فلما أفرغت في فؤاده وعينيه منها السحر قلنَ له قمِ

فودَّ بجدعِ الأنفِ لو أنّ صحبه تنادوْا وقالوا في المناخ له نَمِ

ومن شعر المحدثين قول ابن أبي عيينة:

دنيَا دعوتك مسمعاً فأجيبي وبما اصطفيتك للهوى فأثيبي

دومِي أدمْ لك بالوفاء على الصفّا إني بعهدِك واثق فثقي بي

وقال آخر:

أتتني تؤنبني في البكا فأهلا بها وبتأنيبها

تقولُ وفي قولها حشمة تراني بعينٍ وتبكي بها

فقلتُ إذا استحسنتْ غيركم أمرتُ الدموع بتأديبها

فقوله: تراني بعين وتبكي بها حسن الوقع جداً.

وقلت:

سيقضي لي رضاك بردِّ مالي ويعمدُ حسن رأيك كشفَ ما بِي

وقلت:

وذقت مهوى النجم ريقاً خصرا لو كان من ناجودِ خمر ما عدا

وقد تنعمت بنشر عطرٍ لو كان من فارة مسك كان دا

والضرب الآخر: وهو أن يضيق به المكان أيضاً، ويعجز عن إيراد كلمة سالمة تحتاج إلى إعراب ليتم بها البيت، فيأتي بكلمة معتلة لا تحتاج إلى الإعراب، فيتمه به، مثل قول امرئ القيس:

بعثنا ربيا قبل ذاك مخملا كذئب الغضا يمشي الضّراء ويتقي

وقول زهير:

صَحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمَى التّعانيق فالثقل

ثم قال:

وقد كنتُ من سلمى سنينا ثمانيا على صيرِ أمرٍ ما يمرّ وما يحلُو

وقال:

لذي الحلم من ذبيان عندي مودةٌ وحفظٌ ومن يلحمْ إلى الشّرّ أنسجِ

مخوفٍ كأنّ الطير في منزلاتِه على جيف الحسرَى مجالسُ تنتجى

وقوله:

وأراك تفري ما خلقت وبع ضُ القومِ بخلقُ ثم لا يفرِي

وقول أبي كبير:

ولقدْ ربأتُ إذا الصحاب تواكلوا جمر الظَّهيرة في البقاع الأطولِ

في رأس مشرفة القذال كأنما أطرُ السحاب بها رياض المجدَلِ

ومعابلا صلعَ الظبات كأنها جمر بمسهكةٍ تشبّ لمصطلي

فقوله: لمصطلى متمكنة في موضعها.

وقول ذي الرّمة:

أراح فريقُ جيرتِك الجمالا كأنهم يريدون احتِمالا

فكدتُ أموت من حزنٍ عليهم ولم أر حاديَ الأظعان بالَي

فقوله: بالي، عجيبة الموقع، أخذه من قول زهير:

لقدْ باليتُ مظعن أمّ أوفى ولكنْ أم أو في لا تُبالي

وقال الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقال آخر:

وجوه لو أنّ المدلجين اعتشوا بها　　　صدعنَ الدّجى حتى ترى الليل ينجلي

والضرب الثالث: أن تكون الفاصلة لائقة بما تقدّمها من ألفاظ الجزء من الرسالة أو البيت من الشعر، وتكون مستقرة في قرارها، ومتمكنة في موضعها، حتى لا يسدّ مسدها غيرها، وإن لم تكن قصيرة قليلة الحروف، كقول الله تعالى: "وأنّه هوَ أضحكَ وأبكى وأنَّهُ هو أماتَ وأحيا وأنَّهُ خلق الزَّوجين الذَّكر والأنثى"، وقوله تعالى: "وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ولسوف يعطيك ربُّك فترضى"، فأبكى مع أضحك وأحيا مع أمات، والأنثى مع الذكر، والأولى مع الآخرة، والرضا مع العطية في نهاية الجودة، وغاية حسن الموقع.

ومن الشعر قول الحطيئة:

همُ القومُ الّذين إذا ألمت　　　من الأيام مظلمةٌ أضاءوا

وقول عدي بن الرقاع:

صلّى الإله على امرئ ودّعتُه　　　وأتمَّ نعمته عليه وزادا

وقول زياد بن جميل:

هم البحورُ عطاءً حين تسألُهمْ　　　وفي اللقاء إذا تلقى بهم بهمُ

وهذا مستحسن جدّاً لما تضمن من التجنيس.

ومن ذلك قول البحتري:

ظللنا نرجم فيك الظنون　　　أحاجبه أنت أم حاجمه

وقول أبي نواس:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفتْ　　　له عن عدوّ في ثياب صديقِ

الصديق ها هنا جيّد الموقع، لأنّ معنى البيت يقتضيه، وهو محتاج إليه.

وقول جميل:

ويقلنَ إنّك قدْ رضيتَ بباطلٍ　　　منها فهل لك في اعتزال الباطل

الباطل، هاهنا جيد الموقع لمطابقته مع الباطل الأول، وقلت:

وقد زيَّنتْ أسواقُه بطرائفٍ　　　إذا انصرفتْ عنها العيون تعودُ

تعود، هاهنا جيد متمكن الموقع.

ومما عيب من القوافي قول ابن قيس الرقيات، وقد أنشد عبد الملك:

إنّ الحوادثَ بالمدينة قدْ أوجعنني وقرعنَ مروتَيه

وجببلنني جبّ السَّنامِ فلمْ يتركنَ ريشاً في مناكبيه

فقال له عبد الملك: أحسنت إلاّ تخنَّثت في قوافيك، فقال: ما عدوت قول الله عز وجل: "ما أغنى عنِّي ماليهْ هلكَ عنِّي سلطانيه"، وليس كما قال، لأنّ فاصلة الآية حسنة الموقع، وفي قوافي شعره لين.

ومن عيوب القوافي أن تكون القافية مستدعاة لا تفيد معنى، وإنما أوردت ليستوى الرويّ فقط، مثل قول أبي تمام:

كالظبية الأدماءِ صافت فأرتعت زهرَ العرار الغضِّ والجثجاثا

ليس في وصف الظبية أنها ترتعي الجثجاث فائدة، وسواء رعتِ الجثجاث أو القلاّم أو غير من النبت، وإذا قصد لنعت الظبية بزيادة حسن قيل إنها تعطو الشجر، لأنها حينئذ ترفع رأسها، فيطول جيدها وتظهر محاسنُها، كما قال الطّرمّاح:

مثل ما عاينتُ مخروفةً نصَّها ذاعرُ روع مؤامِ

يصف أنها مذعورة تفتح عينيها وتمدّ جيدها، فيبدو للعين محاسنها.

وقال زهير: وقريب منه قول الآخر:

وسابغة الأذيال زغفٍ مفاضةٍ تكنَّفها منِّى بجادٌ مخطَّطٌ

وليس لتخطيط البجاد معنى يرجع إلى الدرع، ولا إلى السيف.

ومثله قول الآخر:

أأنشر البر فيمن ليس يعرِفه وأنثر الدر بين العمى في الغلَس

ليس لذكر الغلس مع العمى معنى، لأن الأعمى يستوي عنده الغلس والهاجرة، ولو قال العمش لكان أقرب من العمى، على أن الجميع لا خير فيه.

ومن هذا النوع قول القرشي:

ووقيتَ الحتوف من وارث وا لِ وأبقاكَ صالحا ربُّ هود

ليس نسبة الله تعالى إلى أنه رب هود بأولى من نسبته إياه عزّ اسمه إلى أنه رب نوح أو غيره.

وقول ابن الرومي:

ألا ربما سؤت الغيور وساءني | وبات كلانا من أخيه على وحرِ
وقبلت أفواها عذابا كأنها | ينابيع خمرٍ حصّبتْ لؤلؤَ البحرِ

فقوله: لؤلؤ البحر أفسدت البيت وأطفأ نور المعنى، لأن اللؤلؤ لا يكون في غير البحر، فنسبته إلى البحر لا فائدة فيه إلا إقامة الروى على ما قدمناه.

ورأيت المعنى جيداً فقلت:

مرّ بنا يستميلُه السّكرُ | وكيف يصحو وريقه خمرُ
قبلت فيه على مراقبة | ينبوع خمر حصباؤه درّ

ومن القوافي الرديئة قول رؤبة:

يكسين من لين الشباب نيما

النيم: الفرو، وأيّ حسن للفرو فيشبه به شباب النساء وما قال أحد: عليه من الشباب أو من الحسن فرو، وإنما يقال: رداء الشباب، وبرد الشباب، وثوب الشباب، و لم يقولوا: قميص الشباب، وهو أقرب من الفرو. ولو قاله قائل لم يحسن لأنه لم يستعمل، وإنما احتاج إلى الميم فوقع في هذه الرذيلة.

وهذا باب لو أطلقتُ العنان فيه لطال فيشغل الأوراق الكثيرة، ويصرم فيه الزمان الطويل، وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

في الخروج من النسيب إلى المدح وغيره

كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها، والوجد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: فدع ذا وسلّ الهم عنك بكذا، كما قال:

فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرةٍ | ذمول إذا صام النهار وهجّرا

وكما قال النابغة:

فسليت ما عندي بروحة عرمسٍ | تخبّ برحلي مرة وتناقلُ

وربما تركوا المعنى الأول، وقالوا وعيسٍ أو وهوجاء وما أشبه ذلك، كما قال علقمة:

إذا شاب رأسُ المر أو قلَّ مالُه | فليس له في ودِّهنّ نصيب

وعنسٍ بريناها كأنّ عيونَها قوارير في أدهانهن نصوب

فإذا أرادوا ذكر الممدوح قالوا: إلى فلان، ثم أخذوا في مديحه، كما قال علقمه:

وناجية أفنى ركيبَ ضلوعِها وحاركِها تهجُّرٌ ودؤوبُ
وتصبحْ عن غبِّ السرى وكأنها مولّعة تخشى القنيص شبوبُ

فوصفها ثم قال:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي لكلكلها والصربين وجيب

وقال الحرث بن حلزة:

أنمى إلى حرفٍ مذكّرةٍ تهضُ الحصى بمناسم ملس

ثم قال:

أفلا نعدّيها إلى ملكٍ شهم المقادة حازمِ النَّفسِ

ثم أخذ في مديحه.

وربما تركوا المعنى الأول، وأخذوا في الثاني من غير أن يستعملوا ما ذكرناه، قال النابغة:

تقاعس حتى قلتُ ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ
عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالده ليست بذاتِ عقاربِ

وقال أيضاً:

على حينَ عاتبتُ الفؤادَ على الصِّبا وقلتُ ألمّا أصحُ والشيبُ وازعُ
وقد حال همٌّ دون ذلك داخلٌ ولوجَ الشِّغاف تبتغيه الأصابعُ
وعيدُ أبي قابوسَ في غير كنهِه أتاني ودوني راكس والضواجعُ

والبحتري يسلك هذه الطريقة في أكثر شعره.

فأما الخروج المتصل بما قبله فقليل في أشعارهم، فمن القليل قول دجانة ابن عبد قيس التميمي:

وقال الغواني قد تضمَّر جلدُه وكان قديماً ناعم المتبذّل
فلا تأسَ أني قد تلافيتُ شيبتي وهزّ الغواني من شميط مرجَّلِ
بمشرفةِ الهادي نبذّ عنانها يمينَ الغلام الملجم المتدلِّل

فوصل وصف الفرس بما تقدم من وصفه الشيب وصلا.

وقال تأبط شراً:

إنِّي إذا خلةٌ ضنّتْ بنائلها		وأمسكتْ بضعيف الحبل أحذاقِ
نجوتُ منها نجائي من بجيلة إذ		ألقيت ليلة خبتِ الرهط أوراقي

وقريب منه قول أوس بن حجر في وصف السحاب:

دانٍ مسفٌّ فويقَ الأرض هيدبهُ		يكاد يدفعه من قام بالراحِ

ثم قال:

سقى دياريْ بني عوفٍ وساكِنها		ودار علقمة الخير ابن صبّاحِ

وقال زهير:

إن البخيل ملوم حيث كان ول		كنّ الجواد على علاّته هرمُ

وأما المحدثون، فقد أكثروا في هذا النوع، قال مسلم بن الوليد:

إذا شئتما أن تسقياني مدامة		فلا تقتلاها كلّ ميتٍ محرَّمُ
خلطنَا دماً من كرمةٍ بدمائنا		فأثَّر في الألوانِ منَّا الدَّمَ الدّمُ
ويقظى ثنيتُ النوم فيها بسكرةٍ		لصهباءَ صرعاها من السُّكرِ نوَّمُ
فمن لا منى في اللّهو أو لام في النَّدى		أبا حسنٍ زيدَ الندى فهو ألومُ

وقال منصور النّمري في الرشيد:

إذا امتنع المقالُ عليك فامدحْ		أميرَ المؤمنين تجد مقالا
فتىً ما إن تزالُ به ركابٌ		وضعنَ مدائحاً وحملنَ مالاً

وقال أبو الشِّيص:

أكلَ الوجيفُ لحومَها ولحومهم		فأتوك أنقاضاً على أنقاضِ
ولقد أتتكَ على الزَّمانِ سواخطاً		ورجعنَ عنكَ وهنَّ عنه رواضِ

وقال ابن وهيب:

مازالَ يلثُمني مراشفَه		ويعلُّني الإبريقُ والقدحُ
حتى استردَّ الليلُ خلعته		ونشا خلالَ سواده وضحُ
وبدا الصَّباحُ كأنّ غرتَه		ودهُ الخليفة حينَ يمتدحُ

وقال:

طللان طال عليها الأمر دثرا فلا علم ولا نضدُ

لبسا البلَى فكأنَّما وجدا بعد الأحبة مثل ما أجدُ

وقال الطائي:

صبَّ الفراق علينا صبّ من كثبٍ عليه إسحاق يوم الرَّوع منتقما

وقال:

إساءة الحادثات استبطنى نفقا فقد أظلَّك إحسانُ ابن حسَّانِ

وقال عبد الصمد بن المعذّل:

ولاح الصباحَ فشبّهتُهُ عليّ بنَ عيسى على المنبرِ

وقال البحتري:

كأنها حينَ لجَّتْ في تدفُّقها يدُ الخليفة لمّا سال واديها

وقال:

شقائق يحملن النَّدَى فكأنها دموعُ التّصابي في خدود الخرائد

كأن يدَ الفتح بن خاقان أقبلتْ تليها بتلك البارقات الرواعدُ

وقال مسلم:

أجدّك هل تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشرُ

لهوتُ بها حتى تجلتْ بغرّةٍ كغرة يحيى حين يذكر جعفرُ

وقال آخر:

وكلانا قد أحدث الراحُ فيه زهور يحيى بن خالد بن الوليد

وقال أبو البصير:

فقلتُ لها عبيد الله بيني وبين الحادثات فلا تُراعي

ألصبح منه معتصما بحبلٍ وتقصر نعمتي ويضيق باعي

كفرت إذاً صنائعه وظلتْ تعاتبه المروءة في اصطناعي

وقال البحتري في ياقوته:

إذا التهبتْ في اللّحظ ضاهى ضياؤُها جبينَك عند الجود إذ يتألّقُ

وقال:

وجرَّ عليّ الدَّجنُ هدَّاب مزنه أو أخره فيه وأوله عندي
تأخّرَ عن ميقاته فكأنه أبو صالحٍ قد بتٌّ منه على وعدِ

وقال بكر بن النطاح:

ودوِّية خلقت للسراب فأمواجه بينها تزخرُ
ترى جنّها بين أضعافها حلولا كأنهمُ البربرُ
كأن حنيفة تحميهم فألينهم خشن أزور

وقال دعبل:

وميثاءَ خضراء موشيّةٍ بها النور يزهر من كل فنّْ
ضحوك إذ لاعبته الرياح تأوَّدَ كالشارِب المرجحنّ
فشبَّه صحبي نوّاره بديباج كسرى وعصب اليمن
فقلت بعدتم ولكنَّني أشبهه بجناب الحسنْ
فتى لا يرى المال إلا العطا ولا الكنز إلا اعتقاد المننْ
قالت وقد ذكّرتها عهد الصبا باليأس تقطع عادةُ المعتاد
إلاّ الإمام فإنّ عادةَ جوده موصولة بزيادة المزداد

وقال غيره:

وكأن الرسوم أخنى عليها بعض غاراتنا على الأعداء

وقال البحتري:

بين السقيفة فاللّوى فالأجرعِ دمنٌ حبسن على الرياح الأربَعِ
فكأنما ضمنت معالمها الذي ضمنته أحشاءُ المحبّ الموجع

وقال:

أقول لثجَّاج الغمام وقد سرى لمحتفل الشؤبوب صاب فعمَّما
أقل أو أكثر لست تبلغ غاية تبين بها حتى تضارع هيثما
فتىً لبستْ منه الليالي محاسناً أضاء له الأفق الذي كان مظلِما

وقال:

قد قلت للغيث الرّكام ولج في إبراقه وألحّ في إرعاده
لا تعرضنّ لجعفر متشبِّها بندى يديه فلست من أندَاده

وقال:

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدَا إذا بقى الفتح بن خاقان والقطرُ

وقال:

أبرقٌ تجلّى أم بدا ابن مدبِّرٍ بغرة مسئول رأى البشر سائلُه

وقال:

أدارهم الأولى بدارة جلجلٍ سقاك الحيا روحاته وبواكرُهْ
حباؤك يحكِي يوسف بن محمد فروّتك ربّاه وجادك ماطرُه

وقال:

كأن سناها بالعشيّ لشربها تبلج عيسى حين يلفظ بالوعد

وقال:

آليت لا أجعل الإعدام حادثة تخشى وعيسى بن إبراهيم لي سندُ

وقال:

أيام غصن الشباب تهتز كال أسمر في راحة بن حمّاد

وقال:

لا والذي سنَّ للمدامة وال ماء نكاحا بغير تطليق
ما رمقت مقلتاي أمسح في ال عالم من راحة أحمد بن مسروق

وقال عليّ بن جبلة:

وغيث تأنقه نوؤه فألبسه عللاً أربدَا

تظلّ الرياح تُهادي به إذا ما تحيّزَ أو غرّدا
كأن تواليه بالعرا ء تهوى إلى جلمدٍ جلمدا
تداعِي تميم غداةَ الجفا ر تدعو زرارة أو معبدا

وقال علي بن الجهم:

وساريةٍ ترتادُ أرضاً تجودُها ... شغلتُ بها عيناً قليلاً هجودُها
أتتنا بها ريحُ الصَّبا فكأنها ... فتاةٌ تزجِّيها عجوز تقودها
فما برحتْ بغدادُ حتى تفجَّرتْ ... بأودية ما تستفيق مدُودها
فلما قضت حق العراق وأهله ... أتاها من الريح الشمال بريدُها
فمرّت تفوت الطرف سعياً كأنها ... جنودُ عبيد الله ولت بنُودها

وقال أيضاً:

دبرنَ وللصبّاح معقّبات ... تقلِّصُ عنه أعجازَ الظلامِ
فلما أن تجلَّى قال صحبي ... أضوء الصُّبح أم وجهُ الإمام

وقال البحتري:

سقيتْ رباك بكل نوء جاعل ... من وبله حقّاً لها معلوما
فلو أنني أعطيت فيهنّ المنى ... لسقيتهن بكف إبراهيما

وقال:

قل لداعي الغمام لبيك واحلل ... عقلَ العيس كي يجيب الدعاء

وقال أبو تمام:

يا صاحبيَّ تقصَّياً نظريكُمَا ... ترَيا وجوه الأرضِ كيف تصوَّرُ
ترَيَا نهاراً مشرقاً قد شابهُ ... زهرُ الرُّبا فكأنما هو مقمرٌ
خلقٌ أطلّ من الربيع كأنهُ ... خلق الإمام وهديه المتنشّرُ

وقال:

فالأرض معروفُ السماءِ قرىً لها ... وبنُو الرجاء لهم بنو العبَّاسِ

وقال:

نجاهد الشوق طوراً ثم نتبعه ... مجاهدات القوافي في أبى دلَفا

وقال:

إذا العيسُ لاقتْ بي أبا دلف فقد ... تقّطع ما بيني وبين النوائبِ

وقال:

تداو من شوقك الأقصى بما فعلتْ خيلُ ابن يوسفَ والأبطالُ تطَّردُ

وقال:

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف محمد بن أبي مروان والنَّوبُ

وقال:

ولقد بلونَ خلائقي فوجدنَني سمحَ اليدين ببذل ودّ مضمر

يعجبن مني إذ سمحتُ بمهجتي وكذاكَ أعجبَ من سماحة جعفر

ملك إذا الحاجاتُ لذنَ ببابه صافحنَ كفّ نوالِه المتيسر

وقال:

لا والذي هو عالم أنّ النوى صبرٌ وأن أبا الحسين كريم

وقال آخر:

سقيمات أرجاء العيون تركنني أكابد أسقاما ولست أعادُ

فيا عجباً إن الظباء بطرفها تصيد رجالاً والظباء تصادُ

وللبحر ما بين الفرات ودجلَةٍ أؤمل منه الرِّيّ وهو جمادُ

وقلت أذكر الشيبُ:

أراني منهاج الهدى فسلكتُه ولم تتشعَّبْ في الظلال مذاهبي

وخبّر أن الجهلَ ليس بآيب إليّ وأن الحلم ليس بعازب

فأفصح من بعد العجومة مادِحي وأعجمَ من بعد الفصاحة عائبي

وردّ إلى خير الأنام مدائحي فحلّت محل العقد من جيدِ كاعِب

وأنجم كربربٍ في سربِ يحكين غرا في جلال خطب

والحور ترنو من خلالِ الحجبِ وعزمكم ورأيكم في الخطبِ

وبيضكم وبيضكم في الحربِ

ومن لم يوسع للنوائب صدرَه أفادته ضيقا في مرام ومذهبِ

وإني إذا ألقيتُ بيني وبينَها أبا طاهر لم تدرِ كيفَ تضرُّ بي

نازعتُه غلس الظلام مدامة تتعلّم الإسكارَ من لحظاتِهِ

وكأنّها معصورةٌ من خدِّه مغصوبة بالدُّر من كلماته

تشكو الزَّمان وذاك من لذَّاتِه وبقاء إسمعيل من حسناته

هذا تعدٍّ في الشكاية ظاهرٌ ولربَّ شاك معتد بشكاته

كافي الكفاة برأيه وعزيمةٍ كزمانِه بخطوبِه وهِباته

عادةُ الأيام لا أنكرُها فرحٌ تقرنُه لي بترحْ

وإذا قام على النَّهج انثنَى وإذا سارَ على القصد جنحْ

ويريبك فلا تفرحْ به فهو كالجازر ربَّي فذبحْ

غير أنّ النُّهَى منه كلّما جمحَ الدهرُ بواديّ كبحْ

ومدّ علينا الليل ثوباً منمَّقاً وأشعلَ فيه الفجرُ فهو يحرقُ

وصبَّحنا صبحٌ كأن ضياءهُ تعلّم منّا كيفَ يبهى ويشرقُ

تولّتْ به الأيام وانجردتْ بحسنه ولعاتُ البين فانجردا

غدا لهُ المزنُ منهلاً بوادرُه كأن فيه ليحيى إصبعاً ويدَا

تصعَّدَ فيه وهو زرقٌ جمامه فتحسب أنا في السّماء نصعّدُ

أطفنا بمحمود السجية ماجدٌ رضاه لما نرجو من الخير موعدُ

بممتثل فعلَ السحاب إذا غدا يصفّق فيها رعدُها ويغرِّدُ

ومرَّ بأكنافِ اللّوى خاطرُ الصبا فحرض شوقاً لا يزالُ يحرِّضُ

بليلٌ كما ترنُو الغزالةُ أسودٌ على أنه من نور وجهك أبيضُ

يريدون أن أخشى وأخشع للأذى وجار ابن عيسى كيف يخشى ويخشعُ

وطهارةُ الأخلاق لم تظفر بها إلا بحيث طهارةُ الأعراق

كخلائق الأستاذ إن جاوزتها تجدُ الخلائق غيرَ ذات خلاق

مهريّة ألوى السفار بنحضها فتخالها تحت الرّحال رحالا

أمنت بساحة أحمد بن محمد من أن يذل عزيزها ويزالا

وقد دلّت الدنيا على عيبِ نفسِها إذ التفتت للؤم بعد التكرم

فما تولّتْ حتى استردت نوالَها وشنَّتْ علينا أبؤسا بعد أنعم

ولكن سيعديني عليها ابن أحمد نبيّ الهدى وابن الوصى المكرم

وإني متى أعلق بسالف وجه تبدلت من أمري سناما بمنسمِ

صرف العنانَ إلى التناصف في الهوى صرفى الرجاء إلى نوال أبي علي

وهذا ميدان لو جرينا فيه إلى أقصاه أتعبنا الناسخ، وأمللنا السامع والناظر وفيما ذكرناه كفاية.

وقد فرغتُ من شرح الأبواب والفصول التي تقدم بها الشرط في أول الكتاب، وجعلتها واضحة نيرة وملخصة بينة من غير إخلال يقصر بها أو إكثار يزري عليها، وقد نقحتها وأوضحتها وهذبتها وشذّبتها حسب الطاقة، وأنا بعد ذلك معتذر من الزلل يكون فيه، والسقط يوجد في ألفاظها أو معانيها، فإذا مر بك شيء فاغتفر الذلة فيه، فليس في الدنيا برئ من جميع العيوب، ولا مستقيم من كل الجهات، وقد قلت:

عزّ الكمال فما يحظى به بشر لكل خلق وإن لم يذر ذوعاب

وقلت أيضاً:

لا تعتمد نشرَ العيوب وبثّها يسلم لك الإخوان والأصحاب

واشدد يديك بما يقلّ معابه ما فيهم من ليس فيه معاب

على أن هذا الكتاب قد جمع من فنون ما يحتاج إليه صناع الكلام ما لم يجمعه كتاب أعلمه، وكل شيء استعرته من كتاب وضمنته إياه فإني لم أخله من زيادة تبيين واختصار ألفاظ وغير ذلك مما يزيد في قيمته ويرفع من قدره، وأنا أسأل الله تعالى النفع به والعون على حفظه، وإيزاع الشكر على النعمة في التمكين من جمعه، وهو جل ثناؤه وليّ ذلك بمّنه ولطفه.

وفرغت من تأليفه ورصفه وتصنيفه في شهر رمضان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة والحمد لله رب العالمين وصلواته على رسوله محمد النبي الأمي وآله أجمعين.

تم الكتاب

الفهرس

المقدمة 2
الباب الأول 6
الإبانة عن موضوع البلاغة 6
الفصل الأول 6
الفصل الثاني 8
في الإبانة عن حد البلاغة 8
الفصل الثالث 10
وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة 10
الباب الثاني 38
تمييز الكلام جيده من رديه وناره من بارده 38
الفصل الأول من الباب الثاني 38
في تمييز الكلام 38
الفصل الثاني 47
في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها 47
الباب الثالث 89
معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ 89
الفصل الأول 89
في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه 89
الفصل الثاني 102
فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته 102
الباب الرابع 107
البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك 107
الباب الخامس 115
ذكر الإيجاز والإطناب 115

الفصل الأول من الباب الخامس في ذكر الإيجاز 115
الفصل الثاني من الباب الخامس في ذكر الإطناب 125
الباب السادس 130
حسن الأخذ وحل المنظوم 130
الفصل الأول من الباب السادس في حسن الأخذ..130
الفصل الثاني من الباب السادس في قبح الأخذ...151
الباب السابع...158
التشبيه..158
الفصل الأول من الباب السابع 158
في حد التشبيه وما يستحسن من منثور الكلام ومنظومه 158
الفصل الثاني 170
في البيان عن قبح التشبيه وعيوبه..170
الباب الثامن 173
ذكر السجع والازدواج...173
الباب التاسع..177
شرح البديع..177
الفصل الأول...177
في الاستعارة والمجاز 178
الفصل الثاني من الباب التاسع...205
في المطابقة 205
الفصل الثالث...215
في ذكر التجنيس...215
الفصل الرابع...227
في المقابلة 227
الفصل الخامس..229
في صحة التقسيم...230
الفصل السادس 232

في صحة التفسير 232
الفصل السابع..234
في الإشارة 234
الفصل الثامن..236
في الأرداف والتوابع..236
الفصل التاسع 237
في المماثلة 238
الفصل العاشر 240
في الغلو 240
الفصل الحادي عشر..246
في المبالغة..246
الفصل الثاني عشر..248
في الكناية والتعريض 248
الفصل الثالث عشر 250
في العكس 251
الفصل الرابع عشر 252
في التذييل..252
الفصل الخامس عشر 253
في الترصيع..253
الفصل السادس عشر..256
في الإيغال..257
الفصل السابع عشر 258
في التوشيح..258
الفصل الثامن عشر..260
في رد الأعجاز على الصدور 260
الفصل التاسع عشر 263
في التتميم والتكميل..263

الفصل العشرون 265
في الالتفات 265
الفصل الحادي والعشرون 266
في الاعتراض..266
الفصل الثاني والعشرون 267
في الرجوع...267
الفصل الثالث والعشرون...268
في تجاهل العارف، ومزج الشك باليقين 268
الفصل الرابع والعشرون...270
في الاستطراد..270
الفصل الخامس والعشرون...272
في جمع المؤتلف والمختلف..272
الفصل السادس والعشرون 275
في السلب والإيجاب..275
الفصل السابع والعشرون...276
في الاستثناء 276
الفصل الثامن والعشرون 277
في المذهب الكلامي 277
الفصل التاسع والعشرون...278
في التشطير..278
الفصل الثلاثون 280
في المجاورة..280
الفصل الحادي والثلاثون 283
في الاستشهاد والاحتجاج..283
الفصل الثاني والثلاثون 285
في التعطف..285
الفصل الثالث والثلاثون...287

في المضاعفة 287
الفصل الرابع والثلاثون..289
في التطريز...289
الفصل الخامس والثلاثون..290
في التلطف 290
الباب العاشر..294
ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه 294
الفصل الأول...294
في ذكر المبادئ..294
الفصل الثاني 299
في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل 299
الفصل الثالث..309
في الخروج من النسيب إلى المدح وغيره 309
الفهرس..319